پـول بُورجـيه

التلـــمِيذ

رواية

نقلها إلى العربية: عبدالمجيد نافع



كتاب الدوحة

التلميذ

يُوزّع مجّاناً مع العدد (108) من مجلّة «الدوحة» - أكتوبر - 2016

التلمِيذ

تأليف: پول بورجيه

الناشر :
وزارة الثّقافة والرياضة - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

العمل الفني للغلاف: صورة لباريس في القرن التاسع عشر
الإخراج والتصميم: القسم الفني - مجلّة الدوحة

المادة المنشورة في الكتاب تُعبِّر عن آراء كُتّابها، ولا تُعبِّر -بالضرورة- عن رأي الوزارة أو المجلّة.

پول بُورجيه

التلـــمِيذ

رواية

نقلها إلى العربية
عبدالمجيد نافع

كتاب الدوحة

إلى الشـــــابّ الذي يوشـــــــــك أن يخوض معركـــة الحياة،

إلى الشـــــابّة التي لا تلـــبث أن تنشـــــــئ جـــــنوداً للوطـــــن،

أهدي هذه الرواية

المترجم

مقدِّمة

وضع رواية «التلميذ» نابغة الأدب الفرنسي پول بورجيه، وقد طالعتها غير مرّة، إذ كانت تنازعني إليها نفسي، فآثرت أن أحبوها طلّاب الأدب الرفيع، وأحببت أن تضاف إلى تراث نهضتنا الأدبيّة، وحرصت على أن أجلوها في حلّة قشيبة. لتتمشّى مع جلال الغاية التي قصد إليها الكاتب. وكلّي رجاء أن أكون قد وُفِّقت إلى إحلال المعاني الغربية، في معانٍ عربيّة.

ولئن كنت، في بعض المواطن، قد عمدت إلى شيء من التصرُّف، وقليل من الحذف، فإنما أردت أن أتفادى ما قد يصطدم مع الشعور الديني، وأن أتجافى عمّا يمكن أن يتعارض والتقاليد القومية، أو يخدش حياء العذارى، أو يبعث السأم في النفوس.

على أني كنت أميناً على فكرة الكاتب، حريصاً على المبدأ الذي قصد إلى تحقيقه، فما أخللت بسياق الرواية، ولا شوَّهت الوقائع، ولكني وفَّرت على القراء بعض المسائل الفلسفية الجافّة التي يستعصي فهمها على الذين لم يتوفَّروا على دراسة الفلسفة.

والحقّ أن الكاتب لم يقصد إلى محض التسلية، بل عمل على ترويج فكرة،

ومحاربة بدعة، ومحو ضلالة، ودفاع عن رأي، وذود عن مبدأ، على أنه قد وفق إلى الجمع بين روعة القصّة، وجلال المعنى.

ولا أحسبني مخطئاً في اعتقادي بأنه وضع قصَّته للخاصّة وللعامّة معاً. فالخاصّة ترى بها الفلسفة الناضجة، والآراء الحقّة، والتحليل القويّ الرائع، وكلّ أولئك يسوقه المؤلِّف في أسلوب ساحر، وقصص يستهوي الأفئدة، أما العامّة فتجدها أشبه الأشياء بالروايات البوليسية؛ حافلة بالحوادث العنيفة، فيّاضة بالمفاجآت المروِّعة، ولم أشأ أن أضيِّق دائرة الانتفاع بتلك الرواية الممتعة الشائقة، فأبرزتها في ثوب قشيب، ترضى عنه بلاغة الخاصّة، ولا يعسر على فهم العامّة.

وما التحليق في سماء البلاغة إلّا أن يكتب الكاتب ليفهم الناس، وما الإسفاف والابتذال إلّا أن تضلّ، في شعاب ما يكتبه، العقول.

***

في أواخر القرن التاسع عشر، طغت على فرنسا موجة الإلحاد، وعصفت بها ريح التنكُّر لكلِّ شيء؛ فكنت ترى نفراً يجحدون الأديان جميعاً، ويتهجَّمون على كافّة ما يقدِّسه مواطنوهم، وترى طائفة تنكر ما تواضَعَ قومها على أنه شرف، واصطلحوا على أنه فضيلة، زعماً بأن الخير والشرّ، والفضيلة والرذيلة، والجمال والقبح، والشرف والانحطاط، ما هي إلّا كلمات يطنطن بها الناس، دون طائل ولا غَناء.

واستسلم فريق من الشبّان إلى الإباحية؛ جرياً وراء القائلين بأن قيمة الحياة في تحقيق أكبر قسط من اللذّة والمتاع. وعمد فريق آخر إلى اعتناق

المذاهب الهدّامة، فسخروا من النظم العتيقة، وهزئوا بالتقاليد البالية، وأعْمَلوا معاولهم في بناء المجتمع؛ ليقيموا على أنقاضه صرحَ المجتمع العصري الذي تتحقَّق فيه مبادئ العدالة، والحرِّيّة، والسعادة.

ووقف پول بورجيه في وجه تيّار الإلحاد يصده، وعاصفة الإباحية والاستهتار والفوضى الفكريّة يدفع أذاها عن الشبيبة الفرنسية، لتكون خليقة بمجد فرنسا: الطارف، والتليد.

ولقد وُفِّق في رواية «التلميذ» إلى أقصى حدود التوفيق.

وأرى حقّاً عليَّ أن أدع القارئ يشهد مصداقاً لما قلت، وأرجو أن أكون قد ساهمت بنصيب في نهضتنا الأدبيّة.

عبدالمجيد نافع

الفيلسوف الهَدّام

كان أهل مدينة «كونجزبرج» يرقبون حدثاً رهيباً يقوِّض دعائم العالم المتحضِّر، إذ بدا يوماً، للفيلسوف، غير بعيد، حتى علم باضطرام نيران الثورة الفرنسية. وعلى الرغم من أن أهل «باريس» لا يجنحون إلى الاستسلام لمثل ذلك الوهم، فقد هال قُطّان شارع «جي دولا بروس» أن يروا فيلسوفاً، إن لم تكن له شهرة «كَنْت» المستفيضة، فإنه يشبهه في دقّته ونظامه، وحركاته وسكناته، ويزيد أنه أشدّ منه إيغالاً في الهدم- نقول هالهم أن يروه على غير مألوف عادته، يبرح البيت في يوم من أيّام شهر يناير، من عام 1887، حوالي الساعة الواحدة؛ ذلكم هو «أدريان سكست» الذي آثر الإنجليز أن يخلعوا عليه لقب «سبنسر الفرنسي».

وكانت البيت الذي اختاره لمقامه يقع في حيٍّ من تلكم الأحياء الباريسية، التي ترفرف عليها أعلام الهدوء والسكينة، وكان سكّان الحيّ، يراقب بعضهم حركات بعض، بل كانت الحركات البريئة تثير القيل والقال، وتطلق الإشاعات من كلّ عقال. فإذا طاب للنسوة أن يبدين زينتهن لغير

بعولتهن، أصبحن مضغةً في الأفواه. وإذا عرض لأحد أن يبدِّل موعد غدوه ورواحه، استرعى الأنظار، واستثار فضول الناس. فمال بالك بـ«أدريان سكست»!؟. وسترى من الصورة التي نرسمها له، أنه رجل غريب الأطوار، خليق أن يسترعي الأنظار والأفكار.

وحقاً أن حياة ذلك الرجل تثير طلعة الراغبين في تعرُّف الطبيعة الإنسانية، وتعطيهم صورة صحيحة واضحة للفيلسوف، الذي أُشربت نفسه بحبّ الفلسفة، وجدَّ في البحث وراء الحقيقة، وتمزيق القناع عن أسرار هذا العالم، و- باختصار- عن كلّ ما يثير العقل البشري، إذ وقف حياته على البحث والتقصّي.

مضت أربعة عشر عاماً، على اليوم الذي وضعت فيه حرب السبعين أوزارها، فأقبل مسيو «سكست» على شارع «جي دولابروس»، واتَّخذ له في أحد البيوت مسكناً، ولم يكن جاوز الرابعة والثلاثين من عمره. لكن، لا يبدو عليه شيء من غضارة الصبا، أو نضارة الشباب، فقد بكَّرتا بمغادرته؛ لإضنائه العقل في عالم الآراء والأفكار.

كانت له جبهة عالية بارزة، وفم ينفرج عن شفتَيْن دقيقتَيْن، ولون يضرب إلى الصفرة، وعينان مريضتان من الانكباب على الدرس، وإدمان المطالعة، تختفيان تحت نظّارة سوداء، وهو ذو جسم نحيل، يرتدي الثوب الرسمي، صيفاً وشتاءً، وخصَل شَعْر متدلِّية قد اشتعلت شيباً، ولات حين مشيب، تحت قبّعة تكسوه جلالاً وروعةً، و- إن شئت- سِرّاً ورهبة.

وكان يشغل مسكناً في الدور الرابع، يستأجره بسبعمئة فرنك في

العام، مؤلَّف من حجرة للنوم، وغرفة للمكتب، وأخرى للطعام، وغيرها للخادمة، ومطبخ، وكلّها تشرف على أفق رحب؛ فكان الفيلسوف مشرفاً، من نوافذه، على جنبات حديقة النباتات.

وعَهد بإدارة شؤون البيت إلى الآنسة «ترابينارد»، على أن يدفع لها أجراً خمسة وأربعين فرنكاً. أوصَلَها إلى ستّين فرنكاً، فوق ما كان ينفحها من الهِبات. وظلَّت الآنسة في خدمته، أمينةً على مصالحه، وفيّةً له، كما تكون ربّات البيوت.

وكانت «ترابينارد» تحسن الظنّ بالفيلسوف، ولا يروِّعها منه إلّا إلحاده، وإحجامه عن الصلاة، طوال خمسة عشر عاماً.

وُلِد «أدريان سكست» في مدينة «نانسي» عام 1839. من رجل يتاجر بالساعات. وكان الغلام متوقِّد الذكاء، على أن هزاله والتزامه الصمت، وبقاءه في أحضان العزلة، كلّ أولئك، كان يحمل أصحابه ولداته على الظنّ بأن في أخلاقه شذوذاً، وفي نفسه جفوة.

ومضى الفتى في دراسته، متفوِّقاً على أقرانه، حتى إذا بلغ مرحلة الفلسفة، بما يتفرَّع عنها من علم «المنطق»، تجلّت مواهبه وملكاته، ولاح لأستاذه استعداده لعلوم ما وراء الطبيعة، فأراده له أن يهيِّئ نفسه لامتحان مدرسة «النورمال»، فأبى قائلاً إنه إذا كان لابدّ له من صناعة، فهو يؤثِر صناعة أبيه. ولم يقتصد أبوه في تأنيبه، إذ كان يداعبه الأمل، شأن كلّ صانع أو تاجر فرنسي، أن يغادر ابنه درج الجامعة، ليتربَّع في دست الوظيفة. وما أخذ أبواه عليه هفوة من الهفوات، فما رأيَاه يوماً يدخِّن، ولا شوهد، مرّةً، يغشى مقهى، أو يختلف إلى ملهى، أو يتأبَّط ذراع فتاة،

فكان مدعاة فخرهما، ومعقد آمالهما؛ فلا عجب إذا هما نزلا عند إرادته، وإن فاض بالحزن قلباهما. وقد أبيا عليه الاشتغال بصناعة، وإن يكن ساءهما أنه لم يلتحق بوظيفة. وكذلك، قُدِّر لـ«أدريان سكست» أن يقضي وقته بين ظهرانيهم، مكبّاً على الدرس والمطالعة. وأقبل، مدى عشر سنوات كاملات، على دراسة الفلسفتَيْن: الإنجليزية، والألمانية، في العلوم الطبيعية، والرياضيات. واستوعب آراء كلٍّ من: كارليل، وستيوارت مل، وتين، ورينان، وريبو، و- على الجملة- كلّ أساطين العلم، وشيوخ الحكمة، في العصر الحديث.

وفي عام 1868، أخرج ابن صانع الساعات في مدينة «نانسي»- وقد بلغ التاسعة والعشرين من عمره- كتاباً يحمل هذا العنوان الغريب «روح الله»، ثم بعث به إلى خمسة عشر شخصاً لا يزيدون، وقد قُدِّر له أن يُحدِث ضجّة في جميع البيئات، ودَوِيّاً هائلاً بين كافّة الطبقات.

وضع الكتاب على ضوء التحليل العلمي الذي قد يبلغ القسوة، وفي ظلّ الإنكار الذي يكاد يشارف حدود التعصُّب. لم تكن له شاعريّة «تين»، ولا جفوة «ريبو»، لكنه قد جمع بين بلاغة الأوَّل، وعمق تفكير الثاني، وأثار اهتمام الباحثين، لأنه اصطدم بأدقّ مسألة من مسائل علوم ما وراء الطبيعة.

وقد كان جائزاً أن يظلّ الكاتبُ مغمورَ الاسم، والكتابُ خاملَ الذكر، لولا أن أتيح له أن يتصدّى، للردّ عليه، مطرانٌ مستفيض الشهرة، ويلمِّح إليه أحد رجال الدين، في خطاب له بمجلس الشيوخ، تلميحاً يشفّ عن الحنق، ويتصدّر، لهدم نظريّاته، كاتب كبير في إحدى المجلّات، فكانت

تلك العوامل، مجتمعةً، مثار اهتمام الشباب، الذين كانت تهبّ عليهم، في ذلك الحين، عاصفة الإلحاد، وتطغى عليهم موجة التنكُّر لما تواضعوا على تسميته بالآراء العتيقة، واصطلحوا على اعتباره نُظُماً بالية، فكانت تحتشد، في الأفق، رعود الثورة وبروقها، منذرةً بالانفجار القريب.

وكذلك، قُدِّر للمؤلَّف الجديد، الذي وضعه صاحبه في سكون الوحدة، أن يصبح مثار الضجّة في بيئة الآراء العصرية. وللحقّ، مضت سنون، لم يشهد فيها الناس مثله قوّةَ حجّة، وسعةَ اطِّلاع. إلّا أنه، بينا أصبح اسم الكاتب، في باريس، ملء الأفواه والأسماع، أثار نجاحه الحزن في قلوب ذوي قرباه؛ إذ أتيح لوالدته أن تقرأ بضع رسائل في الصحف الكاثوليكية، نقداً له، فأسلمها ذلك الاطِّلاع إلى اليأس، وتوجَّس أبوه خيفةً من فقدان حرفائه[1]، في بيئة الطبقة الارستقراطية بمدينة «نانسي». وثارت ثائرة الناس على الفيلسوف، وانصبَّت الأحقاد على رأسه، وأوشك أن يهجر أسرته، لولا أن الغارة الألمانية، والنكبة القومية التي تلتها، قد صرفتا عنه أنظار أهله، وبَني وطنه.

ومات أبواه في ربيع عام 1871. وفي صيف العام نفسه، قضت عمّته نحبها. فما إن أقبل الخريف، في عام 1872، حتى رتَّبَ شؤون ميراثه، وولّى وجهه شطر باريس، يزمع الإقامة فيها. وبلغ إيراده، من نصيبه في تركة أبيه وعمَّته، ثمانية آلاف فرنك، في العام.

وصحت عزيمته على ألّا يتزوج، ولا يغشى الأندية الخاصّة، ولا يختلف إلى الاجتماعات العامّة، ولا يطمح إلى ألقاب الشرف، ولا يرنو إلى الوظائف،

---

(1) زبائنه

ولا يجري وراء الشهرة، بل يكون شعاره في الحياة هو التنقيب عن الحقيقة!

ولو أنا ألقينا نظرة عامّة على حياته اليومية، لوجدنا فيه، العامل الذي لا تفتر همّته، ولا يجد الوهن إلى عزيمته سبيلاً؛ فإذا أقبلت الساعة السادسة، صيفاً أو شتاءً، ألفيته مكبّاً على مكتبه، وما تزوَّدَ إلّا بقدح من القهوة، فإذا كانت الساعة العاشرة تناول طعام الفطور، على عَجَل. وما هي إلّا لمحة حتى تضمّه جوانح حديقة النباتات، فيلبث فيها حتى ينتصف النهار. وإذا بدا له أن يسرف في الرياضة، تهادى في الطريق إلى «نوتردام». وكان أحبّ شيء إلى قلبه أن يطيل المكث أمام محالّ القِرَدة، وحظيرة الفيل.

وما كان يروِّع الأطفال والخادمات إلّا أن يروا رجلاً يتضاحك من وحشيّة القِرَدة تارةً، ومن قحتها تارةً أخرى، وما كان هؤلاء وأولئك ليبلغوا مناط الفكرة التي تطوف في خاطر الفيلسوف، إذ كان يوازن بين المهزلة التي يمثِّل الناس فصولها، والمهزلة التي تلعب القِرَدة أدوارها، كما كان يفاضل بين الحماقة التي يغرق فيها الإنسان إلى أذنيه، والحكمة البالغة التي توافرت لذاك الحيوان، الذي يزعم الزاعمون أنه كان سيِّد العالم.

فإذا انتصف النهار انقلب «مسيو سكست» إلى بيته، فلبث يعمل حتى الساعة الرابعة. وفيما بين الرابعة والسادسة، كان يستقبل، ثلاث مرات في الأسبوع، زائريه، وكلّهم أو جلّهم من الطلبة والأساتذة الذين تحصَّلوا على مثل دراسته، ومن الأجانب الذين تجتذبهم شهرة أصبحت تدوّي في جوانب أوروبا بأسرها.

وكان يبرح البيت ثلاث مرّات في الأسبوع، ليؤدّي واجب الزيارة لبعض

صحبه، وإذا جاءت الساعة السادسة تناول طعام العشاء، ثم خرج للنزهة، حتى يبلغ محطّة «أورليان». فإذا كانت الساعة الثامنة انحدر إلى بيته فأخذ في ترتيب رسائله، أو انكبَّ على المطالعة. فإذا أقبلت الساعة العاشرة أطفأ الأنوار، وأوى إلى مضجعه.

تلك الحياة التي تماثل حياة الراهب في الدير، والناسك في الصومعة، لم تكن تتخلَّلها راحة أسبوعية إلّا يوم الاثنين. فلقد آثره الفيلسوف على يوم الأحد؛ إذ تتدفَّق جموع المتنزِّهين، وتطغى موجتهم على الريف.

فإذا أقبل يوم الاثنين رأيته يبكر، فيستقلّ قطار الصباح، فلا يغادر الضواحي إلّا إذا أرخى الليل سدوله.

كذلك أمضى خمسة عشر عاماً، لم يبدِّل خلالها نظام حياته مرّةً واحدة؛ فما قَبِلَ دعوة إلى تناول الطعام في غير بيته، ولا اتَّخذ له مقعداً في ملهى، وما كان ليقرأ صحيفة قطّ، ملقياً أمور الإعلان على عاتق من يتولّى طبع مؤلَّفاته. ولو أغرقه كاتب في طوفان من المديح، ما كَلَّف نفسه مؤونة شكره على ما أسدى من حَمْد. وما كان يحفل بالسياسة، في كثير أو قليل، حتى لقد آثر ألّا يتسلَّم تذكرة الانتخاب.

ويجمل بنا، كي نتمّ تصوير تلك الشخصية الفذّة، أن نقول إن الرجل قد فَصَم كلّ عروة تربطه بأهله، وكانت تلك القطيعة ترتكز على نظرية، يدين بها الفيلسوف في أعماق نفسه. ولم لا؟ أليس هو القائل، في مقدِّمة كتابه الثاني «تشريح الإرادة»: «ينبغي لكلّ من يودّ أن يعلم الحقيقة، ويجهر بها في عالم العلوم النفسية، أن يتحلَّل، قد المستطاع، من قيود الروابط الاجتماعية»؟.

ولمثل هذا الباعث، كان ذاك الرجل الوديع، الذي لم تجاوز ملاحظاته على خادمته، طوال خمسة عشر عاماً، الثلاث عدّاً، يقبض يده عن الإحسان. فهو يؤمن بقول «سبينوزا»: «الرحمة، في نظر الحكيم، سيِّئة لا خير فيها»، وشأن «أدريان سكست»، في ذلك، شأن «اميل لتريه»، فهو خليق أن يُلَقَّب بـ«القدّيس اللّادينيّ»، إذ له من القدّيس خلقه، وإن لم يكن له منه إيمانه ونسكه، فهو يجنح إلى اعتبار الدين مرضاً من أمراض الإنسانية، متوهِّماً أنه يسلِّم المرء إلى التعلُّق بالخيال، ويوسِّع مسافة الخلف بينه وبين نواميس الطبيعة!

وما لبث أن طالع الناس بكتاب جديد، في ثلاثة مجلَّدات، دعاه «نظريّة العواطف». ولولا حرِّيّة الفكر والقلم، لضاقت صدور الناس بما احتواه من وصف جريء، ولجعلوه طعاماً للنار، ولزجّوا بصاحبه في غياهب السجون.

فهو يرى الهوّة، بين الدين والعلم، بعيدة، حتى لا يستطاع تضييق ما بينهما من خلاف، ويذهب إلى أن تهذيب مشاعرنا، وصقل أخلاقنا، إنّما يرجع إلى عوامل التطوُّر.

ويخيَّل إليَّ أن الرجل ما كان يحفل بالعواطف، أو يأبه بالمشاعر: نعم، إنه كان يحبّ أمّه، لكن هذا الحبّ هو العاطفة الوحيدة التي دبَّت بين جوانحه.

ولقد كانت روحه مشَرَّبة بالعطف، متشبِّعة بالتسامح حيال جميع الناس، عطفاً وتسامحاً، مبعثهما تلك الغريزة التي توحي إليه بالرحمة حتى بالجماد، فلا يزحزح الكرسي إلّا في هوادة، ولا ينقل الأثاث إلّا في

رفق، على أنه ما أحسَّ يوماً بالحاجة إلى حنان يغمره، وعطف يحيط به، وحبّ يفيض عليه، وإخلاص يتجلّى له، وعائلة تحوِّطه بالعناية والرعاية، أستغفر الله! بل ما أحسَّ بالحاجة إلى الصداقة، في أبسط مظاهرها.

وما توثَّقت الروابط بينه وبين نفر من العلماء، إلّا ليحاجّ هذا في علوم الكيمياء، أو ليجادل ذاك في الرياضيات العليا، أو ليناقش الآخر في أمراض المجموعة العصبية.

وما كان يعنيه من جماعة العلماء أن تكون لهم زوجات، أو يكون لهم أولاد، أو يكونوا منهمكين في البحث عن المناصب والوظائف، إنَّما كان كلّ ما يعنيه منهم هو جانب البحث العلمي.

ويا عجباً لفيلسوف، تلك صورة حياته، أن يشعر بالسعادة في أعماق نفسه! تَمثّلْ أمامك ذلك الرجل، وصوِّر لنفسك تلك الحياة، ثم تصوَّر مبلغ الأثر الذي يتركه حادثان جاءا متعاقبين، في يوم واحد: أوَّلهما إعلان موجَّه إلى المسيو «أدريان سكست» بالحضور إلى مكتب المسيو «فاليت» قاضي التحقيق، لسؤاله عن الوقائع التي تدعو الضرورة لسماع ما يعلم عنها، أمّا الثاني فبطاقة تحمل اسم «مدام جرسلو»، تطلب فيها أن يتفضَّل فيأذن لها بمقابلته حوالي الساعة الرابعة من ظهر الغد، «لتحدِّثه عن الجناية التي اتَّهم فيها، ظلماً، ابنَها السيِّئ الطالع».

ولقد عرفت أن الفيلسوف ما كان يقرأ الصحف أبداً. ولو فعل لرآها، طوال خمسة عشر يوماً، تفيض أنهارها تحدُّثاً بقصّة الشاب «جرسلو» التي طغت عليها مآسي الحياة، فتعثَّرت بها ذيول النسيان.

وإذا أعوزَتْه معلومات الصحف، فقد عَزَّ عليه أن يفهم مرمى دعوى الحضور أمام قاضي التحقيق، وفحوى بطاقة الوالدة التي تلتمس مقابلته، إلّا أن العلاقة بين دعوة الحضور وكلمة الوالدة، جعلته يرجِّح الارتباط بين الواقعتين.

ثم استعرض الفيلسوف الماضي، فعرضت له ذكرى شاب اسمه «روبير جرسلو» عرفه خلال العام الماضي، في ظروف عاديّة، ولم يكن من شأن تلك الظروف أن تثير في نفسه فكرة قضيّة جنائية؛ لذا ذهب ضياعاً كلُّ ما قدَّر من فروض، فلبث يقلّب النظر في الدعوة تارة، وفي البطاقة تارة أخرى، وظلَّ صريع القلق المؤلم، والاضطراب الممضّ، شأن أولئك الذين ألفوا الحياة النظامية، فإذا نزلت بهم نازلة، أو أَلَمَّ بهم مُلِمّ، أو فوجئوا بحادث غير مألوف، تصدَّعت نفوسهم، وتخاذلت قواهم، وضاق أفق الحياة في عيونهم. ومن هو «روبير جرسلو»؟ إن المسيو «سكست» ليذكر، فيما يذكر، أنه قرأ ذلك الاسم، لأوَّل مَرّة، منذ عامين، في ذيل بطاقة مصحوبة بنسخة خطّيّة، عنوانها «بحث في الشخصية المزدوجة»، يتوسَّل صاحبها إلى الكاتب العظيم أن يلقي نظرة على باكورة تفكيره، وأضاف المؤلِّف إلى توقيعه: طالب فلسفة في مدرسة «كليرمون فيراند».

وكانت النسخة الخطّيّة تتضمَّن ستّين صفحة، تنمّ عن الذكاء المبكِّر النافذ إلى صميم الحقائق، فوق إلمامها التامّ بأحدث النظريّات العصرية في علم النفس، وتكشُّفها عن قدرة التحليل؛ ما اضطرَّ مسيو «سكست» إلى الردّ عليها بخطاب مسهب مستفيض، فجاءته كلمة الشكر معلنةً أن ذلك الشابّ سوف يقدم إلى باريس لتأدية الامتحان الشفوي في مدرسة «النورمال»، وبذلك يتاح له شرف المثول بين يدي الأستاذ.

وما لبث يوماً حتى رأى شابّاً في العشرين من عمره، له عينان سوداوان، يشعّ منهما نور الذكاء، فيفيض على وجه شاحب؛ تلك الصورة هي التي ارتسمت في ذهن الفيلسوف.

على أنه لم ينسَ الحديث الذي جرى بينه وبين «روبير جرسلو»، فما راعه منه إلّا وفرة اطِّلاعه، وقوّة تدليله المنطقي. ولقد ملأ سمع الفيلسوف قوله: «كلّا، يا سيِّدي، أنت لا تعلم منزلتك في نفوسنا، ولا الشعور الذي يتملَّكنا حين نستوعب مؤلَّفاتك. وبما أنك أنت الذي تتقبَّل الحقيقة كاملةً، فخليق بنا، نحن- الشباب- أن نؤمن بآرائك. أرأيت إلى حديثك عن «الحبّ» في كتابك «نظريّة العواطف»، كيف أصبح قِبلة تفكيرنا، وأمسى كعبة آمالنا، وبات كتاب الفرض الذي نقدِّسه إلى أقصى ما يكون التقديس؟.

إنهم في المدرسة ليحولون بيننا وبين هذا الكتاب، لكني أحرص عليه حرصي على قنية ثمينة. ولقد جاءني نفر من إخواني، حين غادروا المدرسة، لينقلوا فصوله..».

وإذا كان كلّ مؤلِّف يخفي في أعماق نفسه شيئاً من الكبرياء (ومهما يكن من إخلاص المسيو «سكست»)، فليس من شكّ في أن تقديس طائفة من الطلبة لآرائه العلمية، ذلك التقديس الذي عَبَّرَ عنه واحد منهم أصدق تعبير، قد داعب كبرياء الفيلسوف.

والتمس «روبير جرسلو» شرف الزيارة مرّةً أخرى، وإذا كان قد أعلمه بإخفاقه في امتحان مدرسة «النورمال»، فإنه صارحه بما اعتزم من مشروعات. وسأله المسيو «سكست»، على غير مألوف عادته، عن حياته الخاصّة، فعلم منه أنه ابن مهندس، مات ولم يخلِّف ثروة. فكفلته أمُّه،

وقامت على تربيته، ببذل كثير من التضحيات. وقد قال روبير لأستاذه: «لن أرضى، بعد اليوم، أن أكون كلّاً على والدتي، فلقد صحَّ عزمي على نيل «اجازة التعليم» هذا العام، فإذا ظفرت بها التمست منصباً لتدريس الفلسفة في إحدى الجامعات، وسأُعنى بوضع كتاب عن ازدواج الشخصية، قد أطلعتك على جانب منه». ولشَدّ ما أبرقت أسارير الشابّ حين أخذ يرسم برنامج حياته المقبلة!

ولقد جاءت هاتان الزيارتان في شهر أغسطس، من عام 1885م. فلمّا أقبل شهر فبراير من عام 1887م، كان المسيو «سكست» قد تلقّى خمسة، أو ستة خطابات، من تلميذه الشابّ، أخبره في واحد منها أنه التحق بوظيفة مدرِّس في أسرة من أسر النبلاء، انتجعت إلى جبال «أوفرني» لقضاء فصل الصيف، على ضفاف بحيرة «ايدات»؛ أروع البحيرات جميعاً، وأبدعها.

وعلى الرغم من انشغال المسيو «سكست» بإصلاح مقال لـ«المجلّة الفلسفية»، جَدَّ في البحث عن الرسائل التي وردت من ذلك الشاب، وأرجع البصر فيها كَرَّتين، فما وجد في ثناياها إلّا تأمُّلات عقلية، وبضعة أسئلة عن الكتب الجديرة بالمطالعة. فما عساها أن تكون العلاقة بين هذا، وبين القضيّة الجنائية التي تتحدَّث عنها تلك الوالدة؟

وما من شكّ في أن ذلك الفتى كان قد استرعى نظر الفيلسوف، وآية ذلك أن اللغز الكامن في ثنايا الدعوة الموجَّهة إليه للحضور إلى قصر العدالة، والسرّ المنطوي تحت كلمة الأمّ التي باتت فريسة لليأس، قد أسلماه للاضطراب، فتجافى جنبه عن المضجع، وقضى شطراً من ليلته يَقِظاً، يقلِّب وجوه الرأي.

وللمرّة الأولى، ثار الفيلسوف في وجه خادمته الآنسة «ترابينارد»، من أجل

إهمال بسيط. فلمّا أقبلت الساعة الواحدة بعد الظهر، مَرّ بحارس البيت «الأب كاربونيه»، ودلائل القلق بادية على وجهه، وهو الهادئ الساكن، فاسترعى ذلك نظر الحارس، كما استرعته ورقة الدعوة إلى الحضور، فتحدَّث إلى زوجته، وأفضى بالأمر إلى أهل الحَيّ جميعاً.

قال الأب «كاربونيه» لزوجته- وهو يحاروها- : «إن الفضول لا يدفعني إلى تلمُّس الوقوف على شؤون الغير، لكني أودّ، بجدع الأنف، أن أعلم ماذا تريد العدالة من المسكين مسيو «سكست» الذي يهبط في تلك الساعة، فيضرب في الأرض على غير هدى، ويهيم على وجهه في الطرقات..».

وقالت فتاة لأمِّها- وهي جالسة إلى صندوق الحساب، في حانوت بائع الخبز- : «يا عجباً لمسيو «سكست»؛ كيف غَيَّر موعد رياضته! أكبر الظنّ أنه ذاهب للحضور في قضيّة ميراث».

وقال طالب لصاحبه- وهو يحاوره-: «ما أرى العدالة إلّا مرهقةً مسيو «سكست» من أمره عسراً؛ تراه فتحسبه عفّاً، لايتعلّق بذيله غبار، فإذا به غارق في الدنَس إلى أذنيه. وكلُّهم من هذا الطراز البغيض».

وقالت زوجة أستاذ في «كوليج دي فرانس» لزوجها: «حقّاً، لقد تضاعف جفاء خلقه؛ فهولا فلا يقرئنا السلام، ولقد ترامى إليَّ أنهم سيقدِّمونه للمحاكمة من أجل كتبه. وإنهم لفاعلون خيراً».

وكذلك، استرعى مسيو «سكست» أنظار أهل الحَيّ جميعاً. ولو قُدِّر له أن يدرك ذاك الفضول لعُنِيَ به كما يُعنى بمجلَّد يضمّ بين دفَّتيه خلاصة الفلسفة الجامعية، لكنه جهله، فمضى في طريقه لا يلوي على شيء.

قضيّة جرسلو

كان الفيلسوف الشهير المثل الأعلى للدقّة في كلّ شيء؛ لذلك قَدِم إلى دار العدالة قبل الموعد المضروب في ورقة الدعوة إلى الحضور بخمس دقائق، ولبث نصف ساعة يترقَّب قبل أن يدعوه قاضي التحقيق لسماع أقواله. ولم يكن في دار المحكمة غير خمسة أشخاص أو ستّة. وآثر الحكيم أن يجلس إلى جانب تاجر وامرأته، جيء بهما للتحقيق في حادث آخر، فما استطاعا أن يكتما اضطراربهما من جرّاء الاصطدام بالعدالة، لأوَّل مرّة. على أن مظهره، بوجهه الأجرد، وعينيه المحتجبتين خلف النظّارة السوداء، ورِدائه الرسمي، كلّ أولئك قذف الروع في قلبيهما، فانتبذا مكاناً قصيّاً، وأخذا يتهامسان.

قال الرجل لامرأته: «أكبر الظنّ أنه من رجال الخفية»، وقالت المرأة- وهي تلقي نظراتها على تلك الشخصية المحجَّبة بشتّى الأستار، وذاك الوجه الجامد، وقد مُلِئت منه رعباً-: «لله، كم له من مظهر كاذب! وكم هو مخوف مرهوب!».

وبينما كان ذلك المنظر الذي يثير الضحك يمرّ، دون أن يحسّه ذاك الذي اتَّخذ دراسة القلب الإنساني صناعة له، لا يني عن التغلغل في صميمه، ولا يفتر عن تعرُّف ميوله ونزعاته، بل دون أن يشعر بمن إلى جانبه، كان قاضي التحقيق يتحدَّث إلى صاحب له في غرفة مجاورة، عُلِّقت على جدرانها صور نفر من كبار المجرمين، قد اتَّخذها مسيو «فاليت» غرفة للتجمُّل والزينة، وحجرة للتدخين، ومكاناً يفرِّج عن صدره بالثرثرة البريئة، بمنجاة من سمع كاتب التحقيق، وبصره.

ولم يكن ذاك القاضي قد ناهز الأربعين، وهو وضيء المَحَيّا، متأنِّق في ملبسه، يتجمَّل بالخواتم في أصابعه، و- باختصار- كان من رجال المدرسة الحديثة. تناول الورقة التي خطَّ عليها الحكيم اسمه في صورة واضحة جميلة، ثم أَطْلَع صديقه عليها- وكان رجلاً لا يُعنى، في حياته، إلّا بلذاذات الحياة- طالباً إليه أن يمعن النظر فيها، ثم ينبئه عن شخصية صاحبها، ولم يكد يتأمَّلها حتى صاح قائلاً: «أقدِّم إليك تهانيَّ الحارّة. فالحقّ أنها لَفرصة ذهبية أن يتحدَّث المرء إلى ذلك الرجل. أرأيت إلى الفصل الذي عقده عن الحبّ؟ في أيّ كتاب.. لا أدري! ما أراه إلّا رجلاً عليماً بأهواء النساء. لكن، عَمّ تسأله؟».

فقال القاضي: «سأطلب إليه أن يدلي بمعلوماته عن جناية «جرسلو»، فلقد استقبل الشابّ غير مرّة، وقد طلبه الدفاع، ليكون شاهد نفي في الدعوى، وانتُدِبتُ أنا لسؤاله»، فقال له صاحبه: «ما أشدّ شوقي إلى رؤيته!»، فأجاب القاضي: «إن كان هذا يسرّك فما أيسره لك! سأدعوه للدخول و- حينئذ- يتاح لك أن تراه.. وعلى أيّة حال، اتَّفقنا أن نلتقي هذا المساء، في الساعة الثامنة، عند «فيجون»، وأكبر الظنّ أن «كلاديس» ستكون هناك،

فقال له صاحبه: «اتَّفقنا.. أَوَ تعلم كلمتها الأخيرة إلى «كلاديس»؟

لقد كنّا نلوم أمامها «برسي»، لأنها تخدع «جوستاف»، فقالت: «لا مندوحة لها عن اتِّخاذ عاشقين، فإنها تنفق، كلّ عام، ضعف ما يبذله عاشق واحد..».

فقال القاضي: «إني اعتقد أن تلك المرأة كفيلة بتلقين فلسفة الحبّ إلى «سكست»، ومَنْ لَفَّ لفّه، في العالم بأسره.

وأرسل الصديقان الضحكات عاليةً، ثم أمر القاضي باستدعاء الفيلسوف، فصافح الصديق القاضي قائلاً له: «إلى اللقاء هذا المساء، عند الساعة الثامنة مساءً». ولكي يُشبع فضوله نظر إلى وجه الكاتب الجليل، وقد سبقت له به معرفة؛ إذ كان قد قرأ بعض مقتطفات من كتابه «نظريّة العواطف»، في مقالات الصحف، فما راعهما منه إلّا أن شهدا فيه الرجل الصحّي الخجول، وهما اللذان طالما أبرزه لهما خيالهما في صورة رجل صلب العواطف، متحجِّر القلب، لا ينفذ إليه شعاع رحمة، فتبادلا نظرة الدهش والذهول، وانطبعت على شفتيهما الابتسامة.

وما لبث أن خرج الصديق.. وأشار القاضي إلى الفيلسوف بالجلوس، ثم بدت على وجه قاضي التحقيق أمارات الجدّ والخطورة، وحاول جهده أن ينساب في ضمير مَنْ يمثُل أمامه. وأيقن الفيلسوف أن تطيُّره قد صَدَقه، إذ لمح الملفّ الضخم الذي تناوله مسيو «فاليت»، مكتوباً عليه، بالخطّ العريض، «قضيّة جرسلو».

وساد السكون جوّ الغرفة، حتى لا يُسمَع إلّا حفيف الأوراق، وما لقلم

كاتب التحقيق من صرير، وتأهَّب الكاتب لتدوين المحضر، في غير مبالاة، شأن هؤلاء الكتّاب الذين ألفو أن يكونوا آلات صمّاء حيال تسجيل أروع المآسي المطروحة أمام محاكم الجنايات؛ لا تمتاز لديهم قضيّة من قضيّة، أو جناية من أخرى، كما لا يمتاز، لدى اللّاحد، ميِّت من ميِّت، أو لدى خادم المستشفى، مريض من مريض.

وقال القاضي: «سأوفِّر عليك- يا سيّدي- الأسئلة المألوفة.. فمن الأسماء ما لا ينبغي جهلها، ومن الرجال من لا يليق تجاهلهم..»، فلم يَحْنِ الفيلسوف رأسه ردّاً على هذه التحيّة، فقال القاضي في سره: «ليس ذلك مألوفاً في التقاليد الاجتماعية، ولا سائغاً في الأوضاع الأدبيّة، فأغلب ظنّي أن الرجل من جماعة الأدباء الذين يرون حقّاً عليهم أن يغمرونا باحتقارهم»، ثم جهر قائلاً: «والآن، أبلغ الواقعة المبرِّرة للدعوة، التي رأيت لزاماً عليَّ أن أوجِّهها إليك.. أنت تعلم الجناية التي اتُّهِم بها الشاب «روبير جرسلو».

فاعتدل الفيلسوف في جلسته، بعد أن كان قد أخذ الأهبة للإصغاء لأقوال القاضي، واتَّكأ بذراعه على الكرسي، وأسند ذقنه إلى يده، ووضع سبّابته على خده، شأنه حين يخلو إلى نفسه، فيغرق في طوفان التفكير، ثم قاطع القاضي قائلاً: «عفواً يا سيِّدي، فليس لديَّ معلومات عنها إطلاقاً».

فأجاب القاضي: «لقد ذكرت كافّة الصحف وقائع تلك الجريمة بدقّة، لم نعهدها في طائفة سادتنا الصحافيين». ثم جاش بنفسه: «إنه يتحصَّن بالرياء، ليتقن تمثيل دوره، فياللحماقة!».

فقال الفيسلوف: «معذرةً يا سيّدي، فإني لا أقرأ صحيفة ما»

فتنفَّس القاضي الصعداء، وهو في موقف مزيج من التهكُّم والذهول، وقال في لهجة تشفٍّ عن الحنق: «حسن يا سيّدي، سألخِّص لك الاتِّهام في بضع كلمات، وأنا شديد الأسف على أنك غير واقف على مجريات حادث يمسّ مساساً خطيراً مسؤوليَّتك الأدبيّة، إن لم ينل مسؤوليَّتك القانونية..» وهنا، لم يسع الفيلسوف إلّا أن هزّ رأسه إيذاناً بالقلق الذي ساوره، والاضطراب الذي ملك عليه مشاعره، فتهلَّل وجه القاضي، وقال: «إنك تعلم- على أيّ حال، يا سيدي- من هو «روبير جرسلو»، وما هو المركز الذي كان يشغله لدى «الماركيز جوسات راندون»، فإن لديَّ في ملفّ الدعوى، صوراً لخطابات عدّة بعثتَ بها إليه في قصر جوسات، وهي ناطقة بأنك كنت القائد العقلي، والزعيم الروحي، للمتَّهم»، فحرَّك الفيلسوف رأسه كَرّةً أخرى. «وإني أسائلك أن تتفضّل فتكاشفني عمّا إذا كان ذلك الشابّ قد خاطبك بشأن حياة تلك الأسرة، وفي أيّ أسلوب.. ولعلّي لا أحيطك علماً بأمر أنت تجهله، إذا ما قلت لك إنها كانت تتألَّف من أب، وأمّ، وابن يعمل ضابطاً في الجيش، في الفرقة التي تعسكر، الآن، في ثكنات لونيفيل، وابن ثانٍ كان تلميذاً لـ«جرسلو»، وفتاة عمرها تسعة عشر ربيعاً، اسمها الآنسة «شارلوت».

وكانت تلك الفتاة خطيبة للبارون «دي بلان»، وهو ضابط بالفرقة نفسها مع أخيها. وكان لابدّ من إرجاء الزواج بضعة أشهر، لأسباب عائلية لا علاقة لها بالدعوى، على الإطلاق. وأخيراً، حُدِّد له، نهائياً، اليوم الخامس عشر من شهر ديسمبر الماضي. ففي صباح يوم من الأسبوع السابق لقدوم خطيبها مع الكونت «أندريه»، شقيق الآنسة «شارلوت»، دخلت عليها خادمتها في الساعة المعتادة، فألفتها، فوق مضجعها، جثّة هامدة..».

وتوقَّف القاضي، ولبث يتصفَّح ملفّ التحقيق، وهو يرنو بعينيه إلى الشاهد، فيبصر الذهول وقد ارتسم على وجهه، بصورة لا تدع مجالاً للشكّ في إخلاصه، فاسترعى ذلك دهشة القاضي، وقال في نفسه: «إن الرجل لا يعلم من الأمر شيئاً، فياله من أمر مدهش عجيب!». وظلَّ يتصفَّح وجه ذلك الرجل الشهير، بينما يقلِّب صحائف الدعوى غير مبالٍ. على أنه كانت تعوزه بعض البيانات عن تلك الشخصية، ليحيط بها خبراً، فقد كان صاحبها، في ميدان الأفكار، قويّاً، لا يبارى، وفي عالم الآراء قادراً لا يجارى، وفي دنيا النظريّات المجرَّدة، عالماً لا يُشقّ له غبار، ولا يصطلى له بنار، فإذا جاء إلى ميدان الوقائع ألفيته الغرّ الساذج، والحييّ الخجول، لا بل الرجل الذي يصبح ضحكة الضاحكين، ويمسي سخرية الساخرين.

ومضى القاضي في تلخيصه، ونفسيّة فيلسوفنا، لديه، من الطلاسم والمعميات، وعقليّته من الأحاجي والألغاز، فقال: «وعلى الرغم من أن الطبيب الذي استُدعِيَ على عجل، لم يكن إلّا طبيباً متواضعاً من أطبّاء الريف، فإنه لم يتردَّد لحظة واحدة في الجهر بأن مظهر الجثّة صريح في الدلالة على أن الموت غير طبيعي. فقد كان الوجه أغبر، والأسنان مصطكّة، والعينان بارزتين، والجسم متقوِّساً، تقوُّساً وَصَل بين الرأس والقدمين، و- باختصار- كانت الدلائل كلّها ناطقة بأن سبب الموت هو التسمُّم بالستكرنين. وقد وُجدت زجاجة موضوعة على المائدة، بها بقايا جرعة دواء، كان لابدّ للآنسة «شارلوت» من تناولها غداة يوم موتها، في المساء، أو في أثناء الليل، على مألوف عادتها، لتدفع عنها الأرق، فقد مضى عليها حوالي عام وهي تعاني آلام مرض عصبيّ. وما لبث الطبيب أن حَلَّل القطرات التي في الزجاجة، فوجد بها آثار «الجوز المقئ». ولا

إخالك إلّا عالماً بأن ذلك هو الشكل الذي يأخذه ذلك السمّ الناقع القتّال، في الطبّ الحديث. وقد عثر البستاني على زجاجة صغيرة، ليست عليها كتابة، فيها بضع قطرات من سائل لونه أسود، ملقاة تحت نوافذ الغرفة، وقد أُلقِيت الزجاجة عمداً لتتحطَّم، ولكنها صادفت أرضاً رخوة، فظلَّت سليمة، وتبيَّن أن القطرات التي فيها هي بقايا «الجوز المقئ»؛ فلم يبق أثر للشكّ في أن الآنسة «شارلوت» ماتت مسمومة.

وجاء التشريح يؤيِّد الدعوى. وهنا، كان التساؤل: هل نحن حيال واقعة انتحار، أم حادث قتل؟، وكيف السبيل إلى فكرة الانتحار، وبواعثه منعدمة؟ وفي الحقّ، ما الذي كان يبعث شابّة على أن تقتل نفسها، وقد أوشكت أن تُزَفّ إلى رجل رائع، ارتضته زوجاً لها؟ ذلك فرض لا يقبله العقل، فينبغي- إذاً- استبعاده من دائرة الفروض. وكيف تجهز على نفسها دون أن تخطّ كلمة إيضاح تلقي شيئاً من الضوء على هذه المأساة، ومن غير أن تترك كتاباً يحمل عبارات الوداع إلى أهلها؟! ومن ناحية أخرى، كيف حصلت على السمّ؟ ولا جدال في أن هذا البحث قد أفضى بالعدالة إلى الاتِّهام الذي يشغلنا اليوم، فلمّا سئل صيدليّ القرية، قرَّر أن مدرِّس القصر ابتاع منه «الجوز المقئ» لستّة أسابيع خَلَت، تحت ستار الدعوى بأنه في حاجة إليه لعلاج مرض في المعدة. وكان هذا المدرِّس قد سافر إلى «كلير مونت»، بدعوى أنه ذاهب ليرى أمّه المريضة، في اليوم ذاته الذي اكتُشِفت فيه الجثّة، زاعماً أنه استُدعِي ببرقية. ولقد تضافرت الأدلّة على أن البرقية لا وجود لها إلّا في خياله، وأن خادماً رآه، في ليلة ارتكاب الجريمة، خارجاً من حجرة الآنسة «شارلوت». وأخيراً، نهض الدليل على أن زجاجة السمّ التي اشتُرِيت من الصيدليّ، ووُجِدت لدى الشاب، قد

أُفرِغ نصفها، ثم مُلِئت ماءً ليُتِمّ نقصها، درءاً للشبهات. وشَهِد الشهود بأن «روبير جرسلو» كان دائم الاتِّصال بالفتاة رغم إرادة أهلها، بل لقد اكتُشِف كتاب، بعث به إليها منذ أحد عشر شهراً، وجاء الكتاب مثبتاً أوَّل خطاه في سبيل مطارحتها الهوى. وقرَّر الخدم، وعُزِّزت شهادتهم بأقوال تلميذ المدرِّس نفسه، أن العلاقات، بين الآنسة «شارلوت» وبين الفتى، كانت متراخية، في الأيام الثمانية الأخيرة، إلى أقصى حدود التراخي، بعد أن كانت ودّيّة إلى أبعد غايات المودّة، وبلغ من إعراضها عنه أن أمسكت عن ردّ التحيّة. وقد استنتجوا من تلك الدلائل، مجتمعةً الافتراض الآتي: إن الفتاة قد شغفت بـ«روبير جرسلو» حبّاً، فلمّا هام بحبِّها، وعَزَّ عليه طلابها، تهدَّمت قصور آماله، فاخترمت في رأسه جريمة الإجهاز عليها، فقتلها بالسمّ، ليحول دون زواجها بآخر، وأيَّد هذا الافتراض أكاذيب الفتى حين سؤاله، فقد أنكر، بتاتاً، أنه كتب إلى الآنسة «شارلوت»، فقذفوا في وجهه بكتابه إليها، ووجدوا في الموقد الذي في غرفة المجنيّ عليها بقايا أوراق محترقة، أُضرِمت النيران فيها ليلة الوفاة، ومن بينها نصف غلاف خطاب بخطّ المتَّهم، وأنكر أنه توجَّه، في تلك الليلة، إلى غرفة الآنسة «شارلوت»، فواجهوه بالخادم الذي رآه خارجاً منها، فشهد الخادم برؤيته، وعَزَّز شهادته بالاعتراف بأنه هو- أيضاً- كان يغشى غرفة خادمة، تعلَّقَ فؤاده بحبِّها. بالإضافة إلى هذا كلّه أن «جرسلو» لم يستطع أن يبرر ابتياعه «الجوز المقيء» عابثاً بما للصيدلي به من ثقة، ولقد قام الدليل على أنه لم يشْكُ من قبل ألماً بالمعدة. ثم أنه لم يعلِّل تلك البرقية الزائفة، التي انتحل وصولها إليه بعلّة مقبولة، ولم يوضِّح بواعث رحيله على جناح السرعة، وتُوِّجَت هذه الأدلّة بدليل آخر، لا ترقى الشكوك إليه، وهو اضطرابه وتخاذله لدى اكتشاف مادّة السمّ. وفوق ذلك كلّه فليس هناك باعث على

ارتكاب الجريمة غير اضطرام جذوة الانتقام في صدر عاشق خابت آماله، فقد وجدت حليّ المجنيّ عليها تامّة، ونقودها كاملة، ولم توجد في الجثة آثار مقاوَمة، إطلاقاً؛ فارتسمت للجناية الصورة التالية: دخل جرسلو غرفة الآنسة «شارلوت»، علماً منه بأنها تنام- عادةً- حتى الساعة الثانية، ثم تستيقظ لتتناول جرعة الدواء، فمزج هذه الجرعة بكمّيّة من «الجوز المقيء» تكفي للقضاء عليها في لحظة، فما إن قرَّت بجوفها، حتى قضت نحبها، دون أن تقوى على استدعاء أحد لإسعافها، ثم لاذ بالفرار قبل اكتشاف الجثّة، خشيةَ افتضاح أمره. والزجاجة التي وُجِدت في الحديقة فارغة، فلابدّ أن يكون ألقى بها من نافذة غرفته المشرفة على غرفة الآنسة «شارلوت». أما الزجاجة الأخرى، فقد ملأها ماءً، تضليلاً للمحقِّقين وتغريراً بهم، كما يفعل الناشئون في الإجرام. وعلى الجملة، فإن جرسلو معتقَل، اليوم، في سجن «ريوم»، وسيقَدَّم إلى محكمة الجنايات في دور شهر فبراير، أو في أوائل شهر مارس، لاتِّهامه بأنه قتل الآنسة «شارلوت» بالسمّ.

وضاعف مسلَكَه، منذ اعتقاله، الأدلّة الساحقة القائمة عليه؛ فلقد تحصّن بالصمت المطلق، رغم افتضاح أكاذيبه، وأبى أن يجيب على ما وُجِّه إليه من أسئلة، زعماً منه أنه بريء، وليس عليه أن يدافع عن نفسه، ورفض رفضاً باتّاً إنابة محامٍ يذود عنه، واستسلم للحزن العميق استسلاماً لا يدع مجالاً للشكّ في أنه أصبح صريع وخزات الضمير، وأقبل على المطالعة، والكتابة في مسائل فلسفية بحتة؛ لعلّه يمحو الأثر السيء الذي تركه حزنه في النفوس، وليدلّل على أنه حرّ العقل، طليق الفكر، لم تلوِّث يده بجريمة، ولم يقدم على إزهاق روح بريئة، وتلك قدرة مسرحية غريبة من شابّ في

مستهلّ العقد الثالث من حياته.

وإن طبيعة ما يشغل ذهن المتهم، بعد هذا الشرح الوافي، تفضي بي، يا سيِّدي، إلى ذكر الباعث على تمسُّك والدة ذاك الشاب بسماع شهادتك في قضيّته. وإذا كان من الطبيعي أن تثور تلك الأمّ ضدّ البديهيات، وإذا كان الحزن يكاد يجهز عليها، فإنها لم تستطع أن تغالب إصرار ولدها على التزام الصمت. ولقد كانت مؤلَّفاتك ومؤلَّفات بعض علماء النفس الإنجليز هي كلّ ما طلب، وكان لمؤلَّفاتك في مكتبته الحظَّ الأكبر من العناية بها، والانهماك في مطالعتها، وقتلها بحثاً وتمحيصاً، وليس أدلّ على ذلك ممّا خَطَّه فيها من الشروح والتعليقات التي كانت تربو، في بعض الأحيان، على الأصول والمتون... ومن ذلك، تستطيع أن تحكم...».

وبينما كان المسيو «فاليت» يتحدَّث، قَدَّم إلى الفيلسوف نسخة من كتاب «روح الله»، ففتحه اعتباطاً، فراعه أن رأى، قبالة كلّ صحيفة مطبوعة، صحيفة مكتوبة بخطّ المتَّهم، تفيض شرحاً وتعليقاً، وهاله أن حظ التشابه التامّ بين خطِّه وخطّ المتَّهم، وإن بدا الأخير أكثر اضطراباً، فأثار هذا التشابه دهشة الفيلسوف، وبعث في نفسه شعور الألم، فطوى الكتاب، ورَده إلى القاضي قائلاً: لا أكتمك- يا سيِّدي- أني مذهول ممّا أفضيتَ به إليّ، ولا أخفي عنك أني لا أستطيع إدراك العلاقة بين هذه الجناية وبين كتبي أو شخصي، كما لا أستطيع فهم طبيعة الشهادة التي يمكن أن يُطلَب مني أداؤها».

فقال القاضي: «ذلك أمر هَيِّن. فمهما تكن الأدلة القائمة على اتِّهام «روبير جرسلو»، فإنها لا تقوم إلّا على فروض، وإن القرائن على ارتكابه الجريمة

قويّة، لكن ليس هناك يقين ثابت. من ذلك ترى، يا سيدي- إذا شئت أن استخدم لغة العلم الذي تبرز فيه- أن المسألة النفسية هي التي ستسود القضيّة بأسرها. نعم، سيكون محلَّ التساؤل: ما هي الأفكار التي كانت تتسلَّط على ذهن ذلك الشابّ، وتستولي على مشاعره؟ وماذا كان خلقه؟ فلو كان معنيّاً بدراسة المسائل المجرَّدة، فإن شبهات اتِّهامه تتضاءل وتنكمش...». وهنا، بدت على القاضي دلائل عدم المبالاة، فلم يفطن الفيلسوف إلى الحبالة التي نُصِبت له، ولم يذكر مسيو «فاليت» أن إحدى الحجج التي يستند إليها الاتِّهام تتلخَّص في أن «روبير جرسلو» قد أفسدته مطالعاته، وكانت الجهود منصبّة على حمل مسيو «سكست» على تحديد ماهيّة المبادئ التي كان الشاب متشبِّعاً بها.

فأجاب الحكيم: «سَلْ، يا سيدي»، فقال القاضي: «أتريد أن نبدأ من البداية؟

- في أيّة ظروف، وفي أيّ تاريخ تعرَّفت بـ«روبير جرسلو؟»

قال الفيلسوف: «كان ذلك منذ عامين، ولمناسبة بحث مجرَّد، عن الشخصية الإنسانية، جاء ليقدِّمه بنفسه إليّ»

- «وهل رأيته مراراً؟»

- رأيته مرتين لا غير»

- وما الأثر الذي تركه في نفسك؟»

- «الأثر هو أنه شابّ لديه استعداد مذهل للمباحث الفلسفية...». كذلك

أجاب الفيلسوف، وهو يزن كلّ كلمة من كلماته. فاستشفَّ القاضي، من ثنايا هذه اللهجة البريئة المخلصة، ضمير رجل يودّ أن يواجه الحقيقة، ويفضي بها كاملة، ثم أتبع ذلك بقوله: «نعم، لقد كان استعداد الفتى للفلسفة مذهلاً إلى حَدّ أني جزعت لهذا النضوج المبكِّر»

– ألم يحدِّثك عن حياته الخاصّة؟»

– «حدثني عنها قليلاً جدّاً. وجملة ما أفضى به إليّ هو أنه كان يعيش مع والدته، وأنه أزمع أن يكون أستاذاً، في الوقت الذي يتوفَّر فيه على وضع بعض المؤلَّفات».

فقال القاضي: «حقّاً، لقد كان ذلك بعض برنامج حياة المتَّهم، وجده المحقِّقون بين بقايا أوراقه التي عمد إلى إتلافها، فيما بين سؤاله الأوَّل والقبض عليه، فجاء عمله دليلاً على اتِّهامه. فهل لك أن تلقي شيئاً من الضوء، على عبارة وردت في ذلك البرنامج، تُعَدّ غامضة في نظر أولئك الذين لا يؤمنون بالفلسفة الحديثة، فلم يدركوا كنهها، ولم يقفوا على حقيقة مراميها؟ وتلك هي...»، ثم يتناول ورقة من بين الأوراق، ويتلوها: «مضاعفة التجارب النفسية قدر المستطاع...»، فماذا تظنّ قصد «روبير جرسلو» بتلك العبارة؟».

فقال مسيو «سكست»، بعد صمت: «إني لفي أشدّ الحيرة ممّا أجيبك به يا سيّدي، فاقتنع القاضي بأن من العبث أن يمكر برجل ساذج كهذا، وما حبسه عن المبادرة بالجواب إلّا رغبته في التنقيب عن عبارة، يجلو بها فكرته، ثم قال الفيلسوف: «إني أعلم المعنى الذي ينطوي تحت تلك العبارة، وأكبر ظنّي أن هذا الشابّ يذهب مذهبي في التفكير، لأنه

كان على إلمام تامّ بالمباحث النفسية. فمن الواضح، أن البرهان العكسي لقانون من قوانين العلوم القائمة على التجربة، المؤسَّسة على المشاهدة، كالكيمياء والطبيعة، يتطلّب التطبيق العملي لذلك البرهان. فإذا كان من الممكن تحليل الماء إلى عنصرَيْه، فمن الواجب تكوُّن الماء لدى وجود هذين العنصرين؛ وتلك هي الطريقة التجريبية في العلوم الحديثة، إذ يتاح إيجاد ظاهرة من الظواهر عند توافر شروطها... فهل يمكن تطبيق هذه الطريقة على الظواهر الخلقية؟ أمّا من جهتي، فأنا أعتقد أن ذلك يمكن، وأن ما يسمّونه التربية ليس إلّا تجربة نفسية منظَّمة إلى حَدٍّ ما، إذ هي تتلخَّص فيما يأتي: إذا أعطيت ظاهرة تُدعى تارةً، الفضيلة، وتُدعى، تارةً الصبر، ومرّةً التبصُّر، وأخرى الإخلاص، أو كفاية عقلية، أو لغة ميّتة أو حَيّة، أو الخطّ، أو الحساب- فيتعيَّن عليك إيجاد الشروط التي تنتج فيها تلك الظاهرة بسهولة.. على أن هذا الميدان محدود، لأني مع افتراض أن الشروط الواجب توافرها لتوليد عاطفة، ساعدتني وعرفت أن أجد تلك العاطفة في شخص بالذات، أصطدم بصعوبات، لا يمكن التغلُّب عليها بحال، سواء أكانت تلك الصعوبات مصدرها القانون، أم كان مبعثها الأخلاق. وقد يحين الوقت الذي تصبح فيه تلك التجارب ممكنة مستطاعة. والرأي عندي أن نقنع، الآن، نحن- جماعة علماء النفس- بالتجارب التي تجريها الطبيعة، أو التي تأتي بمحض الصدفة. فالمذكِّرات، والمباحث الأدبيّة، والفنّيّة، والإحصاءات، وملفّات القضايا الجنائية، وملاحظات الطبّ الشرعي، كلّها تمدُّنا بوقائع تتمّ، على ضوئها، بحوثنا النفسية. ولقد بحث معي «روبير جرسلو» عن تلك الضالّة التي ينشدها علم النفس. وإني لأذكر أنه كان يأسف لأن المحكوم عليهم بالإعدام لا يحاطون بشروط خاصّة، تسمح بإجراء تجارب نفسية عليهم.

على أن ذلك الرأي كان قائماً على الافتراض المحض، وصادراً عن عقل غضّ، لا يستطيع، بعد، أن يقدِّر أنه لابدّ من وقت طويل لإمكان دراسة حالة نفسية. وعندي أن الأطفال هم الذين يصلحون لإجراء التجارب. لكن، كيف السبيل إلى إفهام الناس أنه قد يكون من مصلحة العلم أن نغرس فيهم، بإطِّراد، بعض النقائص، أو نبثّ فيهم بعض الرذائل؟».

فصاح القاضي صيحة الدهش والذهول حين ملأ الفيلسوف فمه بتلك الكلمة الكبيرة، وألقاها بدم بارد، وضمير جامد: «بعض الرذائل؟».

فأجاب الفيلسوف، وقد ابتسم لدهشة القاضي: «إني أتكلَّم بوصفي عالماً من علماء النفس، وأرى أن هذا هو الباعث على وقوف علمنا، في تقدُّمه، عند حَدّ محدود. ولقد أعطاني عجبك برهاناً- إن صَحَّ- على أن الأمر بحاجة إلى برهان. فلا يستطيع المجتمع الإنساني أن يتجاوز نظرية الخير والشرّ، تلك النظرية التي لا تعدو أن تكون، في نظرنا، نحن- علماء النفس- طائفة من الاصطلاحات التي تواضع الناس عليها، فتارةً تكون صالحة، وأخرى تكون صبيانية».

فقال مسيو «فاليت»: «على أنك تسلِّم بأن هناك أفعالاً طيِّبة، وأخرى سيِّئة». ثم أراد القاضي أن ينتزع، من ذلك الجدل العامّ، دليلاً، يضيفه إلى محضر تحقيقه، فقال: «أنت تعتبر تسميم الآنسة «شارلوت» جريمة...».

فأجاب مسيو «سكست»: «لا ريب في ذلك، من وجهة النظر الاجتماعية. ولكن، بالنسبة إلى الفيلسوف، ليس هناك جريمة أو فضيلة، وما أعمالنا إلّا وقائع من نظام خاص، خاضعة لقوانين بعينها». وهنا، تجلّى كبرياء الفيلسوف، فقال: «على أنك يا سيِّدي تجد إيضاحاً (أجرؤ على الاعتقاد

بأنه وافٍ)، لتلك النظريات، في كتابي «تشريح الإرادة»».

فسأل القاضي: «هل خضت في تلك المسائل مع «روبير جرسلو»؟، وهل تعتقد أنه كان يشاطرك آراءك؟»

فأجاب الفيلسوف: «في الغالب».

فقال القاضي، وقد أزاح الستار عن أدوات هجومه: «أفلا تعلم- يا سيِّدي- أنك تبرِّر زعم المركيزي «دي جوسات» إن المذاهب المادّية الحديثة هي التي طاحت بالشعور الخلقي في نفس ذلك الشابّ، وجعلته خليقاً بارتكاب جريمة القتل؟».

فأجاب مسيو «سكست»: أنا لا أدري ما هي المادّة، ولهذا أنا لست مادّياً. فأمّا إلقاء التبعة على مذهب من المذاهب، لأن ذهناً غير متَّزن يفسِّره تفسيراً خاطئاً، فذلك كتحميل مكتشف مادّة الديناميت وزر الجرائم التي تُستَخدم في ارتكابها»

وسأل الفيلسوف القاضي: «أتعتقد إني سأضطرّ إلى الذهاب إلى «ريوم» لأداء الشهادة؟»

فقال القاضي: «لا أظنّ هذا يا سيِّدي، فقد أرى أن علاقاتك بالمتَّهم كانت سطحية أكثر ممّا اعتقدت أمّه، إن كان حقّاً أنها لم تزد على هاتين الزيارتين، بالإضافة إلى الرسائل الفلسفية البحتة التي تبادلتماها. على أني أعود فأسألك: أكاشَفَك بشيء عن حياته لدى أسرة «جوسات؟»

- «لم يكاشفني بشيء إطلاقاً، وفوق ذلك فقد كَفَّ عن مراسلتي منذ

التحاقه بتلك العائلة»

- «أَوَ لم تلحظ، في رسائله الأخيرة، بوادر طموح جديد، أو آثار قلق، أو مظاهر فضول، لا تدرَك ماهيَّته؟»، فأجاب الفيلسوف: «لم ألحظ شيئاً شبيهاً بذلك».

صمت القاضي برهة، ثم قال، وهو يمعن النظر إلى ذلك الشاهد الغريب: «لا أودّ أن أحتجزك أكثر ممّا احتجزتك، فوقتك ثمين، وأرجو أن تسمح لي بأن ألخِّص، لكاتب التحقيق، الأجوبة التي أدليتَ بها إليّ؛ إذ هو لم يألف التحقيقات الخاصّة بمثل تلك الآراء الدقيقة... ثم توقِّع أنت بإمضائك...».

وبينما كان القاضي يملي على كاتب التحقيق، من أقوال الشاهد، ما قد ينير السبيل أمام العدالة، كان ذلك الذي صعقته إماطة اللثام عن جريمة «روبير جرسلو»، وقد ضاعف من اضطرابه حديثه مع قاضي التحقيق، لا يبدي ملاحظة أو يثير اعتراضاً، بل ما كان يدرك شيئاً لأن الظروف المروِّعة التي أحاطت به قد قضت على ملَكة تفكيره، فوقَّع بإمضائه، دون أن ينظر، بعد أن تلا عليه مسيو «فاليت» شهادته. وقبل أن يبرح غرفة التحقيق، قال: «إذاً، يمكن أن أكون على يقين بأني لن أُكره على الذهاب إلى هناك؟»

فقال القاضي، وهو يشيِّعه إلى الباب: «أرجو ألّا تضطرّ للذهاب. وفي كلّ حال، لن يستغرق ذلك إلّا يوماً أو يومين». وما كاد مسيو «سكست» يغادر غرفة التحقيق حتى التفَتَ القاضي إلى الكاتب، فقال: «ذلك مجنون، أولى له أن يُعتَقَل في إحدى المصحّات العقلية؛ فبمثل تلك الآراء التي يفيض بها هذا الفوضوي العقلي، تضلّ عقول النشء.. ويا عجباً له، كيف يتبدّى في

مظاهر حسنّ النية! أو تدري أنه قد يطوِّح برأس تلميذه، بأفكاره الغريبة الشاذّة؟ وما عليه، بهذا، فكلّ ما يعنيه هو أن يعلم إن كان سيذهب إلى «ريوم» أم لا يذهب. يا له من مجنون!» ثم ضحك القاضي والكاتب، وقال الأوَّل في نفسه: «ما كنت أحسب «أدريان سكست»، الذي ملأ ذكره الأفواه والأسماع، على تلك الصورة».

بعض الألم

وما كاد مسيو «سكست» يغادر غرفة التحقيق حتى تبيَّن الوقت، ثم قال في نفسه: «لقد وافت الساعة الثانية والربع، ولن أبلغ البيت حتى تكون الثالثة، وستحضر مدام «جرسلو» في الرابعة، ولا سبيل إلى العمل. فما أشدّ من ذلك غضاضة على نفسي! وما أعظمه مضاضة لقلبي!»، فآثر اختيار تلك الساعة وقتاً لرياضته.

وظلّ، وهو يتريَّض، يناجي نفسه: «لعمري.. ماذا صنعت حتى يُقحَم اسمي في تلك الجناية، ويزجّ بي في مثارها؟ وما عسى أن تكون جدوى شهادتي في التحقيق؟ وما كان يداخل الرجلَ شكٌّ في أن نظريّاته عن الجريمة، وعن المسؤولية الجنائية، قد تصبح، بين يدي المحامي البارع، وفي فم المدافع المدره، سلاحاً ماضياً ضدّ «جرسلو»، ثم استرسل في تلك المناجاة: «أفمن أجل تلك الأسئلة الغثّة التافهة، التي أمطرني قاضي التحقيق بوابل منها، يزعجون خلوتي، ويقطعون عليَّ سبيل العمل؟! حقاً، إنهم لقوم لا يحيطون بشيء من حياة الرجل العامل. وكلّي رجاء ألّا

أُكره على الذهاب إلى «ريوم»، كي لا ينهال على رأسي سيل من تلك الأسئلة التي أراني قاضي التحقيق بعض ألوانها.

وتمثَّل لناظره شبح الرحيل إلى مدينة ريوم، والاختلاف إلى محكمة الجنايات، وشهود المحاكمة الجنائية، ففاضت نفسه بالألم؛ فقد عرفته رجلاً يسكن إلى الوحدة، يؤثرها على ضجيج العالم وعجيجه، ويلقي بنفسه في أحضان العزلة، فلا يقطع عليه سبيلَ التفكير صخبُ الحياة وجَلَبتها؛ فهو رجل فكر لا رجل عمل، لا يحبّ أن يزعج خلوته شيء في الوجود. لذلك هاله أن يتمثَّل حقيبته قد فتحت، فألقيت فيها ثيابه، وإلى جانبها الأوراق الضرورية لبحوثه، ثم ركوبه العربة، وبلوغه المحطّة المملوءة ضجّةً، وجيرانه الذين يضيِّقون أنفاسه طوال السفر، وطلوعه على بلد لم يَره من قبل، وإشرافه على وجوه لم يتصفَّحها، ولم يألفها، وتبرُّمه بحجرة المنزل وهي خلوٌ من عناية الآنسة «تربينار»، ورعايتها، تلك التي أصبح منها بمنزلة الوحيد من أمّه. فياعجباً لمفكِّر مستقلّ طليق، يستقبل الموت، غير وَجِل ولا هيّاب، في سبيل عقيدته التي يدين بها، كيف يرتاع ويفزع خشية الذهاب إلى «ريوم!»! وما راعه إلّا أن يتمثّل نفسه، في قاعة الجنايات، أمام رئيس ينهال عليه بالأسئلة، فيضطرّ للإجابة عليها، على مرأى ومسمع من النظّارة الذين أرهفوا للسمع آذانهم، وهو الحييّ الخجول! وما إن ثارت في نفسه تلك الخواطر حتى أهاب بنفسه: «لن أستقبل بعد اليوم شابّاً. أجل، سأوصد بأبي في وجوههم جميعاً.. لكن، عليَّ لا أستبق الحوادث، فلربَّما أعفوني من تلك السخرة، وكفوني شرّ ذاك العناء...».

ومضى الفيلسوف يناجي نفسه: «وكيف السبيل إلى الخلاص، وفي الأمر مساس بمؤلَّفاتي وآرائي؟ ما أعظم الحقد الذي تنطوي عليه صدور

الجهلاء لكافّة المناهج التي لا يستطيعون فهمها! حقّاً، إن الإنسان عدوّ طبيعي لكلّ ما جَهِل... هذا شابّ، تتأجّج نيران الغيرة في صدره، فيُجهز على الفتاة التي شغفته حبّاً، ليحول بينها وبين الزواج بآخر!.

وكان هذا الشابّ يراسل الفيلسوف، الذي توفَّر على دراسة كتبه. فالفيلسوف هو المجرم، وهو الذي يتحمَّل تبعة الجريمة. ومن عجبٍ أن أصبح مادّيّاً، وأنا الذي دلَّلت على عدم وجود المادّة!، ثم تراءت له صورة «مريوس ديمولان» الأستاذ الشابّ في «كوليج دي فرانس»، الذي يمقته أشدّ المقت، فوردت أمام خاطر الفيلسوف بعض العبارات المحبَّبة إلى قلب ذلك الأستاذ الملتهب حرارةً في الدفاع عن المذهب الروحي، المتأجِّج ناراً في الحملة على خصومه، كقوله: «المذاهب الضارّة... السمّ العقلي الزعاف الذي يقطر من أقلام، أكبر الظنّ أنها لا تعي أن العرض الشائن لعلم النفس عرض لايراد به إلّا الطنطنة والإعلان عن النفس، ولا يقصد منه إلّا الإفساد...». فقال «أدريان سكست»، بألم، وهو يناجي نفسه: «نعم، إذا لم يكشف «مريوس ديمولان» عن محض الصدفة التي جعلت من أحد تلاميذي قاتلاً، فإنه يكون قد تبدَّل خلقاً آخر.. إن علم النفس هو الذي يتحمَّل مسؤولية تلك الجناية..!». وغلت مراجل الغيظ في صدر الفيلسوف حين ذكر أن ذلك الأستاذ الشابّ قد أثار حملة شعواء على كتابه «تشريح الإرادة»، من أجل هفوة تُعَدّ من الهنات الهيِّنات، ولا تهدم، بحال، النظرية التي أخذ نفسه بالتدليل على صحّتها. وكانت آراؤه تشوبها شائبة التسامي إلى بعض الألقاب العلمية، والطموح إلى مراكز السلطان. فقال الفيلسوف في نفسه: «إني لَأبيح له كتبي، يصنع فيها ما شاء، وشاء له الهوى، فأمّا علم النفس؛ علم النفس... الذي يرتبط به مصير هذه الأمّة...!» وإذ كان الفيلسوف يرقب مهاجمة الأستاذ له فقد

قرَّت عزيمته على الردّ عليه.

ولبث الفيلسوف يمشي، وهو يسائل نفسه: «أصحيح أن «روبير جرسلو» قتل الآنسة شارلوت؟ إن الشابّ الذي تحمله الغيرة على القتل ليؤيِّد نظريَّتي، التي ذهبتُ فيها إلى أن غريزتَي الهدم والحبّ تتحرَّكان معاً، في نفس الرجل، وفي وقت واحد».

وأقبل الفيلسوف على البيت، فجاءته مدام «جرسلو» تسعى قائلة: «أنا التي كتبت إليك بالأمس، يا سيِّدي».

فأجابها الفيلسوف: «لي عظيم الشرف يا سيِّدتي. وإني ليؤسفني أن تأخَّرت في الحضور، لكن كتابك ذكر الساعة الرابعة، على أنه لم يمض طويل وقت على مبارحتي غرفة التحقيق، حيث استدعيت للإدلاء بشهادتي في شأن ذلك الابن التعس..» وكانت أنفاس الأمّ الضعيفة الخافتة تنمّ عن ضعفها وإعيائها، فأخذته بها شفقة ورحمة، وهو الفيلسوف الذي لا تجد أحداث العالم سبيلاً إلى قلبه. وفي ضوء المصباح الذي أوقدته الخادم، والنار التي أشعلتها، رأى الأمّ المسكينة وجهاً لوجه، فراعه أن يشهد الغضون المرتسمة في زوايا فمها، وعلى جانبَيْ أنفها، والشفتين الجافَّتين من حرارة الحمّى، والحاجبين المنقبضين، والجفون المتقرِّحة، واليدين المرتعشتين المجلَّلتين بالسواد، تحملان أوراقاً، ظنَّ الفيلسوف أنها خاصّة بموقف المتَّهم. هَوَت الأمّ على الكرسي، وقالت بصوت متضعضع: «يا إلهي! يا إلهي: لقد أقبلت- إذاً- متخلِّفة... لقد كنت أحبَّ أن أتحدَّث إليك- يا سيدي- قبل حديثك مع القاضي.. على أني لا أشكّ في أنك قد تولَّيت الدفاع عنه، فقلت إن ذلك لا يسيغه عقل، وإنه لم يرتكب الجريمة التي يتَّهمونه بها.. إنك لا تعتقد

إجرامه، يا سيِّدي.. أنت الذي كان يدعوك أستاذه، ويحبّك من كلّ قلبه..».

فقال الفيلسوف: «ما كان لي أن أدافع عنه يا سيِّدتي، فقد سألوني عن علاقاته بي، كيف كانت.. وبما أني لم أره إلّا مرَّتين، وبما أنه لم يحدثني إلّا عن دراساته..». فقاطعته الأمّ، وقد طارت نفسها شَعاعاً: «آه: لقد قدمت متأخِّرة، على أنك- يا سيِّدي- ستدلي بشهادتك أمام محكمة الجنايات، فتنادي بأنه ليس بمجرم، ولا يمكن أن يكون مجرماً؛ فليس يصحّ، في الأذهان، أن يصبح الإنسان مجرماً بين عشيّة وضحاها. ونزعة الإجرام تتجلّى في نفس المجرم طوال فترة الشباب، وأولئك قوم يجنحون إلى الشرّ، وينزعون إلى التبطُّل، وينهمكون في الميسر، ويتسكَّعون في الطرقات، ويقتلون الوقت قعوداً في مشارب المقاهي.. أمّا هو، فمنذ نعومة أظفاره، كان مع أبيه المسكين مكبّاً على الكتب، في كلّ حين.. وكنت أنا التي أقول له: «هيّا- يا روبير- اخرج، ينبغي لك أن تخرج لتبديل الهواء، والترويح عن نفسك». أوّاه لو تمثّلت الحياة الهادئة الناعمة التي كنّا نحياها معاً، هو وأنا، قبل أن يغشى تلك الأسرة اللعينة. وما التحق بها إلّا ليخفِّف العبء عن كاهلي، ويستطيع إتمام دراسته، فقد كان يقدِّر لنفسه الحصول على إجازة الأستاذية خلال ثلاث سنوات أو أربع، ثم يتّخذ له مكاناً للتدريس في إحدى الجامعات، كجامعة «كليرمونت» مثلاً... وكنت أبتغي له زوجة صالحة، وأكبر طموحاتي هو أن أرعى أبناءه. فقل لي- بربِّك- أيجوز، في عقل عاقل، أن ولداً نبت في مثل تلك البيئة، ونما وترعرع وسط تلك الأفكار والآراء، أن يقدم على ما يسندونه إليه؟ لعمر الحقّ، إن هذا هو العار».

فما زاد «أدريان سكست» على أن قال لها: «هدِّئي من روعك يا سيِّدتي.. هدِّئي من روعك!» وكانت هذه هي العبارة الوحيدة التي عرف أن يجيب بها

أمّاً وقفت حياله، ونفسها تكاد تذهب حسرات، فتولول بعبارات تمزِّق نياط القلوب، حين تشهد أعزّ آمال قلبها تُقَوَّض، وأغلى أماني نفسها تنهار. ومن ناحية أخرى، كان لا يزال تحت سلطان التأثُّر الذي تركه القاضي في نفسه، فتراءت له وقد ضلَّت ضلالاً بعيداً، وأصبحت فريسة للأوهام العمياء، فلبث مشدوهاً، يزيده حيرةً واضطراباً، تمثُّلُ شبح «ريوم» أمام ناظريه، فقد كان يفزعه كما أفزعه هذا الألم الإنساني. وقرَّ في ذهن الأمّ أن الفيلسوف لا يؤمن ببراءة ابنها، فأشارت إشارة اليأس، وانثنت عنه مرتاعةً فزعةً، وصاحت في حزن وألم: «كيف؟ وأنت، أيضاً- يا سيِّدي- تنحاز إلى جانب خصومه، وتتشيَّع لمتهميه؟ أنت؟ أنت؟».

فأجاب «أدريان سكست»، في هوادة ورفق: «كلّا، لست خصماً يا سيِّدتي، وليس أحبّ إليَّ من أن أعتقد ما تعتقدين. لكن، أتأذنين لي في أن أكون معك صريحاً غاية الصراحة؟ الوقائع هي الوقائع، وإن وطأتها لشديدة على ابنك البائس؛ فابتياع السمّ خفيةً، وإلقاء الزجاجة من النافذة، ووجود الزجاجة الثانية، وقد أُفرِغ نصفها، واستُعيض عن هذا النصف بماء، والخروج من غرفة الفتاة ليلة الوفاة، والبرقيّة الزائفة، والرحيل المباغت، هذا إضافةً إلى الخطابات التي أُلقِيت طعمةً للنيران، متوِّجاً كلّ أولئك بالتحصُّن خلف الإنكار..».

فقاطعته الأمّ قائلة: «ليس في ذلك كلّه أيّ دليل، يا سيِّدي.. فأمّا عن سفره المفاجئ، فتعليله أنه كان يزمع ترك مركزه منذ شهر أو يزيد، وتحت يدي رسائله التي تنبئ عن ذلك العزم، وفوق هذا فقد آذنت مهمّته بالانتهاء، ولقد خيِّل إليه أنهم يودّون الاحتفاظ به، على رغم أنه عافَ حياة التدريس، وودَّ الخلاص منها، فلفرط حيائه وخجله انتحل ذلك العذر، واصطنع تلك

البرقية المشؤومة، وهذا كلّ مافي الأمر.. فأمّا عن السمّ فإنه ما ابتاعه خفيةً، فلقد مضت سنون، وكَرَّت أعوام، وهو يشكو آلام المعدة. ولشدّ ما كان يقبل على الدرس في أعقاب وجبات الطعام! فأمّا عن مغادرته غرفتها ليلاً، فمن الذي شاهده؟ أشاهده خادم؟وماذا إذا كان قد ابتاع القاتل الحقيقي ضميره، ليتَّهم ابني ويدرأ عن نفسه عبء الاتِّهام؟، وهل أنا أعلم بدخائل تلك الفتاة، وبمن يمكن أن يكون له صالح في قتلها؟ وأمّا عن الزجاجة الملقاة، والأخرى المملوءة إلى نصفها، والخطابات المحترقة، فما هي إلّا ذيول خطّة مدبَّرة، وحلقات من سلسلة مصوغة، أريد بها إلقاء الشبهات عليه. كيف؟ ولماذا؟ الأيام كفيلة بتمزيق القناع عن وجه الحقيقة. لكن ما أعلمه حقيقة فهو براءة ولدي من الجريمة. وأقسم، غير حانثة، بذكرى والده الراحل أنه بريء. أو تعتقد أني كنت أدرأ عنه الشبهات بمثل تلك الحرارة لو شعرت بأنه مجرم؟ أما والله، لو أني اعتقدت إجرامه لكان قصارايَ التوسُّل والاسترحام، لا أن أرسل الصيحة داوية: العدل. العدل. لا، لا، لم يكن من حقّ هؤلاء القوم أن يتَّهموه، وأن يلقوا به في غياهب السجن، وأن يلوِّثوا سمعتنا، فلقد أوضحت لك- يا سيِّدي- أن القضيّة خلو من كلّ دليل».

ثم صاحت مدام «جرسلو»: «لو صحَّ أنه مجرم لتكلَّم، وأطال الكلام، ودافع، وأسهب في الدفاع، وعمد إلى الأكاذيب يسرف فيها ولا يقتصد، بل لأغرق المحقِّقين في طوفان من المفتريات. فلابدَّ- إذاً- من أن يكون في الأمر سرّ. وإني لعلى ثقة بأنه يعلم شيئاً، لا يودّ أن يبوح به، ولديه ما يبرِّر صمته، وأكبر الظنّ أنه يحجم عن تلويث سمعة تلك الفتاة التي يزعمون أنه كان يتعشَّقها.. فإذا كنت- يا سيِّدي- قد وددت أن أراك بأيّ ثمن، وإذا كنت قد هجرت مدينة «ريوم» يومين كاملين، فإنما ساقتني الرغبة إلى التماس

العون منك؛ فلن يستطيع سواك أن يحلّ عقدة لسانه، ويحمله على الدفاع عن نفسه، وتبرير موقفه، والإفضاء بالحقيقة كاملة. وأرجو أن تعدني بأنك ستكتب إليه، وستذهب إلى هناك، وذلك دين لي في عنقك، فلشدَّ ما كنت باعث آلامي وأحزاني!».

فسأل الفيلسوف: «أنا؟».

فأجابت، في لهجة تمازجها الحرارة، وبعبارة تشفّ عن الحنق، ووجهها يفيض حقداً، ويبضّ غيظاً: «إذا كان قد فقد عقيدته، فمن ذا الذي يحمل التبعة؟ التبعة منصبّة على رأسك يا سيِّدي، وعلى مؤلَّفاتك... يا إلهي! لشدّ ما فاضت نفسي حنقاً عليك، في ذلك الحين...! إني لأتمثَّله اليوم، ويتراءى لي وجهه، وهو يقول لي إنه لن يقدِّم القربان في يوم الموتى، لأن الشكوك تساوره. فقلت له: «وأبوك؟ وفي يوم الموتى!...» فما أنسى إجابته لي، «دعيني، فما عدت أعتقد.. قُضي الأمر» ولقد كان جالساً إلى مكتبه، وأمامه مجلَّد، طواه وهو يتحدّث إلَيّ. وإني لأذكر أني قرأت اسم المؤلِّف بطريقة آلية، فكان اسمك أنت يا سيّدي، ولم أجادله في ذلك اليوم، فقد كان- رغم حداثة سنّه- من كبار العلماء، وما كنت إلّا جاهلة.. فلمّا كان الغد، وكان لايزال في الجامعة، استدعيت القسّ «مارتيل» لأطلِعه على المكتبة، إذ أعتقدت أن تلك المطالعات هي التي أضلَّت رشاده وذهبت بهداه، وكان كتابك- يا سيِّدي- لايزال على المكتب، فتناوله القسّ «مارتيل»، وقال لي: «ذلك شرُّها جميعاً...». فعفواً- يا سيِّدي- ثم عفواً إذا كنت أقسو عليك وأولمك، فلو بقي لولدي دينه كما كان، لتوسَّلت إلى القسيس أن يحمله على الكلام. لقد استللت من قلبه عقيدته، يا سيِّدي. ولن ألومك بعد اليوم، ولن أحمل لك حفيظة في نفسي. لكن، ما كنت سأطلبه من القسّ سأطلبه منك أنت... آه لو أنك سمعته يوم

قفل من باريس؛ لقد كان يقول لي: «إنك لا تعريفنه يا أمّي، ولو أتيحت لك معرفته لأكبرت قدره أيَّما إكبار، إنه لقدّيس! عدني أن تحلّ عقدة لسانه ليتكلَّم، ليتكلَّم من أجلي، ومن أجل أبيه، ومن أجل أولئك الذين يحبّونه، بل من أجلك- يا سيِّدي أيضاً، فليس يصح في الأذهان أن يكون أحد تلاميذك قاتلاً. وما من شكّ في أنه تلميذك وأنك أستاذه. فهو مدين لك بالدفاع عن نفسه كما هو مدين لي بذلك، أنا أمّه...».

فقال العالم بلهجة تشفّ عن الخطورة والجدّ: «إني أعدك- يا سيِّدتي- أن أصنع كلّ مافي وسعي أن أصنعه». وتراءت له في المرّة الثانية، في اليوم ذاته، مسؤولية الأستاذ حيال تلميذه. نعم، لقد لمح تلك المسؤولية بارزة خلال أقوال قاضي التحقيق، ثم لمسها بيده في عبارة مدام «جرسلو».

ثم قالت- وهي تكفكف عبراتها- : «لقد قال لي: إنك طيِّب القلب، ولقد جئتك لأودّي رسالة عهد بها إليّ ذلك الولد التعس، فعسى أن تجد بين ثناياها دليلاً جديداً على براءته. إذ لبث في السجن شهرين، وضع خلالهما بحثاً مستفيضاً في الفلسفة، وقد كلَّفني بتقديمه إليك»، ثم قدَّمت للفيلسوف الأوراق التي معها، وقالت له: «مازالت الأوراق على الحالة التي أعطاني إيّاها، وهم يَدَعونه يكتب كيف يشاء، لأنهم جميعاً يحبّونه، وقد سمحوا لي بمخاطبته دون وجود الحارس. وأنا اراه، الآن، في غرفة المحامين.. ومن ذا الذي يعرفه، ثم لا يحبّه؟ لقد كان يصدقني القول دوماً. وإذا كان قد اختار أن يخصّك بالكتابة، فما ذاك إلّا لأنه يريد أن يفضي بالحقيقة إليك وحدك».

فقال «أدريان سكست»، وهو يفضّ غلاف الأوراق: «سأرى ذلك في الحال»، ثم ألقى نظرة على الصفحة الأولى من الكرّاسة، فاستطاع أن يقرأ فيها

الكلمات الآتية «علم النفس الحديث»، وقرأ في الورقة الثانية عنواناً آخر: «مذكِّرة عن نفسي» وتحت هذا العنوان السطور الآتية: «أرجو من أستاذي العزيز، المسيو «أدريان سكست» أن يتعهَّد بشرفه أن يحتفظ لنفسه بالصفحات الآتية. فإذا لم يرُق له أن يأخذ على نفسه هذا العهد حيال تلميذه التعس، فإني أطلب إليه أن يُتلف هذه الكرّاسة، وإني لعلى ثقة بأنه لا يسلِّم تلك المذكرة لكائن من كان، ولو كان تسليمها في سبيل إنقاذ رأسي»، وقد وَقَّع الشابّ الرسالة بأحرف اسمه الأولى.

وبينما كان الفيلسوف يتصفّح أوراق الكرَّاسة، وهو في أقسى حالات الاضطراب والقلق، سألَتْه: «ماذا رأيت؟».

فأجابها، وقد طوى الكرَّاسة وبسط أمام عينها الصفحة الأولى: «ليس هذا إلّا بحث فلسفي محض، كما أخبرك، فانظري..».

وبينما كانت الأمّ تجيل نظرها خلال الصيغ الفنّيّة التي يقصر إدراكها عن تفهُّم مراميها، طاف بفمها سؤال حائر، وانطبعت على عينها مظاهر عدم الثقة والتصديق؛ إذ شهدت «أدريان سكست» حيران متردّداً، على أنها لم تجترئ على السؤال، فنهضت، وهي تقول: «معذرة- يا سيِّدي- إذا كنت قد أطلت المكث لديك، فقد وضعت فيك آمالي، وما أنت ممَّن يخدع قلب أمّ، وإني لأسجِّل عليك وعدك.».

فأجابها، بلهجة تشفّ عن الخطورة والجّد: «سأفعل- يا سيِّدتي- كلّ ما في وسعي حتى تنجلي الحقيقة، وإني لأعدك كرّةً أخرى».

فلمّا شيَّعها إلى الباب، وألقى نفسه في المكتب وحيداً، غرق في بحار التأمُّلات،

ثم تناول النسخة الخطّيّة التي ألقت بها إليه مدام «جرسلو»، فقرأ العبارة التي خطَّها الشاب بيده، ثم قرأها ثانيةً، وكلّما نازعته نفسه إلى مطالعة الكرّاسة دفعها بيده، وأخذ يذرع غرفة المكتب جيئةً وذهاباً. أمسك بالأوراق مرَّتين، ودنا من النار، وهَمَّ بإلقائها فيها، على أنه كان، في كلّ مرّة، يحجم عن أن يجعلها طعاماً للَّهب. وكانت رأسه مثاراً لمعركة مشبوبة النيران، وظلَّت تتنازعه عوامل متباينة: بين أن يستسلم لتلك الرغبة الملحّة في الاطّلاع على اعترافات تلميذه، وبين أن يتفادى المخاوف التي تساوره. وفي الحقّ، إن العهد الذي يأخذ نفسه به، مضافاً إلى ما يمكن أن يتبيَّنه من ثنايا تلك الأوراق، قد يقذف به في مأزق حرج. أيطاوعه ضميره أن يكون بيده الدليل على براءة الشاب ثم لا يستطيع تقديمه؟ وماذا يكون موقفه إذا كانت تلك الأوراق تحمل في ثناياها الدليل على إدانته؟ وخشي أن يجد فيها- إن صَحَّ أن في الأمر جريمة- مظهراً لتأثيره، ومصداقاً للاتِّهام القائل إن كتبه لقد لعبت دوراً مهمّاً في تلك الجريمة المروِّعة. ورأى أنه لا يجمل به أن يتورّط في تلك المأساة، فقال في نفسه: «كلّا، لن أقرأ تلك المذكِّرة، وسأكتب إلى ذلك الفتى كما وعدت والدته، ثم ينقضي الأمر». ثم أقبلت ساعة عشائه، فجلس إلى المائدة وحيداً، على مألوف عادته. فلمّا فرغ من تناول العشاء جلس على مقعد، ولم يخرج، وأمامه مذكِّرة «روبير جرسلو». وظلّ، حيناً، نهباً للتردّد، ثم تغلَّبت طلعة الفيلسوف على أحكام الضمير، فأقبل على المذكِّرة يقرأها، ولبث يقرأ حتى كانت الساعة الثانية صباحاً، وكان أَوّلى بتلك القطعة التحليلية التي أسماها «روبير جرسلو» «مذكِّرة عن نفسي» أن تُدعى «اعترافات شابّ من شباب اليوم».

اعترافات شابّ

«سجن ريوم، يناير، عام 1887»

«أكتب إليك- يا سيِّدي- هذه المذكِّرة عن نفسي، وقد أبيتها على المحامي، رغم توسُّلات أمّي. وإني لأكتبها إليك، أنت الذي لا يعرف من حياتي الخاصّة إلّا النزر اليسير، في أدقّ المراحل وأحرجها. والذي حملني على كتابتها هو ما يجعلني أحمل إليك باكورة مباحثي، فإني لتربطني بك، أنت الاستاذ الجليل، وأنا تلميذك المتَّهم بجناية هي شرّ الجنايات وأخزاها، رابطة، يعجز الناس عن إدراكها، بل- ربَّما- خفيت عنك، وإن كنت أحسُّها في أعماق نفسي، وأشعر أنها رابطة لا انفصام لها، فلقد عشت بفكرتك ولفكرتك في الساعة الفاصلة من ساعات وجودي. والآن، وأنا نهب آلام نفسية ممضّة أتوجَّه إليك على أنك الواحد الفردي الذي يمكن أن ألتمس، في شدّتي، عونَه. ولا يحسبَنّ سيِّدي وأستاذي أن مبعث ما أقاسي من فزع واضطراب، هو ما يحيط بي من مظاهر العدالة، فلا كنت جديراً بلقب الفيلسوف إن لم أكن قد

آمنت بأن فكرتي هي الحقيقة الوحيدة التي يجب اتِّقاء حسابها، أمّا ما عداها من مظاهر العالم الخارجية فليست إلّا سلسلة من المشاهد الجوفاء. وقد يُقضى عليَّ بالإعدام، بعد ستّة أسابيع، من أجل تلك الجريمة التي لم أقترفها. وستتبيَّن، بعد مطالعة هذه الصفحات، لماذا أُحجم عن درئها، ثم أمشي إلى الموت رابط الجأش، ثابت الجنان، لا تعروني هزّة اضطراب، وأستقبل الحادث الجلل، غير وَجِل ولا هيّاب، استقبالي قول الطبيب لي إن بقلبي علّة توشك أن تقضي عليّ، ولو حُكِم بإعدامي لغالبت، بقوّة، تلك النزعة الحيوانية التي تثيرها غريزة حبّ البقاء، ثم لناهضت اليأس المستولي على نفس والدتي. ولا أخفي عن أستاذي العزيز أني، وإن لم أقتل الآنسة «شارلوت»، قد انغمست في مأساة تسمُّمها؛ لذا أشعر، الآن، بوخز الضمير، رغم أن المذاهب التي أدين بها، والحقائق التي علمتها، والعقائد التي تتألف منها عقليَّتي، علَّمتني أن الضمير هو أغبى الأوهام الإنسانية جميعاً. فأودّ أن أسمع منك، وأنت طبيب بأمراض النفس البشرية، كلمة تردّ السكينة إلى قلبي، وتقنعني بأني لم أكن مخدوعاً حين اعتنقت المذاهب العصرية. ثم إني بائس، أريد أن أفي ببؤسي، لأروِّح عن نفسي، وأزحزح الكابوس الجائم على صدري. ومَنْ أكاشف إذا لم أكاشفك، وأنت القادر على أن تدرك كنه نفسي، وحقيقة عقلي؟ ولقد لثبت في السجن زهاء شهرين فما عدت إلى صوابي بعد تلك الحوادث الفظيعة إلّا حين هممت بالكتابة إليك. ولقد حاولت، على غير جدوى، أن اشتغل ببعض البحوث التجريدية. ومضت أربعة أيّام وأنا مكبّ على الكتابة إليك، في غفلة من أعين الرقباء، فعاودتني قوّة تفكيري. والآن، لا يخامرني شكّ

في أن عوامل الوراثة هي منشأ الأزمة التي أعاني، وأن مبعثها البيئة الفكرية التي عشت فيها، والبيئة الغريبة التي انتقلت إليها، وقوامها أسرة «جوسات».

الوراثة

وُلِدت، أنا- رويبر جرسلو- في مدينة كلير مونت، في 5 سبتمبر، من عام 1864. وكان والدي، الذي فقدته وهو شاب، من أصل لوريني، يشغل وظيفة مهندس جسور وطرق. وإذا تمثَّلتَه تمثَّل لك ضئيلاً ضعيف الصحّة مهزولاً، لا ينبت في ذقنه إلّا شعر قليل، وعلى وجهه طابع وقار يشفّ عن الحزن العميق.

وما ذكرته، على تمادي الأعوام، إلّا أثار الشفقة والحنان في قلبي. وإنه ليتراءى لي الآن، وهو في مكتبه، مكبّاً على عمله. وكانت المحطّة على كثب من بيتنا، فكان صفير القطار يصل، بدون انقطاع، إلى ذلك المكتب الهادئ الساكن، وكنت ألهو في أرض الغرفة، على مقربة من النار، في هدوء وصمت، فيُحدث ذاك الصفير أثراً عميقاً في نفسي، كالأثر الناشئ من الاصطدام بسرٍّ رهيب، أو الاحساس بالاغتراب، أو الشعور بفناء الساعات، وتلاشي الحياة. وكان أبي يخطّ، بالطباشير، على السبورة، رسوماً هندسية، أوصيغاً للجبر، لا أدرك شيئاً منها، وكانت المكتبة،

وصور العلماء، هي كلّ ما تزدان به الحجرة. وما ذكرت هذه مفصّلاً إلّا لتعلم أني كنت، منذ حداثتي، أتوق إلى حياة التفكير والمثل الأعلى. نعم، لقد كنت أوثر التفكير على الحركة، حتى أن الزيارة المجرَّدة كان يخفق لها قلبي، بل ما كنت أجسر على أن أناضل أحداً، وجهاً لوجه، في سبيل أعزّ الآراء على نفسي، وأَحَبّها إلى قلبي. وما من شكّ في أن هذا النفور من الحركة يسوق الإنسان إلى الانهماك في التفكير، حتى يصبح بمعزل عن حقائق هذا العالم، ولقد ورثت عن أبي مرض المجموعة العصبية، المرض الذي يجعل الإرادة تندفع، في بعض الأحيان، دون أن يكبح جماحها كابح. ومات أبي وهو شابّ، إذ لم يكن متين البنية، وكان عليه، وهو فتى، أن يجوز امتحان مدرسة الهندسة، فقضى ذلك الامتحان الدقيق على صحَّته بالضعف والوهن، ولم أرث عنه القوّة الجسمانية التي تقاوم حساسية أعصابي المرهفة.

ولقد استرعى نظري أن أرى أمّي إلى جانبي، تؤدّي فريضة الصلاة في الكنيسة، على حين لم أرَ أبي فيها أبداً. فبدا لي يوماً أن أسأل والدتي: «لماذا لا يحضر أبي معنا للصلاة؟»، ولم يعسر عليَّ، رغم طفولتي، أن أدرك مبلغ الاضطراب الذي أحدثه سؤالي في نفسها، فقالت لي: «إنه يؤدّي الصلاة في جهة أخرى. ألم أقل لك مراراً إنه لا يجمل بالأبناء أن يتساءلوا عمّا يصنعه الآباء؟». ومنذ ذلك اليوم، لم يبق أثر للاتِّصال الروحي بيني وبين أمّي.

ولشدّ ما كان أبي يحبّ الريف الذي نشأ فيه! وكثيراً ما اصطحبني في غدواته وروحاته. فإذا جاء إلى جبل عُنِيَ بدراسة تكوين الأرض، وإذا اقتطف زهرة تعرَّف اسمها، ودرس طبيعتها، وإذا التقط حشرة اشتغل

بدرس فصيلتها، وتكوينها الخَلْقي، وكان يحدثني حديث ذلك كلّه؛ فما من عجب أن توجد فيَّ الروح التحليلية. ولو أن أبي ظلّ على قيد الحياة، لاعتنقت العلوم العملية.

ولمّا بلغت العاشرة من عمري، وبينما كنّا في نزهة معاً، هبَّت علينا عاصفة هوجاء، غمرت ثيابنا بالماء، كأنما كنا نسحّ ولا نمشي، فرجعنا بأثوابنا مبلَّلة، وأصيب أبي ببرد شديد، ولم يقبل المساء حتى كان يشكو الرعدة، ويألم من القشعريرة، ولم يمضِ يومان حتى أصيب بنزلة صدرية، ثم ما لبث أن قضى نحبه.

ولقد ذُهلت لموته أكثر ممّا حزنت لفقده، واليوم، فقط، أستطيع أن أقدِّر مبلغ الخسارة التي تحمَّلتها بفقده؛ فلقد غرس في نفسي حبّ الحياة العقلية، وبثَّ في قلبي روح الإيمان بالعلم. هذا من الناحية الفكريّة، أمّا من الناحية الخلقية، فلقد راضني على التفكير، وزهَّدني في الحركة، إلى حَدّ أن عافتها نفسي، وأصبحت أعجز من أن أقاوم أهوائي الجامحة.

وقد تعجب- وقد أصبحت، وأمّي، وحيدَيْن في هذا الوجود، وهي المملوءة، نشاطاً وإخلاصاً، وأنا الشابّ- من أنه لم توجد بيننا رابطة قلبية حتى في السنوات الأولى. ولقد سمعتها مرّةً تحدِّث إحدى الزائرات، فتقول: «إني لأخشي أن يكون ولدي بلا قلب ولا عاطفة؛ فإنك لا تستطيعين أن تصوِّري لنفسك تحجُّر فؤاده يوم موت أبيه.. وما إن أقبل الغد حتى نسي ذكراه. ومنذ موته لم يذكره بكلمة واحدة، وإذا خاطبته بشأنه فلا يكاد يجيبني. ويخيل للإنسان أنه لم يعرف ذاك الرجل الذي كان يغمره بحبِّه، ويسبغ عليه عطفه، ويفيض حناناً عليه..». وحقّ أني لم أتكلَّم عن أبي، لكن

الباطل أني نسيته فلم أذكره. فما مررت بإفريز، ولا أجتزت طريقاً، ولا شهدت شيئاً من أثاث بيتنا، دون أن يوقظ ذكرى أبي في قلبي، إيقاظاً يُشيع الآلام في أعماق نفسي.

وضاعف الانفصال الروحي بين أمّي وبيني أنها رأتني يوماً أطالع بعض الكتب الأدبية التي كان يقتنيها أبي، فنهرتني، وأخذَتْها مني عنوةً، فأودعَتْها المكتبة، ثم حرصت على مفاتيحها، مخافة أن أعاود مطالعتها.

البيئة العقلية

كنت، بين الحادية عشرة والخامسة عشرة، يافعاً ورعاً تقيّاً. وفي العهد الذي أتحدّث عنه، تولّى الحزب الديموقراطي مقاليد الحكم في فرنسا، فطغت على باريس والريف موجة متدفِّقة من أمواج حريّة الفكر. وأنا ابن امرأة تقيّة، لذا حُمِلْت على تأدية كافّة الفرائض الدينية، فكنت أختلف إلى الكنيسة كلّ خمسة عشر يوماً، فأركع على ركبتيّ، وأتمتم بصوت خافت، وقلبي يخفق، بكلّ ما يطوف بنفسي. وكانت خطاياي تتمثَّل لي جرائم أخجل من الاعتراف بها، وكان القسّ «مارتيل» إذا حدَّثنا عن الجحيم، أبرقت عيناه، وسرى الفزع من نفسه إلى نفوسنا. وجئته يوماً أبكي، وذكرت له أني رأيت اثنين من أصحابي يسخران من امرأة داخلة إلى الكنيسة، فشاطرتهم الضحك، بدل أن أنهاهم عن السخر من تلك المرأة.

إنّما عصفت بعقيدتي روح النقد، وهي الملكة التي تهدم الإيمان، وهي التي فرَّقت بيني وبين أمّي، ثم إني رأيت الرجال الذين على شاكلة أبي لا يؤدّون فروض الدين. فالأساتذة الشبان الذين يقدمون علينا من باريس كانوا كلُّهم من المتشكِّكة أو من الملاحدة، وقد محا البقية الباقية من إيماني، الأدبُ الحديث الذي توفَّرت على دراسته، منذ بلغت الرابعة عشرة من عمري. وإذا كانت أمّي قد حالت بيني وبين كتب أبي، فقد غُنيت عنها بكتب صديق لي، كان مثلي، شديدَ الشغف بالمطالعة.

كذلك كانت حالتي النفسية حين بدأت دراسة الفلسفة في الجامعة.

وبينا كنت انقِّب عن المؤلَّفات التي توضِّح اللبس الذي أجده في شرح أستاذي، وجدت كتاب «روح الله»، فأغرمت به غراماً شديداً، فنازعتني نفسي إلى أخويه: «نظرية العواطف»، و«تشريح الإرادة»، فكان أثره الفعّال في نفسي، من الوجهة العقلية، كأثر مؤلَّفات «موسيه» من وجهة الحساسية الخفّاقة، والعواطف الجيّاشة؛ وبذلك سقط القناع، وتبدّدت الظلمات التي كانت تكتنف العالم أمام ناظري، واهتديت إلى الطريق، وأصبحت تلميذك.

البيئة الجديدة

أقبلت على الدراسة إقبالاً شديداً، فأصبت بمرض خطير أكرهني على الانقطاع عن التحضير لدخول «مدرسة النورمال»، وما إن أبللت من مرضي حتى ضاعفت دراستي للفلسفة مع متابعتي لدرس البيان. ثم تقدَّمت إلى المدرسة، في الوقت الذي تشرَّفتُ فيه باستقبالك إيّاي، أمّا الحوادث التالية فأنت تعلمها ولا تجهلها. لقد أخفقت في الامتحان.

وفي شهر نوفمبر من عام 1885، قبلت أن أكون مدرِّساً في أسرة «جوسات راندون». ولقد كتبت إليك، إذ ذاك، أني قد تنازلت عن استقلالي، لعلّي أخفِّف الأعباء المالية عن عاتق والدتي. أضف إلى هذا أني كنت أداعب الأمل بأن ما أقتَصِد من أجر التدريس قد يعينني، متى نلت إجازة الليسانس في الآداب، على أن أهيِّئ نفسي لنيل إجازة الأستاذية في باريس.

فقد حُبِّبت إليَّ الإقامة في تلك المدينة آملاً أن أتَّخذ لي مسكناً على مقربة من شارع «جودولابروس»، حيث تقيم، فلقد تركت زيارتي لك، في صومعتك، أثراً عميقاً في نفسي. وشُبِّه لي أنك «سبينوزا» العصر الحاضر؛ للمطابقة

بين حياتك وكتبك؛ تلك الحياة التي كرَّستها للعلم، ووقفتها على التفكير. ولقد ظللت أشيِّد قصور السعادة وعلاليها، لتوهُّمي أني سأعلم بأوقات رياضتك، وسألقاك في حديقة النباتات، وأنك سترضى أن تسدِّد خطواتي، فإذا التمست عونك، ووثقت من معاضدتك، استطعت أن أظفر بالمكانة في ميدان العلم؛ فقد كنت لي الحقيقة الحيّة، والأستاذ الهادي، بل كنت مني بمنزلة «فوست» من «فجنر»، في رواية «جوته» الخالدة.

وكانت الشروط التي قُدِّمت لي عن التدريس مُرضية؛ فقد كان عليَّ أن اصطحب غلاماً في الثانية عشرة من عمره «وهو الابن الثاني للمركيز دي جوسات». ولقد علمت، منذ ذلك الحين، كيف آوت تلك الأسرة، طوال فصل الشتاء، إلى ذلك القصر القريب من ضفاف بحيرة «ايدات»، على حين أنها أَلِفَت أن تقضي فيه أشهر الخريف، عادةً. وقد كان المسيو «دي جوسات» وزيراً مفوَّضاً في عهد الإمبراطور، فأصابته أزمة مالية، ضاعف من آثارها، وشدَّد من وطأتها، ما خسره من المضاربات في البورصة.

فرُهِنت أملاكه، وتضاءل إيراده، واضطرّ إلى تأجير قصره بأثاثاته، في «الشانزليزيه»، بإيجار كبير، ثم وصل إلى أرضه قسّ جوسات، وهو يزمع أن يبرحها إلى بيته في مدينة «كان»، فسنحت له فرصة جميلة لتأجير ذلك البيت. وأغرته بتأجيره، الرغبة الملحّة في موازنة دخله، وخرجه، إلّا أن مرضه العصبي قد حَبَّب إليه أن يسكن إلى الوحدة عاماً كاملاً. وفي ذلك الحين، سافر مدرِّس ولده «لوسيان» فجأةً، فما كان يرضى أن يقبر نفسه حيّاً طوال الشهور، وكذلك عَجَّل المركيز بالحضور إلى «كلير مونت». ولخمس وثلاثين خلت، كان قد درس علم الحساب على المسيو «ليماسيه»، صديق والدي القديم، فبدا له أن يطلب إلى أستاذه أن يأتيه

بشابّ متعلِّم، ذكيّ، فيه الكفاية لتعليم «لوسيان» طوال هذا العام، وأبدى استعداده لأن يبذل خمسة آلاف فرنك في هذا السبيل. وكان من الطبيعي أن يتَّجه فكر مسيو «ليماسيه» إليَّ. وقبلت أنا، للاعتبارات التي بسطتها إليك، وارتضيت أن أمثل بين يدي المركيز، بوصفي مرشَّحاً لذاك المركز. وفي بهو من أبهاء المنزل المشرف على ميدان «جود»، رأيت رجلاً مديد القامة، أصلع الرأس، ذا عينين زرقاوين، ووجه يضرب لونه إلى الحمرة، ماكلَّف نفسه مؤونة النظر إليّ، ثم انطلق بتكلَّم، دون انقطاع، وفي خلاله حديثه يقحم الكلام عن صحّته، بين الفينة والفينة، بينما هو يوجِّه النقد المرّ اللاذع إلى التربية العصرية. وفي الواقع، قد كان المريض الوهمي الذي يحسب أن قد اصطلحت عليه العلل، وتحالفت عليه الأمراض، على حين أنه الصحيح المعافى. ولكأني أسمعه، الآن، يلقى القول جزافاً، ويرسل الكلام اعتباطاً، فيكشف هذا الخبط والخلط، أو ذاك التخليط في الكلام، عن صورة نفسه، وحقيقة خلقه، وليس يسعني إلّا أن أقدِّم لك طرازاً من هذاالخبط، ولوناً من ذاك الخلط، لأعطيك صورة صحيحة واضحة عن البيئة الجديدة التي قذفت بي إليها الأقدار الساخرة. قال المركيز: «قلي لي- «ليماسيه»- متى تحضر لترانا؟ إن المناخ هناك طيِّب، وذلك ما ينبغي لي، فقد كنت في باريس لا أكاد أتنفَّس. وفي الواقع إن الناس لا يتنفَّسون ما فيه الكفاية». ثم يلتفت إليَّ، ويقول: «أرجو- يا سيِّدي- ألّا تكون من أنصار الطرائق الحديثة في التعليم. فقد ملأوا آذاننا بكلمات العلم، ولا شيء غير العلم! واللهُ، ماذا صنعتم به، أيّها السادة العلماء؟!» ثم يتوجَّه بالقول إلى مسيو «ليماسيه»: «إني استطيع أن اقول إن في عصري، في عصرنا، كان لا يزال هناك شعور بفروق الطبقات، وبوجوب توقير الصغير للكبير، وضرورة عطف الثاني على الأوَّل، وبالواجب. وما

كان الناس يهملون جانب التربية في سبيل التعليم. أتذكَّر القسّ «هابير»، وكيف كان يتدفَّق بالكلام، ويفيض بالحكمة وفصل الخطاب؟ يالها من صحة! وياله من رجل، كان يمشي بخطًى ثابتة ، في كلّ حين، دون وهن أو تخاذل!.. ولكن، أنت- يا «ليماسيه»- كم عمرك؟ أظنّك قد نيَّفت على السبعين؟.. عمرك سبعون عاماً، ثم لا تشكو ألماً؟ ولا ألماً واحداً؟!

أفلا ترى أن صحّتي قد تقدّمت منذ اخترت الإقامة في الجبال؟.. الحق أني لست مريضاً بمعنى الكلمة، لكن هناك، أبداً، شيء بسيط.. ولعلّه يثير دهشتك أني أبتغي أن أكون مريضاً حقّاً وصدقاً. ففي تلك الحالة- على الأقلّ- يتعيَّن عليَّ أن أعالج نفسي، وأُعنى بصحَّتي..».

فإذا كنت أضع تحت نظر أستاذي العزيز، هذا القول المتخاذل المفكَّك الأوصال، بقدر ما وَعَته ذاكرتي، فما ذاك إلّا لأني أبغي أن أقدِّم بين يديك صورة بارزة لعقليّة ذلك الرجل، الذي اجترأ- كما علمت من والدتي- على أن يزجّ باسمك الكريم في غمار تلك المأساة. وكذلك أقصد أن أكشف لك عن جانب من جوانب حالتي النفسية، بعد أربعة أيّام من قدومي على ذلك القصر، الذي اصطدمت فيه بأبشع الحداثات هولاً، وأشدّها شنعة.

ولقد ارتضى المركيز، منذ الزورة الأولى، أن أكون معلِّم ولده «لوسيان». ثم تلطَّف فأبى ألّا أن أصحبه في العربة. وفي أثناء رحلتنا، من «كليرمونت» إلى «ايدات»، أفضى إليّ بقصّة أسرته، فأوضح لي أن امرأته وابنته لا تُقبلان على الملاهي، وأنهما قد برعتا في إدارة شؤون البيت، حتى لتصلح كلٌّ منهما لأن تكون ربّته. وكان يمزج الكلام بثرثرته التي لابدّ منها، وتتخلَّل حديثه الإشارة إلى شخصه، ثم يعرِّج إلى الكلام عن صحَّته.

وقال لي إن ابنه البكر، الكونت «أندريه»، سوف يقضي بين ظهرانيهم خمسة عشر يوماً، وأنه لا ينبغي لي أن أتبرم بخشونة جانبه، وجفوة طباعة، فإن صدره ينطوي على قلب يفيض عطفاً وحناناً، وأن ابنه الثاني «لوسيان» كان يشكو مرضاً خطيراً، وأن ما يجب أن تتَّجه إليه العناية هو أن أضفي عليه أثواب الصحّة، وأسبغ عليه حلل العافية ضافيةً. وما إن فاه المركيز بكلمة الصحّة، حتى أخذ يبدِئ فيها ويُعيد، ولبث ساعةً كاملةً يتحدَّث عن أوجاع رأسه، وسوء الهضم عنده، والأرق الذي يقضّ مضجعه، وآلامه في الماضي، وفي الحاضر، وفي المستقبل أيضاً، ثم أنهكه التعب، فلشدَّ ما استقبل الهواء، وفاض في طوفان من الكلام، حتى أسلم عينيه للكرى في زواية العربة!.

وإني لأذكر الخطط والأساليب التي كانت تطوف، إذ ذاك، في رأسي، بعد أن تزحزح الكابوس الجاثم فوق صدري، ونام، ملءَ جفونه، الرجلُ الذي ما كدت أعرفه حتى غمرته بازدرائي، حين انطلقت بنا العربة تنهب الأرض نهباً، بين المروج الخضراء، والجبال الشمّاء، والغابات المورقة الأفنان. وإن ما رأيته من المركيز، وما كشفته لي محاضراته عن بيته، كان كفيلاً بإقناعي، بأني سأكون في بيتي الجديد، في موقف المقضيّ عليه بالنفي بين قوم، دعوتهم بالمتبربرين، وهو اللقب الذي أطلقته، منذ سنين، على أولئك الذين يظلّون بعيدين عن مثار الحياة العقلية.

على أني لم أفزع من ذلك النفي، ولم أجزع؛ فالمذهب الذي اتَّخذته نبراساً لحياتي، والعقيدة التي أقمت على ضوئها تنظيم وجودي كانا واضحين في ذهني، إلى أقصى حدود الوضوح. وقد صحَّ عزمي على أن أعيش سجيناً في نفسي، أذود عن حَرَمها المقدَّس كلّ دخيل. فأمّا هذا القصر الذي أختلف

إليه، والقوم الذين تضمّهم جوانحه، فلن يكونوا- في اعتباري- إلّا بمثابة المادّة التي أحرص على أن أستغلّها، في سبيل فكرتي، إلى أقصى حدود الاستغلال. وقد تحدَّد برنامجي، إذ قرَّت عزيمتي، طوال الاثني عشر أو الأربعة عشر شهراً التي سأقضيها بين ظهرانيهم، على أن أكرّس أوقات فراغي لدراسة اللغة الألمانية، ومطالعة مجلَّدَيْ «بونيس» في علم وظائف الأعضاء؛ ذينك المجلَّدين اللذين تغصّ بهما حقيبتي الصغيرة، مع مؤلَّفات أستاذي العزيز، ومؤلَّفات عدّة للمسيو «ريبو»، والمسيو «تين»، و«هربرت سبنسر»، وبضع روايات تحليلية، والكتب الضرورية للتأهُّب لنيل إجازة الآداب. وقد كنت أقدر أن أجوز الامتحان في شهر يوليو، وأعددت كرّاسة بيضاء لأسطِّر فيها خواطري عن أخلاق القوم الذين أصبحت بين ظهرانيهم، وأخذت على نفسي أن أدرس نفسياتهم جملة وتفصيلاً، فابتعت قبل الرحيل كرّاسة، كتبت على غلافها العبارة الآتية المنتزَعة من كتاب «تشريح الإرادة»: «كان سبينوزا يباهي بأنه يدرس المشاعر الإنسانية، كما يدرس الرياضيّ رسومه الهندسية. فأمّا العالِم النفسيّ العصريّ فينبغي له أن يدرسها كما يدرس المزيج الكيميائي في آنية التقطير، مع هذا الفارق الذي يدعو إلى الأسف، ويبعث الأسى، وهو أن وعاء النفس البشرية ليس شفافاً ولا قابلاً للتصرُّف، كما هو وعاء التقطير في معمل الكيمياء». وإني لأقصّ عليك ذلك العبث الفارغ، لأدلّك على أني كنت مخلصاً وفيّاً، وأني، حين انطلقت بنا العربة في الطريق إلى «ايدات»، كنت قليل الشبه بذاك الشابّ الطامح الفقير الذي رسمت صورتَه أقلامُ الروائيِّين.

وتولَّتني الدهشة التي تتولّى كلّ من ينتقل من بيئة إلى بيئة أخرى. على

أنك إذا فتَّشت في جوانب نفسي فلن تجد أثراً للحقد أو الطمع، فقد كنت أنظر إلى المركيز، حين أخذته سِنة من النوم، في يوم من شهر نوفمبر، وقد تدثّر بالفراء التي تدفع عنه عادية البرد، وأسدل على ساقيه غطاءً من الصوف يقيه غائلة الزمهرير، ووضع يديه في قفّازين من الجلد، وعلى رأسه قبَّعة تكاد تخفي عينيه. وكانت تلك الصورة وحدها تكشف عن البون الشاسع، والهوة العميقة المظلمة، بين تلك الحياة الناعمة المترفة التي يحياها المركيز وأسرته، وحياة المسغبة التي أعانيها أنا وأمي. ولولا الادِّخار، و- إن شئت- التقتير، الذي تأخذ أمّي نفسها به، لقضت علينا المتربة، بل لذهبنا ضحايا البؤس والشقاء.

وابتهجت كثيراً؛ إذ لم أشعر بشيء من الحسد أمام ذاك الثراء الطائل، والنعمة الوارفة الظلال. أجل! ما أحسست بحسد أو حقد؛ فقد كنت واثقاً من نفسي، مدرَّعاً بعقيدتي (أو عقيدتك) معتدّاً بتفوّقي في ميدان الفكر، وسموّي في عالم العقل. وإني لَأُتمّ لك تصوير نفسيَّتي إذا قلت إني قد اعتزمت أن أستبعد الحبّ من برنامج حياتي، وأن أقف تلك الحياة على تكريم العلم، وتقديس العلماء، بل لقد فكَّرت في أن أدرس شعائر العبادة في الأديرة، لأطبِّقها على عيادة الفلسفة، فأطلق العنان لتأمُّلاتي الفلسفية كما يصنع جماعة الرهبان حين يسترسلون في تأمُّلاتهم الدينية، وأن احتفل كلّ يوم- كما يفعل الرهبان- بذكرى أولئك الذين أُنزلهم من نفسي منازل القدّيسين: بذكرى سبينوزا، وهوبز، وستندهال، وستيوارت مل، وأنت يا أستاذي العزيز، على أن أتمثّل صورة من أحيي ذكراه، وأستعرض مذاهبه، وأروّض نفسي على التشيُّع له، والتشبُّع بمبادئه. ولا أكتمك أن ذلك كلّه لم يكن إلّا فورة الشباب، وغرارة الصبا. على أنك

ترى أني لم أكن ذاك الفقير الطامح الذي يحلِّق في أجواء الخيال، ويسبح في سماء الأحلام، ليظفر بصفقة رابحة في الزواج كما تزعم، اليوم، تلك العائلة. ولئن كان خاطرا إغراء الآنسة «شارلوت»، وخداعها عن عفافها، قد خطرا ببالي، فإنما انغرسا في ذهني اعتباطاً، وأملتهما عليَّ الظروف، وأوحت به إليَّ الملابسات.

لست أكتب إليك لأسبغ على نفسي الثوب الروائي، ولا أخفي عنك أن من بين الظروف التي حملتني على الإغراء، وقد كان بعيداً عن ذهني يوم قدمت، الأثر الذي تركه الكونت «أندريه» في نفسي. بل لا أكذبك أن ذلك الأثر كان في طليعة الظروف التي ساقتني إلى الإغراء سوقاً. والكونت «أندريه»- كما ذكرت لك- هو شقيق تلك المسكينة التي قضت، والتي لاتزال ذكراها عالقة بقلبي، وكلّما دنوت من غاية المأساة تضاعفت آلامي لكن، لنعُد إلى حديث قدومي: كانت الساعة قد ناهزت الخامسة، وانطلقت العربة مسرعة في السير، واستيقظ المركيز من نومه، فأشار إلى مياه بحيرة «ايدات» الصغيرة التي أكسَبَها غروب الشمس لوناً ورديا. وهناك القصر الضخم الفخم المشيَّد على الطراز الحديث، ذو اللون الأبيض والأبراج العالية. وها نحن أولاء في الطريق المزدان بالأشجار، المفضي إلى القصر، ثم لا نلبث أن نكون أمام بابه، ثم نغشى البهو، فننفذ إلى قاعة الاستقبال. ولَشَدّ ما كانت قاعة الاستقبال هادئة، ترفرف عليها أجنحة السكينة، وقد أضيئت بالمصابيح الكبيرة، واضطرمت نيران التدفئة في الموقد! وكانت المركيزة «دي جوسات» مشتغلة مع ابنتها في إعداد الثياب للفقراء، وكان تلميذي، في المستقبل، واقفاً أمام «البيان» ينظر في كتاب مزيَّن بالصور. وكانت مربِّية الآنسة «شارلوت» مع امرأة متديِّنة، جالستين بعيداً،

تشتغلان بالحياكة. وكان الكونت «أندريه» يتصفَّح جريدة، ألقاها لدى قدومنا. أجل، لشدَّ ما كانت قاعة الاستقبال هادئة ساكنة! ومن الذي كان بوسعه أن ينبئني بأن مقدمي سيؤذن بوضع حَدّ لسلام هؤلاء الناس الذين يتراءون، الساعة، أمام ناظريّ كأنهم صور حيّة ناطقة؟ وإني لأتمثَّل وجه المركيزة، تلك المرأة الطويلة القامة، المكتنزة اللحم، ذات الملامح الجهمة، وهي صورة تغاير، تمام المغايرة، ما ارتسم في مخيِّلتي عن عقيلة من كريمات العقائل. ولقد بدت لي- كما حدَّثني المركيز- المثل الأعلى لربّة البيت، لكنها ربّة بيت ناضجة التربية، وما لبثت أن خاطبتني بشأن اليوم البديع الذي قضينا فيه رحلتنا، حتى هدَّأت روعي، وألقت السكينة في قلبي. ولكأني، الآن، أشهد محيّا الآنسة «إليزا لرجكس» المربِّية، وقد انطبعت على شفتيها ابتسامة تضيء جوانب سحابة الكآبة التي تُظِلّ وجهها. وإني لأرى الأخت «انكليه»، بوجهها الريفي، وفمها الدقيق، وكانت تقيم دائماً في القصر، لتكون ممرِّضة المركيز الذي يخشى، أبداً، هجوم المرض. وإني لأرى «لوسيان» الصغير، بوجهه الذي ينمّ عن الجنوح إلى الكسل، وأتمثَّل تلك التي لم يبقَ منها إلّا ذكراها. نعم، أتمثَّلها غادة هيفاء، في ثوبها الأنيق، وعينيها النجلاوين اللتين تفيضان حناناً ورحمة، وشعرها الكستنائي، ومحيّاها الوضاح، ويدها الغضّة التي قدَّمت، لأبيها ولي، قدحَيْن من الشاي، يدفعان عنا عادي البرد. ولكأني أسمع صوتها وهي تقول للمركيز:

أرأيت- يا أبتي- كيف خلع الشفق على البحيرة الصغيرة ثوباً ورديا؟

وإني لأسمع صوت المسيو «دي جوسات» يجيب، وهو يتناول الشاي:

«لقد شهدت ضباباً كثيفاً يكتنف الحقول، وبرداً يملأ الجو».

وإني لأسمع صوت الكونت «أندريه» يشترك في الحديث:

«نعم. لكن، ما أجمل الصيد غداً..!» - ثم يلتفت إليَّ ويقول: «أتصطاد يا مسيو «جرسلو؟»، فأجبته: «كلّا، يا سيِّدي»، فسألني ثانيةً: «أتركب الخيل؟»

- «ولا هذا».

فتضاحك، ثم قال: «إني لأرثي لحالك؛ فالصيد والخيل، هما، بعد الحرب، السلوتان اللتان أتعشَّقهما من كلّ قلبي».

ولا يدلّ هذا الحوار على شيء، بل لا يكشف لك عن الباعث الذي يعثني على أن أعدّ «أندريه دي جوسات» مخلوقاً على غير شاكلة الذين عرفتهم جميعاً. وما لبثت أن صعدت إلى غرفني، حيث اشتغل أحد الخدم بفتح حقيبتي، حتى اتَّجه فكري إليه أكثر ممّا اتَّجه إلى أخته الرائعة. ولمّا جلسنا إلى المائدة لتناول العشاء، وفي أثناء قضاء وقت السهر، لم تكن مشاهداتي تنصبّ إلّا عليه، على أن دهشتي حيال ذاك الرجل المملوء رجولة، الفيّاض عزّةً وكبرياءً، إنّما كانت تنبعث من واقعة بسيطة؛ فلقد شببت، وترعرعت في بيئة عقلية بحتة، لا تقدير فيها لغير العقل. وكان لداتي في المدرسة، والذين هم في طليعة المتفوِّقين، ضعاف البنية، نحاف الأجسام مثلي، فما كانوا يتنزَّلون لأن يعيروا أيّ التفات لأولئك المعتزّين بقوَّتهم البدنية، التي يتَّخذونها ذريعة للأعمال الوحشية. وكان أساتذتي، الذين أوثرهم بحبّي وتقديري، وصحاب أبي، ممتازين بالقوّة العقلية لا

الجسمانية. وكنت كلّما تمثَّلت أبطال الروايات والقصص، تمثَّلتهم أقوياء العقول لا الأبدان. وكان الكونت «أندريه»، وقد جاوز الثلاثين من عمره، يمثِّل التفوُّق البدني. صوِّر لنفسك ربعةً من الرجال، شديد الأسْر، متين العضلات، مفتول الساعدين عريض المنكبين، ذا حركات تشفّ عن القوّة والمرونة معاً، ووجه يتدفَّق الدم في جوانبه، وجبهة عالية تكسوها شعور سوداء، وشارب في لون شعر الرأس، فوق شفتين مطبقتين ثابتتين، دليل الإرادة الحديدية، وآية العزمة الجبارة، وعينين سوداوين، وأنف أقنى، كلّ أولئك يخلع على صاحبه صورة الطير الجارح. ولو تمثّلت الإرادة لكانت ذاك الرجل؛ فهو الحركة مجسَّمة، وإنه ليبدو كأن هذا الضابط الذي وقف حياته على التمرينات البدنية، وأصبح على تمام الأهبة لكافّة أعمال البسالة والإقدام، لم يختلّ التوازن فيه بين التفكير والإقدام؛ فهو إذا اعتزم أمراً لم يتردّد، ولم يتراجع.

ولقد رأيته يمتطي صهوة جواده، فيأتي بالعجب العجاب، ويضع ورقة من أوراق اللعب على حائط، ثم يقف بعيداً عنها ثلاثين خطوة، ويحشو مسدَّسه بالرصاص، فيصيب الهدف بعشر رصاصات متتالية، ورأيته يقفز على الحواجز كما يصنع الرياضي المحترف، ويثب فوق المائدة غير معتمد إلّا على يديه.

ولقد علمت أنه في أثناء الحرب، ولم يكن قد بلغ السابعة عشرةمن عمره، التحق بالخدمة العسكرية، واندمج في صفوف الجيش المحارب، وخاض غمرات الحرب، وقاسى أهوالها، وكان يبثّ الشجاعة في قلوب الجند المدرَّبين.

وإنه ليكفيني أن أتعرَّفه، في تلك الليلة الأولى، وقت تناول العشاء، يأخذ طعامه في سكون، ويأكل بشهيّة، شأن من تفيض الحياة في جسمه شديدةً قويّة.

وكان صموتاً قليل الكلام، وإذا تكلَّم، فبذلك الصوت المليء، الدالّ على الحيوية والرجولة، وبتلك اللهجة الثابتة الرزينة الدالّة على تعوُّد صاحبها الأمر، وألفته الطاعة، فآمنت أني حيال إنسان، يختلف عني، لكنه، في طرازه، قد شارف الكمال، ودنا من الغاية. ولا أنسى ليلة رأيت المركيز يبدأ لعب الورق مع ابنته، بعد الفراغ من تناول طعام العشاء، وأنا أتحدَّث إلى المركيزة، وأنظر خلسة إلى الكونت «أندريه»، وهو يلعب «البليارد» وحده. وما راعني إلّا أن أرى جسماً مرناً قويّاً، وشابّاً قد وضع «سيجاراً» في جانب فمه، يدفع الكرات بمهارة تبعث على الإعجاب. فكنت- وأنا تلميذك الذي يعتزّ بفكرته- أتتبَّع، فاغر الفم مشدوهاً، حركات هذا الشابّ، وهو مقبل على هذا النوع من الرياضة، وقد فاضت نفسي إعجاباً، يشوبه الحسد، فكان شعوري إزاءه شعور الراهب المتأدِّب الذي يجهل الرياضة البدنية، إزاء فارس في القرون الوسطى شاكي السلاح، يختال في درعه.

وإني، حين أقول الحسد، أتوسَّل إليك أن تفهمني، فلا تعزو إليَّ دناءةً برئت منها طوال حياتي. فما حسدت، لا في تلك الليلة، ولا فيما تلاها، الكونت «أندريه» على لقبه أو ثرائه أو مزية من تلك المزايا الاجتماعية التي توافرت لديه، بينا أنا محروم منها. وما شعرت حياله بذاك الحقد الذي ينطوي عليه الرجل للرجل، كما جلوت هذا الشعور في الصفحات الرائعة التي أنشأتها عن الحبّ. فلقد كانت أمّي تدلِّلني، وأنا طفل صغير، فتملأ سمعي بأني وضّاء المحيّا، وتبرع لي بتلك الشهادة نسوةٌ سواها، وما كنت

أُخدع عن نفسي، وأن رأيت أن ليس في ملامح وجهي ما ينبو النظر عنه. وأصارحك بذلك، لا بدافع العجب والخيلاء، لكن لأدلَّك على أن الخيلاء لم تكن مثار ذاك التنافس الذي جعل مني، منذ الساعة الأولى، خصماً، بل عدّواً لدوداً للكونت «أندريه»، دون أن يشعر هو بتلك الخصومة، أو ذاك العداء. وأكرِّر أن ذلك التنافس كان يمازجه الإعجاب والكراهية معاً.

وكلّما أمعنت في التفكير بدا لي أن الشعور الذي أحاول أن أرسّه لك إنما هو ميراث خلَّفه لي الماضي، فانحدر في نفسي، وقَرَّ في أعماق العقل الباطن. فلقد بدا لي أن أسائل المركيز (وكنت أعلم أن تسآلي يداعب كبرياء النبلاء في نفسه) عن محتد أسرة «جوسات راندون»، فتجلّى لي أنهم من سلالة أقوام غزاة فاتحين، على حين أن الدم الجاري في عروق هذا الذي انحدر من أصل لوريني، ومن سلالة مزارعين، والذي يخطّ لك تلك السطور، إنما هو دم قوم مغلوب على أمرهم. أجل، هو دم الأجداد الذين عاشوا تحت أثقال الاستعباد، واحتملوا نير الاستبداد طوال دهور، ثم سرى إلى الأحفاد. حقّاً أن الفارق بين عقلي وعقل الكونت «أندريه» لهو كالفارق بيني وبينك، يا أستاذي العزيز، لا بل إن الفارق أبعد؛ فأنا أستطيع أن أفهمك. وأتحدّاه أن يفهم طرفاً من تدليلي، لا بل أن يفهم شيئاً من هذا التدليل المنطقي الذي أسوقه، الآن، عن منشأ العلاقات بيننا. ولو آثرت الصراحة لما قلت إلّا أنني أنا متحضِّر، وهو متبربر.

ولعلّ منشأ خصومتنا هي الوراثة لا الحسد؛ فالأخلاق لا تتكوَّن إلّا على مدى الأجيال. ولقد كان كلّ شيء يحفر بيني وبين الكونت «أندريه» هوّة عميقة مظلمة، على أنه ما كان يحفل بي إلّا كما يحفل نبيل من النبلاء بشابّ التحق بوظيفة مدرِّس في أسرته.

وطلب الكونت أن أتوجَّه إلى مكتبه لنتحدَّث قليلاً، فلم يأبه لشأني، وتبيَّنت في الحال، أن الغاية التي يرمي إليها ليست توثيق الروابط بيننا، بل هي أن يدلي إليَّ بآرائه الخاصّة في مهمَّتي، بوصفي مدرِّساً. وقد اتَّخذ لمسكنه جناحاً، في القصر، مؤلَّفاً من حجرة للنوم، وأخرى للزينة، وثالثة للاستقبال، فيها مقعد مستطيل، وبضعة كراسي، ومكتب كبير. فأمّا الحوائط فقد ازدانت بالأسلحة من كلّ طراز: فهذه بنادق مراكشية، قد جيء بها من طنجة، وتلك سيوف وطبنجات من عهد الإمبراطورية الأولى. وما إن دخلنا الغرفة حتى لفت الكونت نظري إلى خوذة جنديّ بروسي، ثم أشعل غليونه، وتناول المصباح، وألقى الضوء على طرف الخوذة النحاسي، وهو يقول لي: «إني لعلى ثقة بأني قد جندلت صاحب تلك الخوذة، وأنك لا تستطيع أن تقدِّر مبلغ شعور الغبطة حين يصوِّب الجندي بندقيَّته إلى عدوه، ويسدِّد إليه الرماية، فيخرّ صريعاً، ثم يهتف من أعماق قلبه: «لقد نقص عدد الأعداء واحداً. كان ذلك في قرية لا تبعد كثيراً عن مدينة «أورليان»... وكنت أقوم بالحراسة، على طرف من زاوية المقبرة، وأشرفت على الحائط، فلمحت رأساً يمرّ، وينظر، ثم تمثَّلت شبحاً يبدو. وأكبر ظنّي أن جنديّاً ساقه الفضول، فأقبل يتجسَّس عمّا نصنع.. وما أحسبه يرجع ليقصّ ما قد رأى».

ثم وضع الكونت المصباح، وبعد أن ضحك لتلك الذكرى ملء فمه، عاود وجهه مظهر الخطورة والجدّ. ولقد اعتقدت أن الواجب يقضي، من ناحية الأدب واللياقة، أن أتناول جرعة من كأس، تفضَّلَ الكونت بتقديمه إليّ، فيه مزيج من الكحول والمياه الغازية، كرهَتْه نفسي، وتقزَّزت منه.

وقال الكونت: «لقد حرصت- يا سيِّدي- على أن أخاطبك منذ هذا المساء،

لأكشف لك عن خلق «لوسيان»، وأدلَّك على الوجهة التي بنيغي أن توجِّهه إليها؛ فلقد كان المدرِّس الذي تحلّ اليوم محلَّه، رجلاً طيِّب القلب، على أنه كان ضعيفاً متراخياً. ولقد أيَّدت ترشيحك لأنك شابّ، والشاب أصلح لأداء المهمّة التي تُناط به إزاء «لوسيان».. فالتعليم- يا سيِّدي- ليس شيئاً في نظري، بل قد يكون، في بعض الأحيان، أسوأ من اللّاشيء، إذا كان يفسد الأفكار.. إن أعظم شيء في هذه الحياة، لا بل إن الشيء الوحيد، هو الخلق...».

ثم وقف عن الكلام، وكأنما كان يسألني رأيي، فأجبته بعبارة مبتذلة، ولكنها عزَّزت وجهة نظره.

فمضى يقول: «حسن جداً. لقد تفاهمنا. إنك لا ترى، في الوقت الحاضر، في فرنسا، قوماً مثلنا؛ يؤثرون الجندية على كلّ صناعة أخرى. وطالما كانت فرنسا، في الداخل، بين أيدي الأوغاد والأنذال، وكان حقّاً علينا، في الخارج، أن نهزم ألمانيا، فلم يبقَ لنا إلّا مكان واحد يليق بنا، هو الجيش... وإني أحمد الله على أن أبي وأمّي يشاطراني تلك الآراء. وسيكون لوسيان جنديّاً، والجنديّ ليس بحاجة إلى علم واسع غزير، مهما يبدئ أبناء اليوم ويعيدون.. فإذا توافر له الشرف، وثبات الجنان، ورباطة الجأش، وقوّة العضلات، وتوِّج كلّ أولئك بحبّ فرنسا العميق، كان خير جندي يستبسل في الدفاع عن وطنه، ويلذّ له الاستشهاد في سبيل بلاده، ولقد عانيت، أنا، كلّ تعب، واحتملت كلّ عناء في سبيل الحصول على شهادة الدراسة الثانوية.. أريد أن أقول لك، إن هذا العام الذي يقضية «لوسيان» في الريف، ينبغي أن يكون عام الرياضة في الهواء الطلق، واستنشاق النسيم، وعليك أن تروِّضه على أن يخشوشن في حياته، على أن تكون الدراسة مقصورة

على مجرَّد المحادثة. وإني ألفت نظرك، بنوع خاصّ، إلى أحاديثك معه، فالواجب عليك أن تراعي الجانب العمليّ في الأشياء، وأن تشيد بذكرى المبادئ، كما أن فيه بعض العيوب التي يجب أن تدرأها من الآن.

ستراه طيِّب القلب، ولكنه رخو، فينبغي أن تروِّضه على احتمال المصاعب. حَتِّم عليه أن يخرج كلّ يوم، وأن يمشي ساعتين أو ثلاثاً، وهو لا يضبط مواعيده، فأكبر همّي أن يصبح في مثل دقّة «الكرونومتر». وتراه يرتجل الكذب ارتجالاً، وعندي أن الكذب هو أقبح الرذائل جميعاً. إني لأغتفر كلّ شيء يأتيه الإنسان، حتى الحماقات، فأنا نفسي قد ارتكبتها، على أني لا أغتفر فِريةً، على الإطلاق. لقد بلَغَتْنا- يا سيِّدي- عن طريق أستاذ والدي القديم، معلومات قيّمة عنك، وعن حياتك لدى السيِّدة والدتك، وعن كرامتك واستقامتك، حتى أنّا لنعوِّل على أثرك الطيِّب، وأن عمرك ليسمح لك بأن تكون، من «لوسيان»، في مركز الزميل والمعلّم معاً. والقدوة الصالحة، والأسوة الحسنة، هما خير وسائل التعليم جميعاً. قلْ للجندي إن من الشرف أن تستقبل الموت، فيصغي إليك دون أن يفهمك. لكن، سِرْ أمامه مستبسلاً ترهُ أعظم منك استبسالاً. أمّا أنا فعمّا قريب سألتحق بفرقتي، وسواء أكنت غائباً أم كنت حاضراً، فإنك تستطيع أن تعولِّ على معاضدتي، في كلِّ ما يجعل هذا الغلام رجلاً يتفانى في خدمة وطنه ومليكه، إذا قُدِّر للملكية أن تعود.

ولم يكن في تلك المحاضرة، التي نقلت إليك صورة صادقة منها، ما يدهنشي. فمن الطبيعي أن بيتاً يضمّ أباً شيخاً مختلّ الشعور، وأمّاً لا تصلح إلّا لإدارة شؤونه، وبنتاً شابّة ذات حياء وخفر، تكون دفّة القيادة بيد الابن البكر، فيخاطب المدرِّس، يوم مقدمه، بمثل تلك اللهجة التي

خاطبه بها. وكان طبيعياً أن جنديانبيلاً، نبت في بيئة النبلاء، فاعتنق مذاهبها، وشبَّ وسط الجندية، فتشبَّع بآرائها، يخاطبني في لهجة الجندي النبيل. وإنك- يا أستاذي العزيز- بما فيك من قدرة على الإحاطة بالطبائع البشرية، وبما أوتيت من قوّة على ترتيب النتائج على المقدِّمات، وربط المسببات بالأسباب، واستخلاص الرابطة المحتومة بين المزاج والبيئة من جانب، والتكوين العقلي من جانب آخر، خَلَيق أن ترى في الكونت «أندريه» شخصية تسترعي الأنظار.

وفيمَ كان إعدادي لكراستي إن لم يكن لجمع الوثائق التي من هذا الطراز، عن الطبيعة البشرية؟ والآن، آمنت بأن فلسفتي لا تجري مجرى الدم في عروقي، والنخاع في عظامي، فإن تلك المحاضرة التي تلتئم والمنطقَ، وتتمشّى وطبائعَ الأشياء، بدل أن تُدخل السرور على قلبي، قد نكأت جرح الكراهية في صدري؛ إذ شعرت بعزّة نفسي المهيضة، وكرامتي الجريحة، وأحسست أني الضعيف المهزول، أمام القويّ القادر. حقّاً، لم أُقِمْ وزناً لأيّة فكرة أدلى بها الكونت. فلقد كانت آراؤه كلّها، في اعتباري، حماقات. وبدل أن أزدري تلك الحماقات، وأوليها الإغفال- شأني بها في أيّ موقف آخر- أحسست بمقتي إيّاها وهي تنحدر من فمه. فأمّا عن صناعة الجنديّة التي تَغَنّى بذكرها فهي، عندي، أتعس الصناعات جميعاً؛ لما فيها من وحشيّة وضياع للوقت، ولشدّ ما اغتبطت لأني كنت ولداً لأرملة معفى من بربرية الثكنات، وبَأْساء النظام العسكري. أمّا بغض ألمانيا، فقد آليت أن أستلّه من صدري، واستأصل شأفته من قلبي، مدفوعاً بالاعتقاد أنه وهم من أسوأ الأوهام، مسوقاً، في ذلك، بالتقزُّز من رفاقي الذين كنت أراهم يندفعون في طريق الوطنية الحمقاء، وإعجاباً، بل تقدسياً لشعب أنجب

«كنت» و«شوبنهور» و«لوتز» و«فجنر» و«هلمهولتز» و«فوندت». أمّا عن العقيدة السياسية، فإني لأشعر في قلبي الاحتقار لكافّة الفروض التي يُلبِسها أصحابها، تارةً ثوب الشرعية، وتارةً أخرى الجماهير، وأخرى رداء القيصرية، زاعمين أن في وسعهم أن يرتجلوا النظم السياسية للشعوب ارتجالاً. ولكم كنت أشاطر صاحب «المحاورات الفلسفية» أحلامه في وجوب أن يكون، على رأس الشعب، طائفة من الحكماء، وأن يستبدّ بالأمر فيه فريق من علماء النفس، والاقتصاد، ووظائف الأعضاء، والتاريخ. أمّا عن الحياة العملية فما كانت، في اعتباري، يوماً، إلّا الحياة المنتقصة، فقد كنت أَعدّ العالم الخارجي مجرَّد ميدان، تنشط فيه الروح الطليقة لإجراء التجارب، واستجماع الانفعالات. أمّا ازدراء محدِّثي الكذب فقد عددته إهانةً لحقت بي، على حين قد أحرجتني، وكدَّرتني تلك الثقة بخلقي، المرتكزة على صورة ليست صورتي في شيء. فالحقّ أن التناقض كان صارخاً لذّاعاً؛ فلقد عددت نفسي على مثال الصورة التي رسمها لي صديق أبي القديم، وكان، من دون غبطتي، أن يحسبني الناس على ذاك المثال، وقد ثارت ثائرتي حين رأيت الكونت «أندريه» لا يأخذ حذره مني.

وإذا كنت قد أسهبت في الكلام عن الليلة التي أعقبت قدومي إلى القصر فليس لأنها كانت ذات نتائج مباشرة، فقد خرجت بعد أن أكَّدت للكونت «أندريه» أن وجهة نظري، بشأن توجيه أخيه الصغير، تطابق وجهة نظره، ثم صعدت إلى غرفتي فأخذت بتسجيل تلك الأقوال في كرّاستي، التي أعددتها من قبل، معقِّباً عليها تعقيباً يشفّ عن الزراية والاحتقار.

ولقد تردَّدت إلى ذاك الشابّ الذي يكبرني بتسع سنوات أو عشر، طوال خمسة عشر يوماً، فزاد يقيني بسموّي عليه. وما كنت أوثر أن أكون

الكونت «أندريه»، بلقبه، وثرائه، وتفوُّقه الجسماني، وأفكاره، ولو أعطيت ثمناً لذلك، إمبراطورية عظمى.

ولقد وضعت الأقدار في طريقي فتاة، تملأ العين جمالاً، فكان من الطبيعي لشابّ، في مثل سنّي، أن يسعى لأن يروق في عينها. على أني كنت متوفِّراً على الدراسات العقلية، فما كان يمكن أن تجوز تلك الرغبة في قلبي، قبل أن تجوز في عقلي. وإذا كنت قد خضعت لجمال تلك الفتاة، فقد خيِّل إليَّ أن مبعث خضوعي هو العقل لا الشعور. وأني كنت أناجي نفسي فأقول: «لقد شغفتني «شارلوت» حبّاً، لأنها كانت بارعة الجمال، سامية الشعور، نبيلة العواطف، ولأني كنت شابّاً. وإذا رحت أنقِّب عمّا أبرِّر به ذاك الحبّ، فما ذاك إلّا لأني كنت معتزّاً بأفكاري، بحيث كنت أكبر من أن أحبّ على الصورة التي يحبّ بها غيري من الناس». ولكم كانت تلك المناجاة تروِّح عن قلبي!.

وإني لأرثي لنفسي، بدل أن أنظر إليها نظرة التقزُّز والاشمئزاز، كلّما ذكرت أن الفكرة اختمرت في رأسي، وطفرت من رأسي إلى كرّاستي، ثم وثبت من كرّاستي إلى دائرة التنفيذ العملي في ظلام الحوادث. واأسفاه! أجل، لقد نبتت الفكرة، ثم أزمعتُ تنفيذها، بدم بارد، وضمير جامد! وأيّة فكرة؟ أن أخدع تلك الفترة عن عفافها، دون أن أتورَّط في حبِّها؛ لأشبع طلعة العالم النفساني، ولمجرَّد اللهو واللعب، ولمحض العبث بنفس حَيّة، ولأدرس العواطف في عالم الحقائق، بعد أن درستها بين عالم الكتب، بل لأضيف، إلى ثروتي العقلية، تجربة جديدة.

نعم، ذلك ما أردت، وماكان في وسعي إلّا أن أريده، فقد كانت وراثتي

تدفعني في طريقه دفعاً، وتربيتي تسوقني إليه سوقاً، أضف، إلى ذلك كلِّه، انتقالي إلى تلك البيئة الجديدة التي قذفت بي إليها الاقدار، والخصومة المشبوبة النيران، بيني وبين أخيها الكونت «أندريه».

وكم كان خليقاً بتلك الفتاة؛ مثال الطهر والعفاف، أن تلقى فتى غيري، فما أنا إلّا أداة تفكير عقليّ، لا ينبض فيها حسّ، ولا يهتزّ فيها شعور، ولا تخفق عاطفة، وإني كلّما ذكرت ذلك، تمزَّقت نياط قلبي، أنا الذي وددت، دائماً، أن يكون في مثل جفوة الطبيب، ودقّة تشخيصه. حقاً، لقد لاحظت، لأوَّل ليلة رأيتها فيها، أنها لم تكن المثل الأعلى في الجمال. على أنها كانت حلوة الملامح، رشيقة الحركة، لا تكاد تراها حتى تشعر بحالتها العصبية. نعم، لقد كانت «شارلوت» مثال الشعور والحساسية حتى لتتجلّى تلك الحساسية في هزّة يديها وشفتيها؛ شفتيها اللتين تفيضان نوراً سماوياً، وكان وجهها يشفّ عن قوّة الإرادة، ونظراتها تنمّ عن «الفكرة الثابتة».

ولقد لمستُ بنفسي طيبة قلبها، وكان الفضل في ذلك راجعاً إلى «لوسيان» الصغير؛ فقد روى لي أنها رجته، غير مرّة، أن يسالني عمّا إذا كان يعوزني شيء في غرفتي. ولهذا- وإن بدا بسيطاً- بالغ الأثر في نفسي، فلقد كنت أشعر بالوحدة، في ذلك البيت الذي لم يُعِرني أحد فيه التفاتاً؛ فما كنت ألمح المركيز إلّا وقت تناول طعام الغداء، متدثِّراً بثوبه، يخوض حديث صحَّته، وحديث السياسة معاً. وكانت المركيزة مَعْنِيّة بتوفير أسباب الراحة له في القصر، وكان لها حديث ضافي الذيول والأذناب مع تاجر سجّاد قَدِم من «كلير مونت». أما الكونت «أندريه» فكان يمتطي صهوة جواده في الصباح، ويخرج للصيد بعد الظهر، فإذا أقبل الليل أخذ يدخِّن «سيجارة»، دون أن يلقي إليَّ بالاً، أو يوجِّه إلى خطاباً. أمّا المربِّية والمتديِّنة،

فقد كانتا تنظران إليَّ نظرات مريبة، وكان تلميذي كسولاً متخلِّف الذهن، ولم تكن له من فضيلة، إلّا أنه ساذج، يسترسل في ثقته بي، فيفضي إليَّ بكل ما أريد أن أعلمه، عن نفسه وعن ذوي قرباه. وما لبثت أن تبيَّنت منه أن إرادة الكونت «أندريه» كانت الباعث على إقامة الأسرة في ربوع الريف، هذا العام، ولم يكن الأمر مثاراً لدهشتي، إذ أحسست- لأوَّل وهلة- أن الكونت أصبح رأس العائلة، وصاحب الأمر والنهي فيها. ولقد علمت أنه شاء، في العام الماضي، أن يزوِّج أخته من أحد رفاقه، واسمه المسيو «دي بلان»، فأبت «شارلوت»، وسافر هو إلى «تونكين». ولقد علمت.. لكن، ما جدوى هذه التفصيلات؟ وفي حصَّتَي التدريس اليوميَّتَيْن، كنت ألقى كلّ عناء لأحمله على الالتفات. فإذا جلس على كرسيه، في مواجهتي، إلى الجانب الآخر من المكتب، ينظر إليَّ، وهو يسوِّد الصفحات بخطّه السيِّئ الرديء، وكان يتبيَّن في وجهي كلّ أثر للذهول. وما لبث أن شعر، بفطرته، أنه كلَّما حدَّثني حديث أخيه أو أخته ملتُ به عن الدرس. وما لبثت أن تبيَّنت، من ذاك الفم البريء، أن البيت الذي أحيا فيه غريباً، يضمّ جوانحه على إنسانة تُعنى بسعادتي، وتفكِّر في أمري. ولقد كنت أشعر بالحاجة إلى أمّي، وإن غالبت ذاك الشعور في نفسي، وأكبر ظنّي أن الحاجة إلى العطف والحنان هي التي استرعت انتباهي إلى الآنسة «شارلوت».

ولقد تكشَّفت لي، فوق طيبة قلبها، عن تعشُّقها للخيال. ولم يكن مبعث ذلك الشعور قراءة الروايات، بل كان وليد حساسيّة مرهفة. وكانت، في ذلك، على النقيض من أبيها وأمّها وأخوَيْها. وما إن تبيَّنت طبيعتهم، حتى نالها ألم ممضّ. وما كانت تظهر لهم، بل ما كانت تراهم إلّا لماماً. وكان رأيها فيمن أحبَّتهم صادراً عن وحي قلبها، وإذا رأيتها حسبتها

زائفة الشعور أو أليفة مَلَق ورياء. قالت، يوماً، لأمِّها، وهي المادّيّة العادية التفكير: «ما أرقّ عاطفتك، يا أمّي..» وقالت، يوماً، لأبيها وهو مثال الأنانية البالغة: «ما أطيب قلبك يا أبي..» وقالت يوماً لأخيها وهو من عرفت: «إنك لتدرك كلَّ شيء، يا أخي..»، معتقدةً بما تقول، إلّا أن ذاك الوهم الذي كانت تضطرب في سجنه تلك المخلوقة المتَّقدة ذكاءً، الفيَّاضة رحمةً وحناناً، قد جعلها فريسةً للعزلة الأدبية المطلقة، محرومة من توافق الأخلاق، إلى درجة تُؤذِن بأفدح الأخطار. لقد كانت تجهل نفسها، كما تجهل سواها. وآذنت تلك الزهرة بالذبول وهي في إبان نضارتها، إذ فقدت من يتَّفق وإيّاها في الشعور. فلقد أحسست- أوَّل مرّة خرجنا فيها معاً للرياضة- أنها هي وحدها التي تشعر، حقيقةً، بجمال الريف وروعته، بربوعه الجميلة، وتلك البحيرة الصغيرة، وما يحيط بها من غابات، والبراكين النائية، وسماء الخريف البديعة الرائعة. وما إن راعها جمال الطبيعة حتى ألقت بنفسها في ثنايا صمت عميق، حتى يخيّل إليك أنها فنيت في بهجة الوجود؛ فقد كانت لها خاصّة الشعراء، والعاشقات، تفنى فيما يمسّ قلبها، ويهزّ عواطفها، سواء أكان الأفق الذي تكسوه السحب، أم كانت الغابة الصامتة الذابلة الأوراق، أم القطعة الموسيقية التي توقِّعها مربِّيتها على أوتار «البيان»، أم القصة المؤثِّرة التي تُروى أمامها. لمست التباين بين الكونت الذي لم يُخلق إلّا لخوض غمرات الحرب، وتلك الإنسانة التي جُبِلت حناناً ورحمةً، تنطبع على شفتيها ابتسامة جمعت بين الترحيب والحياء والخفر.

سأفضي إليك بالحقيقة كاملةً، لأني ما كتبت لأرسم لنفسي صورة خدّاعة، بل لأصوِّرها حقيقةً ماثلة، وما بي من حاجة لأن أؤكِّد أن الرغبة في حمل

تلك الإنسانة الرائعة على حبّي، بعد أن بتّ أشعر بالغبطة كلَّما أظلَّتني وإيّاها سماء، كان مبعثها التباين بينها وبين أخيها. ولربَّما باتت نفس تلك الفتاة ميدان قتال بيني وبين أخيها، تشبّ فيه حرب الكراهية التي أحالتها الأيام حقداً متأجِّجاً. نعم، ربَّما انطوت، تحت رغبتي في الإغراء، الشهوة الجامحة في إذلال كبرياء هذا الجنديّ، هذا النبيل، بأن أجرحه في أعزّ ما لديه في هذا العالم. حقاً، إني لأومن، بيني وبين نفسي- يا أستاذي العزيز- بأن ذلك الذي أفضي به إليك، بشع شنيع، لكني لا أكون تلميذك إن لم أعطك تلك الوثيقة التي تعرف بها دخيلة قلبي. أمّا بعد، فلن تكون تلك الصورة البغيضة إلّا ظاهرة لابدّ منها، كغيرها من الظواهر، كروعة «شارلوت»، وهمّة أخيها، ونفسيَّتي الغامضة التي دقّ فهمها حتى عليَّ، وتحجَّر ظلامها حتى في عينيَّ.

الأزمة النفسية الأولى

ما زلت أذكر جيِّداً ذلك اليوم الذي اختمرت فيه، برأسي، فكرة إغراء أخت الكونت «أندريه»، وخداعها من عفافها، لا كرواية خيالية، بل كحقيقة واقعة. فبعد أن أقمت بالقصر شهرَيْن متعاقبَيْن، عدت إلى والدتي أقضي فترة العيد، وما رجعت من «كلير مونت» إلّا بعد أسبوع، وكان الثلج قد تساقط يومَيْن كاملَيْن. ولا شكَّ في أن برد الشتاء، في جبالنا، قارس، وليس أدلّ على جنون مسيو «ي جوسات»، من إصراره على الإقامة في ربوعها، واحتمال العيش في تلك الأرض المقفرة التي تجتاحها العواصف الثلجية، بين آونة وأخرى. وحقاً أن المركيزة كانت تحرص على توفير أسباب الراحة في البيت، مع القصد في النفقات اليومية. ومهما كان ذاك الشتاء شديد الزمهرير، فقد كانت تقضي فيه أوقاتاً مشرقة، فإذا كان النهار مكفهرّاً أقبل المساء والسماء صافية الأديم، والربوع تتلألأ بأضواء السماء. وقد كان يوماً عبوساً قمطريراً يوم عقدت العزم على أن أخدع «شارلوت» عن عفّتها.

وكأني أرى البحيرة، الآن، وقد كسا الثلج وجهها، وتحت طيّاته تنساب مياهها، في هوادة ورفق. وكأني أرى قمم الجبال متوَّجة بالثلوج، وأشجار الغابة وقد اجتمع لها لون الثلج وأديم السما، وإن الذكريات لتثور في نفسي، هي من تلك الذكريات التي تنحدر في أعماق النفس، ثم تهجع حتى توقظها الحادثات. وكأني أرى القطيع يسوقه الراعي، يتبعه كلبه. نعم، لكأني أرى تلك الربوع جميعاً، والأشخاص الأربعة الذين كانوا يتريَّضون في الطريق المفضي إلى «فونترید»، وأولئك هم: الآنسة «لارجكس»، والآنسة «شارلوت»، وتلميذي، وأنا نفسي. وكانت الآنسة شارلوت، في ثيابها وفرائها، تملأ العين روعةً وجمالاً، وقد بدا عليها كأنها نشوى بذاك النسيم، بعد طول احتجابها في القصر. وما لبثت أن تورَّد خدّاها، وكانت قدماها تغوصان في الثلج، فلا تكاد تترك أثراً، وأبرقت أسارير وجهها حين شهدت جمال الطبيعة، وتهلَّلت بشراً حين رأت روعة الكون، وتلك ميزة، اختصَّت بها القلوب الساذجة الغضّة التي لم يَعْرُها الجفاف والتحجُّر، من جرّاء الاشتغال بالدليل المنطقي، والنظريّات المجرَّدة، والمطالعات الدائمة. وكنت أسير إلى جانبها، وهي تسرع الخطى، فما لبثنا أن تجاوزنا الآنسة «لارجكس» التي كانت تسير الهوينى. أمّا الغلام فكان، تارةً، يتقدَّمنا، وتارة يتخلَّف عنّا، وأخرى يقف، وأخرى يعدو. وبينا «لوسيان» و«شارلوت» في سرور ومرح، كانت ترتسم على وجهي سحابة من الكآبة، ويحتبس لساني عن الكلام. أكان مبعث ذاك الشعور، هو الحنق الذي يملأ صدر الإنسان، حين يلمح السرور بجانبه، ثم لا يستطيع أن يساهم فيه بنصيب، أم كان ذلك شروعاً في تنفيذ الخطّة المدبَّرة، للسطو في عفافها، بأن ألفت نظرها إليّ، وأُشعرَها بالفارق بين فرحها وترحي؟ ومهما يكن من شيء، فقد لبثْتْ، طوال نزهتنا، ترسل

عبارات الإعجاب بروعة الطبيعة وجمالها، وكأنما كانت تدعوني لأن أشاطرها شعورها، فما كنت أجيبها إلّا بكلمات مقتضبة، وأنا الذي أَلِفَ التحدُّث إليها، أسرف في الحدُّيث، ولا أقتصد. فلمحت سحابة الحزن التي تظلل وجهي. أعادت البصر كرَّتين، وفي فمها سؤال حائر يتردَّد، ثم اكفهرَّ وجهها، بعد أن كان متهلِّلاً، فانحدر مرحها إلى مستوى انقباضي، واستطعت أن ألمح، في صفحة ذاك المحيّا، الطفرة من الشعور بجمال الطبيعة إلى الإحساس بآلامي، وظلَّت تغالب هذا الإحساس حتى غلبها، فسألتني هيّابة مترفِّقة:

«أتشكو ألماً، يا مسيو جرسلو؟»، فقلت لها: «كلّا، يا آنسة»، فعاودت السؤال: «هل أساء إليك أحد؟؛ فإني أراك على غير ما ألفت من عادتك!، فأجبتها: «لم يسىء إليَّ أحد، لكن هناك ما يبعث على الكآبة، فاليوم ذكرى حزني الذي لا أستطيع الإفضاء به..».

نظرت إلي مرّةً أخرى، فلمحتُ في عينيها اضطراب عواطفها، كما تلمح حركة الساعة خلال صندوق من البلّور، وكدت ألمس آثار قلقها حين أحسَّت اضطرابي الذي أذهلها عن جمال الربوع. وإني لأتمثَّلها، الآن، وقد اطمأنت حين علمت أن ليس لي عندها ظلامة. وكأني أراها وقد أمضَّها حزني، فتطلَّعت إلى تعرُّف الأسباب والبواعث، ولكنها لم تجترئ على مواجهتي بالسؤال، واجترأت بتلك الجملة: «معذرة إذا كنت قد سألتك»، ثم لزمت الصمت. وباتت تلك اللحظات القليلة كفيلة بأن تكشف لي عن الحيِّز الذي أشغله من ذهنها، وكان خليقاً بي، حيال ذلك الخلق السامي، والشعور العالي، أن أتوارى خزياً وخجلاً من كذبي، فقد ارتجلت الكذب ارتجالاً، حين زعمت أن ذلك يوم ذكرى حزني العظيم. نعم، لقد تبرَّعت

بالاختلاق تبرُّعاً، ولشَدَّ ماكانت دهشتي كبيرة كلّما ذكرتُ جنوحي إلى اختراع الأكاذيب: فلِمَ صوَّر لي خيالي أن أتبدّى أمامها في مظاهر الألم، التي صيغت من خيال الشعراء، وإلى ثياب الحزن التي حيكت من نسيج الأكاذيب، على حين أن حياتي، بعد موت أبي، كانت راضية مرضيّة؟، وهل كان الغرور هو الذي دفعني لأن أكذب كما يكذب بعض الأطفال، دون باعث أو مصلحة، أم ظننت أن تلك الكآبة المصطنعة، وذلك الحزن المتعمَّل، وذاك المظهر المسرحي، كلّ أولئك كفيل بإحكام الشرك الذي أعددته لاصطياد أخت الكونت «أندريه»؟ لا أقدِّر- على وجه التحديد- البواعث التي كانت تضطرب في نفسي، في أثناء نزهتنا. حقّاً، أنا لم أتبيَّن، تماماً، أثر حزني المصطنع، وكذبي المرتجَل، على أني ما إن شعرت بذاك الأثر حتى اعتزمت المضيّ إلى النهاية، لأرى ماذا تكون خاتمة المهزلة التي بدأت بتمثيلها، في يوم مشرق من أيّام شهر يناير، على مسرح من مسارح البيعة، كان خليقاً بأدوار غير تلكم الأدوار.

لقد شعرت، منذ ذاك الحين، بأني أوحي إلى قلب «شارلوت» بأصدق العواطف وأكرمها؛ فما كانت السياسة النفسية التي أخذت نفسي بتطبيقها إلّا عملاً بغيضاً ممقوتاً، لا يصدر إلّا عن ذهن فتى ناشئ في علم القلب، وما كنت أدري كيف أتزوَّد من شذى تلك الأزهار النابتة في تلك النفس الكريمة.

وما كان عليّ إلّا أن أتذوَّق هاتيك العواطف التي طالما تعطَّشت إليها، ووددت أن أنهل من مواردها العذبة، لأحيا حياة العاطفة التي تتمشّى مع حياتي العقلية. لكني قد أسرفت في التفكير حتى تحجَّر قلبي، وأحببت أن أخضِع نفساً قد رفعت راية التسليم، ولجأت إلى المواربة حيث بنيغي أن

أكون صريحاً، وعمدت إلى الدوران واللفّ، حيث يجب أن أكون بسيطاً. واليوم، قد عَزَّ عليَّ حتى هذا العزاء الرخيص، فلا أستطيع أن أقول لنفسي إني قد وضعت مأساة حياتي عن طواعية واختيار، فرسمت مناظرها، وهيَّأت حوادثها، ورتَّبت سياقها؛ إذ كانت نفسها مسرحاً لتلك المأساة، دون أن أدرك من أمرها كثيراً أو قليلاً؛ تلك المأساة التي قام الموت والحبّ بتمثيل أدوارها، وهما يسخران من فلسفتي. وإنّما أحبَّتني شارلوت لبواعث غير تلك البواعث التي ابتدعتها فلسفتي الفجّة، وقضت بعد أن تملَّكها اليأس، حين تكشَّفَت لها دخيلة نفسي، وفاضت نفسها تقزُّزاً مني، فعلمت أن آرائي لم تهزّ عواطفها، في كثير أو قليل. ولقد حسبت أن ذلك الحبّ لا ينطوي إلّا على مسألة عقلية، فأخطأ حسابي، وأصبحت أمام حبّ يفيض حناناً صادقاً عميقاً، وأنا لا أشعر بروعته. فلماذا كنت أغفل، بالأمس، عمّا يتجلّى لي اليوم؟ لقد كان من الطبيعي أن تخطئ في تقديري فتاة تهيم في بيداء العواطف، وتحلِّق في أجواء الخيال. ولقد أضناني الدرس، حتى بات مظهري يثير العطف، ويبعث الرحمة في قلوب النساء. وكان لتربية أمّي أبلغ الأثر وأعمقه في نفسي؛ فنشأت وديع الطباع، رشيق الإيماءة، حلو الحديث، يحجب تجمُّل شخصي سوء حركاتي. وقُدِّمت للأسرة على أني شاب حرّ النزعة، رضيّ الخلق. فليس عجيباً أن تصبح تلك العوامل مجتمعة مثاراً لاهتمام شابّة نبيلة العواطف، تشعر بالعزلة في البيئة التي تعيش فيها. وما إن لمست فيها ذاك الشعور حتى فكرت في استغلاله. ولو أتيح لأحد أن يراني، في غرفتي، وحيداً طوال الليلة التي أعقبت تلك النزهة، جالساً إلى مكتبي، مقبلاً على الكتابة، وعلى كثب مني مجلَّد ضخم في التحليل النفسي، ما آمنَ أن الذي يراه ليس إلّا فتى لم يكد يبلغ الثانية والعشرين من عمره، وأن ذاك الفتى يطلق لفكره العنان في

سبيل تفهُّم العاطفة التي يودّ أن يبعثها في قلب فتاة بلغت عشرين ربيعاً!

لم تبقَ في القصر عيْن لم يأخذ الكرى بمعاقد أجفانها. وما أحسست إلّا وقع أقدام خادم سعى ليطفئ المصابيح، وكانت الرياح تهبّ على جوانب القصر، ولها شجو الأنين تارةً، وشدو الألحان تارةً أخرى. وكان إرعاد العاصفة وإبراقها يضاعف شعور الوحدة في صدري، والنيران تضطرم في الموقد، في سكون وصمت. وظللت أسطّر في كراستي تاريخ يومي، والخطّة التي دبَّرتها لإخضاع الآنسة «شارلوت» لسلطاني، لكني أسلمت تلك الكراسة للنيران غداة القبض عليّ. ولا أنسى أني نقلت إليها العبارة التي كتبتَها، عن الرحمة، في كتابك «نظرية العواطف»، وهاك العبارة: «إن ظاهرة الرحمة تنطوي على عنصر عضويّ، وهي، لدى النساء، تجاور الانفعال الجنسي...». فتوسَّلت بالرحمة إلى قلب «شارلوت»، وتلمَّست طريق حبِّها من تلك الناحية، وأحببت أن أستغلّ أولى أكاذيبي التي هَزَّت عواطفها، ثم أحيطها بشباك من نسج الأكاذيب، وأن أحملها على حبّي من طريق الرثاء لحالي. ولكم كان ذاك الاستغلال الدنيء لعاطفة كريمة، في سبيل إشباع شهوة الفضول، يتناقض مع الأوهام الشائعة، فلا عجب أن يداعب كبريائي! فبينما كنت أرسم خطّة الإغراء، مدعَّمة بالأسانيد الفلسفية، قدَّرْت ماذا يقول عنها، الكونت «أندريه»، إذا أتيح له أن يرى من أعماق الثكنة العسكرية، ويكشف عن الكلمات التي يخطّها قلمي. ولما أزمعت درس عقل المرأة، خُيِّل إليَّ أني «كلودبرنار» أو «باستور» أو واحد من تلاميذهما. أولئك علماء يضعون الحيوانات على المشرحة، وهي حَيّة، لإجراء التجارب فيها، فمالي لا أشرِّح النفس الإنسانية كذلك؟

وإذ أردت أن أستخلص النتيجة المبتغاة من الرحمة التي جاشت

بصدرها، لم تكن لي مندوحة عن موالاة استشارتها، فتماديت في تمثيل مهزلة الحزن التي ابتدعتها أوهامي، وصاغها خيالي، وأتبعتها بأخرى تدعو للرثاء، وتهيِّج الرحمة.

وفي الأسبوع الذي أعقب رياضتنا، اصطنعت الكآبة اصطناعاً، لا في حضرة «شارلوت» وحدها، بل أمام تلميذي، علماً بأنه سيروي حديث ذلك الحزن الذي يملك عليّ مشاعري. فأنت ترى، في ذلك، الدليل القائم، والحجّة الناهضة على عبث الخديعة والمكر، اللذين رضيت نفسي الاعتصام بهما. أفكانت بي حاجة لأن أزجّ بهذا الطفل الغرّير في مثار تلك الدسيسة؟ وكيف طاوعني ضميري أن أدفع به في غمار تلك المأساة، وهو الذي عهدوا إليَّ بتربيته، وتغذيته بالمبادئ الصالحة، وغرس الفضائل في نفسه؟ وعلام الحبّ والخديعة، والآنسة «شارلوت» تثق بي ثقة لا تشوبها شائبة؟ على أن ظلام الوجدان، وتحجُّر العواطف، قد طوَّعا لكبريائي أن يُفتَن في مضاعفة الحبائل.

وكان «لوسيان» يتلقّى درسه في حجرة كبيرة، سمّوها حجرة المكتبة، لِما احتوت من كتب. وكانت من بينها دائرة المعارف الكبرى، ممّا خَلَّفَ منشئ القصر، وقد كان من عظماء النبلاء الذين يميلون إلى الفلسفة، فشيَّد ذاك الصرح العظيم، في ربوع الجبال، ليُنشِئ ولديه في أحضان الطبيعة، وليطبعهما على غرار «إميل» حين تخيَّله «روسو»، في كتابه عن التربية. وقد عُلِّقت صورة مشيِّد القصر في جانب، وصورة امرأته في الجانب الآخر، فلبثت أتطلَّع إلى تينك الصورتَيْن، فأسائل نفسي عمّا كان يصنعه أجدادي، وكأني أراهم، يدفعون المحراث، يفلحون الأرض، ويروون الكروم تحت سماء اللورين الملبَّدة بالسحب، كما يصنع أولئك

القرويّون، الذين أراهم يمرّون أمام أبواب القصر، ولمّا أضطربت تلك الخواطر في ذهني، ثارت ثائرة الانتقام في نفسي، وآليت ألّا أستقرّ، إلّا أن أبلغ الغاية. ومن عجب أني- وأنا أمقت مذاهب الثورة الفرنسية، وما تنطوي عليه من الخيالات- كنت أشعر بالغبطة في أعماق نفسي، حين أظنّ أني قد أغري حفيدة ذاك النبيل العظيم، وتلك السيِّدة العظيمة، بقوّة الفكر ، بينما أنا من عامّة الشعب. فأسندت رأسي إلى يدي، وأَشَعْتُ مظاهر الحزن في أسارير وجهي، علماً بأن «لوسيان» يرقب حالتي، ولمّا رآني كذلك توهَّمَ أن منشأ حالتي هذه عدم رضاي عنه. وفي ذات صباح، اجترأ على أن يسألني:

- هل أنت غاضب مني، يا مسيو «جرسلو»؟

- فأجبته وأنا أربِّت عليه: «كلّا، يا بنيّ».

وظللت في مظهر الحزن المصطنع، والثلج يتساقط على زجاج النوافذ، وقد لبث يهطل حتى غطّى الربوع، ولَفّ الجبال في غلالة من الصمت العميق، وباتت السكينة ترفرف بجناحيها على جوانح القصر، وأعانني حزن الطبيعة على تمثيل حزني، فاسترعيت نظر «شارلوت» ساعة اجتماعنا. وفي قاعة الطعام، قرأت في عينيها آيات رثائها لي، والعجب لحالي. وكذلك كانت كلّما رأيتها في أثناء تناول الشاي، أو طعام العشاء، أو في وقت السمر، إذا لم أسرع نحو غرفتي بدعوى وجود عمل لا بدَّ لي من إنجازه. وكانت حياتها تجري على وتيرة واحدة، والحديث الذي يملأ سمعها حديثاً معاداً، فلم تستطع أن تغالب الأثر الذي تركه في نفسها حزني المحجَّب بالأسرار. وبات المركيز فريسةً للاضطراب، ساخطاً على

الساعة التي آثر فيها العزلة. ولطالما لهج بأن الجوّ لا يكاد أن يصحو حتى يسارع إلى الرحيل، جاهلاً أن ذلك أمسى ضرباً من المستحيل، فهل نسي، أو تناسى، أن الرحيل، اليوم، سيكبِّده عظيم النفقات؟ وأين يذهب؟

وكان يرقب زيارة أصحابه الذين يفدون عليه من «كليرمونت». وكثيراً ما كانوا يحضرون لتناول الغداء إذا لم تُعِقهم رداءة الطقس، ووعورة الطريق. وإذا ضاق صدره عمد إلى لعب الورق، على حين أن المركيزة، والمربِّية والمتديِّنة، كنّ يتفرغن لمشاغلهنّ. وبينما كان «لوسيان» يتصفّح كتب الصور، كنت أتخيَّر مكاني، بحيث تراني «شارلوت» وهي تلعب الورق مع أبيها. وصحَّ عزمي على أن أتسلَّط، على إرادتها، تسلُّطَ المنوِّم على من يريد تنويمه، واخترت أن أخترع لها قصّة تبرِّر حزني، وتوضِّح مسلكي، ليتمّ لي الاستيلاء على شعورها.

وأخذت في تلفيق القصّة، على ضوء مبدأين، أوردتهما في الفصل الذي عقدْتَه عن الحبّ؛ فما من شكّ في أن كتابك وكتاب «أمراض الإرادة»، للمسيو «ريبو» قد أصبحا نبراساً لحياتي. والآن، أرجو أن تأذن لي بإيضاح هذَيْن المبدأَيْن:

أمّا المبدأ الأوَّل فيتلخَّص في أن التقليد هو منشأ المشاعر لدى الكائنات جميعاً. فالحبّ، لدى الإنسان، إذا تُرك إلى الطبيعة، وحدها، بات كالحبّ لدى الحيوانات؛ لا يعدو أن يكون غريزة شهوية، وإذا أشبعت الشهوة، لم يلبث أن يزول. وأمّا المبدأ الثاني فخلاصته أن الغيرة قد تسبق الحبّ، وبذلك يمكن أن تخلقه خلقاً، في بعض الأحيان، كما يمكن أن تظلّ بعد زواله. فلمّا تجلّى لي هذان المبدآن استقرَّ رأيي على أن تكون القصّة، التي

أرويها أمام الآنسة «شارلوت»، تجمع بين استثارة خيالها، واستفزاز خيلائها، وقد عرفت كيف أثير عاطفة الرحمة في قلبها. والآن، ينبغي لي أن أضرم نيران الغيرة في صدرها، وأهزّ شعور الخيلاء في نفسها، فبنيت قصَّتي على أساس ذلك الرأي القائل: «كلّ امرأة تميل إلى رجل، لا يلبث كبرياؤها أن يُجرَح إذا عرفت أنه يشغل قلب أخرى».

ومضى خمسة عشر يوماً على بدء التجربة، ووضع تلك النفس البشرية في معمل التشريح، وهيّأت لي الضحيّة، من تلقاء نفسها، الفرصة لأقصّ القصّة التي كانت بمثابة الشرك، فقد بدا للمركيز أن بين مجلَّدات دائرة المعارف مجلَّداً خاصّاً بإيضاح مختلف ألعاب الورق، وأحبّ أن يبحث فيه عن بعض الألعاب القديمة، ليحاول أن يلعبها؛ وقد دعاه إلى ذلك ما قرأه في بعض الصحف عن لعبة جديدة تُدعى «البوكر»، تولّى الكاتب شرحها، وعرض لذكر طائفة من الألعاب القديمة، فصعدت ابنته إلى غرفة المكتبة، في الحال، حيث كنت مشغولاً بتدوين بعض الملحوظات، فأحضرت لها المجلَّد الذي تطلبه، فتناولته من يدي، بعد أن نفضت عنه الغبار، وتلطَّفت فقالت لي:

«أرجو أن نكتشف فيه بعض الألعاب التي يتاح لك الاشتراك معنا فيها، فإنا لنخشى أن تضيق صدراً، أو نراك محزوناً...».

وخيِّل إليَّ أن الفرصة سانحة، في هذه الفترة القصيرة، كي أشكو إليها همّي، فأجبتها:

«آه- يا آنسة- لو تعلمين حياتي...!».

ولو لم تكن سريعة التصديق، نزّاعة إلى الخيال، لشعرت بأن تلك العبارة إنّما هي براعة الاستهلال في قصّة من نسج الخيال، ثم طفقت أروي لها أني كنت قد خطبت فتاة من «كليرمونت»، لكن في الخفاء، واعتقدت أني أخلع على روايتي ثوب الشعر، حين ألقي، في روعها، أن تلك الفتاة كانت روسيّة قدمت لزيارة بعض ذوي قرباها، ثم أضفت إلى ذلك أني أفضيت إليها بحبّي، وأنها كاشفتني بحبِّها، وأننا أقسمنا، بكلّ محرجة من الإيمان، على الوفاء، وعلى أن أسكن إليها، وتكون بيننا مودّة ورحمة، نتقاسم السرّاء والضرّاء، ونحتمل الحياة بخيرها وشرِّها. وحلوها ومرِّها لكن، ما إن بدت لها صفقة زواج رابحة حتى نكثت العهد، وضَحَّت بي في سبيل المال.

وكذلك ضربت على نغمة فقري، حتى ألقيت في روعها أن أمّي تعيش من فضل كسبي، وارتجلت الأكذوبة الأخيرة وحْيَ الساعة، فقد فرغ علماء النفس من تقرير أن الرياء يتضاعف كلّما أوغل المرء فيه، وما كنت أجيد تلك المهزلة الصبيانية. على أن شارلوت كانت بحاجة إلى نظراتك، لتمزِّق القناع عن وجهِ ريائيّ. حقاً، لقد كان يمكن أن يُعزى مظهر اضطرابي إلى إثارة تلك الذكريات في نفسي، إلّا أني احتفظت برباطة جأشي، وأنا أفيض بتلك الأكاذيب، فأتيح لي أن أرقب «شارلوت» عن كثب، فأصغت إليَّ، ولم تبدُ عليها مظاهر التأثُّر والانفعال، وهي تنظر إلى الكتاب الذي اعتمدَتْ بيدها عليه، فلمّا فرغت من حديثي تناولت الكتاب، وقالت بلهجة لا تشفّ عن شعورها:

«لست أدري كيف استرسلت في الثقة بتلك الفتاة التي ألقت بسمعها إليك، دون علم أهلها..».

ثم حملت الكتاب، ومضت بعد أن أومأت برأسها إيماءة لطيفة. وكم كانت بارعة الحسن، رائعة الجمال، هيفاء، وضّاءة المحيّا! فأرجو أن تبيِّن لي- وأنت العليم بالنفس الإنسانية- كيف بدت لي روعتها، وأنا أكذب عليها، وأُسرف في الكذب. نعم، لقد أيأسني جوابها، على حين كان ينبغي أن يبعث في نفسي الرجاء، فما أدركت أن مجرَّد إصغائها إليّ، على بُعد ما بيننا، يُعَدّ آية من أقوى آيات العطف. وما حسبت أن تلك العبارة التي يشوبها شيء من القسوة، والتي جاءت جواباً لإفضائي بسرٍّ خدّاع غرّار، إنما أملتها الغيرة التي أردتُ إيقاظها في صدرها، وأوحت بها الرغبة في تبرير موقفها مني. فكما أنها لم تستطع أن تستشفّ الاختلاق في ثنايا روايتي، كذلك لم أستطع أن أرى الحقيقة التي تضمَّنها جوابها. فشيعتها بنظراتي، ولبثت أشهد تهدُّم صروح آمالي. كلّا!، إني لا أسترعي نظرها، ولا أثير اهتمامها، إلى حَدّ أن أُصَيِّر ذاك الاهتمام شعوراً ملتهباً، وعاطفة متأجِّجة. وهل كنت من الغفلة، بحيث أظنّ الأوهام حقائق، والأماني صروحاً مشيَّدة، فأقبلت أزِن الأمل في خداعها عن عفافها، وأسأل أيّ دليل على التفاتها إليّ، واهتمامها بشأني؟ ولئن كانت قد اهتمَّت براحتي المادّيّة، فما ذلك إلّا لأن قلبها ينبوع رحمة وحنان. ولئن أرادت أن تعرف مبعث حزني، فإنما دفعها لذلك حبّ الاستطلاع. ولئن ساءلتني عن حالي برفق، فتلك شيمة فتاة كريمة العواطف. وإذاً، لم تكن المهزلة التي لعبت أدوارها أسبوعين كاملين، والأكاذيب التي اخترعتها عن مأساة حياتي، إلّا مناورات مضحكة، لم أخطُ بها خطوة واحدة نحو ذلك القلب الذي أحببت أن أبسط سلطاني عليه. وباتت تلك الكلمة الصغيرة الجافّة التي انحدرت من فم «شارلوت»، كافية لأن أحكم على نفسي بتلك الصورة، في الفترة التي أعقبت حديثنا. ولطالما كنت فريسة للتحليل المنطقي الذي

يلقي علىَّ ماءً يطفئ جذوة حماستي، كما يخمد فورة البخار.

لشدّ ما كنت محلِّقاً في سماء الأوهام، حين ظننت أني أعبث بآراء «شارلوت» كما يعبث أخوها بِكُرات «البلياردو»!. وعلى الرغم من وفرة مطالعاتي، فقد حسبت العواطف، من السهولة والبساطة، بحيث يستطيع المرء أن يوجِّهها أيّة وجهة يريد!، ولمست خطأي فيما بعد. فإذا شئت أن تتعرَّف ظواهر القلب فَوَلِّ وجهك شطر عالم النبات لا ميدان الصناعة. وإن أحببت أن تنبت تلك الظواهر فاعمد إلى طرق البستاني وأساليبه، فهَيِّئ التربة أوَّلاً، ثم ألْقِ البذور، وتعهَّدها بالسقيا، وأحِطْها بالعناية والرعاية. فالشعور ينبت، ثم ينمو ويترعرع، ثم يجف ويذبل، كما هو الشأن في النبات. وقد يكون التطوُّر بطيئاً، وقد يكون سريعاً، على أنه غير محسوس، في كلّ حال.

إن بذور الرحمة والغيرة التي ألقيتها في نفس «شارلوت» قد آتت ثمارها، لكن بعد حين. لقد ظنَّت الفتاة أني أحبّ غيرها، فلم تشعر بالحاجة إلى الدفاع عن نفسها، على أنه كان ينبغي- كي أحسن التقدير، وأَزِن الأمل- أن أكون «ريبو» أو «تين» أو «إدريان سكست» لأتعرَّف تلك النفسيات العالية. أمّا أنا فأشهد أني كنت على مثال ذاك الذي يسير في سهل، غير عالم أن في بطن الأرض بذوراً، لا تلبث أن تؤتي خير الثمرات. وقد يُلتَمَس العذر لذاك، لكن ما عذري أنا، وقد ألقيت البذور بيدي، ولم أرقب لها نموّاً أو ثمرة؟

وضاعفت الأيّام خيبة رجائي في أن أحمل شارلوت على حبّي، فما كانت تخاطبني إلّا لماماً، ثم علمت، من اعترافها لي، أنها كانت تخفي، وراء

ذاك السكون الظاهر، اضطراباً ينمو ويشتدّ، وظلَّت تغالبه، فيغلبها بحدّته وقوَّته وعميق أثره. ولبثت كأنها مشغولة، إلى حين يدرس المركيز لعبة النرد، التي عثر عليها خلال تصفُّحه دائرة المعارف. وحين ذكر أن لعب النرد كان محبَّباً إلى قلب جَده، عدل عن دراسة كافّة الألعاب الأخرى. كذلك كان المركيز يقضي شطراً من الليل في اللعب مع ابنته، وما كان يعفيها من تلك السخرة إلّا حضور القسّ «برتموف». ومن عجب أن المركيز لم يسألني عمّا إذا كانت نفسي تهوى اللعب أو تعافه. وكنت أوثر أن أتصفَّح كتاباً، أو أتصفَّح وجوه الحاضرين، لكني شعرت بالذلّة إذ يفرِّق بيني وبين القسّ، وإن كان هذا نصيب كلّ من يقيم بين ظهرانَيْ قوم، يرون أنه أدنى مرتبة منهم! إن كلّ تفرقة في المعاملة تجرح عزّة النفس، وكأني كنت أثأر لنفسي، حين ألاحظ أن القسّ نفسه يشعر بالإعجاب بأهل القصر عامّة، والمركيز خاصّةً، إعجاباً يبلغ حَدّ التقديس. فإذا أقبل القسّ، وأطلقت لـ«شارلوت» حرّيّتها، جلست تعمل إلى جانب والدتها. وحين أخفقت في حبّها إيّاي، أصبحت أشعر بالقسوة نحوها.

لقد وقعت في شِباك غرامها، بدل أن أوقعها في شِباك غرامي.

أجل، لقد كانت الآنسة «شارلوت» مدفوعة نحوي بحبّ وليد ناشئ، تجهله، وكنت أنا مسوقاً إليها بالعوامل والاعتبارات التي بسطتَها في مؤلَّفاتك، ومع قضائنا كثيراً من ساعات النهار معاً، فما كان أحدنا يشعر بشعور صاحبه.

وفي ذات مساء، كان المركيز يحدِّث امرأته عن مقال ظهر في إحدى صحف الصباح، يتحدَّث عن فرح أقيم لدى بعض أصحابهم، ورأى المركيز

الصحيفة بيدي، فقال لي:

- «هل لك أن تقرأ لنا هذا المقال، يا مسيو «جرسلو»؟».

فلمّا بدأت أقرأ، أخذت الدهشة تستولي على المركيز، إذ رآني أُحْسِن القراءة، وعندما انتهيت منها صاح قائلاً:

«إنك لتقرأ جيِّداً جيِّداً، جدّاً...! فيحسن أن تقرأ لنا في المساء قليلاً.. فذلك أجدى من لعب النرد... أمّا لو عاد الثلج يهطل فلن نمكث هنا ثمانية أيّام... وهنا، ضحكت «شارلوت»، فقال: أتضحكين يا «شارلوت» ساخرة من أبيك؟ وأيّ كتاب تتخيَّره لنبدأ به؟».

وهكذا، ألفيت نفسي مسوقاً إلى عبودية جديدة، فلم أدرِ أن كانت تتمشّى مع دراستي أم لا، فقد كنت أحمل معي كلّ مساء، كتاباً أدرسه، تأهُّباً لنيل إجازة الآداب، دون أن أغادر «لوسيان». على أني لم أحاول الخلاص من تلك السخرة الجديدة، بل لم أتبرَّم بها، وقد نظرت إلى «شارلوت» نظرة تشفُّ عن التوسُّل، والتِماس التجاوز عن خشونة أبيها.

وخطر لي أن استغلّ مشروع المطالعة، لتمهيد طريق الإغراء وتهيئة الجوّ، لاصطياد الفريسة، خصوصاً أن نظرة «شارلوت» أحيت موات الأمل في صدري، فلمّا سألني المركيز عن الكتاب الذي أتخيَّره أجبته بأني سأجدّ في البحث عنه. ثم بحثت عن كتاب يهيِّئ لي سبيل الدنوّ من الفريسة، التي أمعنت في التحليق حولها، كما تحلِّق الصقور حول صغار الطير لتنقضّ عليها، وتنشب مخالبها فيها. لكن، كيف السبيل إلى رواية تثير عواطف «شارلوت»، ولا تخدش الحياء، فتُستَطاع قراءتها على مسمع من الأسرة

مجتمعةً؟ نقَّبت في المكتبة حتى أعياني التنقيب، و- أخيراً- هداني البحث إلى رواية «أوجيني جرندي»، فجاءت متمشِّية مع الغاية التي أرمي إليها، وحَبَّذَ المركيز قراءتها.

وما إن قرأت الصفحات الأولى فيها حتى نام المركيز ملء جفونه، وانصرفت المركيزة والآنسة «لارجكس» والمرأة المتديِّنة، إلى الحياكة دون أن يبدو منهنّ ما يدلّ على الاستحسان أو الاستهجان، واشتغل «لوسيان» بتصفُّح كتاب صور. وكنت أرقب «شارلوت»، عند القراءة فأرى مشاعرها تهتزّ تحت سلطان العبارات كما تهتزّ أوتار القيثارة تحت مضرب العازف، وشعرت بالأثر الذي تركه، في نفسها حُبّ «أوجيني» وابن عمّها «شارل».

وما من شكّ في أن كلّ رواية غرامية كانت خطراً على «شارلوت» في الأزمة النفسية التي تجتازها، والعواطف الثائرة التي تتنازعها. ولو كان الأب والأمّ يملكان شيئاً من قوّة الملاحظة لاستطاعا أن يلمسا ذاك الخطر في وجه ابنتهما، خلال الليالي الثلاث التي استغرقتها المطالعة.

وأقبلت الآنسة «شارلوت» على المكتبة تقول: «إني لا أستطيع أن أملأ ساعات فراغي، فأودّ أن أسترشد برأيك في مطالعاتي.. فالكتاب الذي تخيَّرته بالأمس، قد أدخل السرور على قلبي..» ثم أضافت: «إن مطالعة الروايات تضيّق صدري، على أني قد آنست، في تلك الرواية، متعةً وسلوى».

وما إن ملأ كلامها سمعي حتى شعرت بالغبطة التي شعر بها الكونت «أندريه» حين لمح جنديّ العدوّ يطلّ برأسه ليستطلع أحوالهم فصوَّب إليه بندقيَّته، وأرداه قتيلاً. أمّا أنا، فقد خُيّل إليَّ أن الفريسة باتت هدفاً لرمايتي.

وهل من شكّ في أنها، حين أقبلت تسترشدني فيما تطالع، قد هيَّأت نفسها لأصيب منها مقتلاً؟ فوعدتها أن أقدِّم إليها، في الغد، ثبتاً بالكتب التي تطلبها، ثم ما لبثتُ أن اخترت لها طائفة من الروايات التي تفيض بالعواطف، وشفعتها بالخطاب يحمل تقديري لكلّ كاتب، فكان ذاك الخطاب هو كلّ ما احتفظت به «شارلوت» وقد عثر عليه المحقّقون بعد موتها، فاستنتجوا أنه كان البدء في مطارحة الهوى. ويالها من مطارحة غريبة، كانت على النقيض من الطموح إلى الزواج الذي عَزوه أولئك الحمقى إليّ! وإذا لم يكن مبعث امتناعي عن الدفاع عن نفسي، هو الكبرياء الذي سأكشف لك عنه في ختام تلك المذكِّرة، فإني لألتزم جانب الصمت تقزُّزاً من تلك العقول الجامدة التي لا تستطيع أن تدرك أن الفكرة؛ الفكرة- وحدها- هي التي أوحت إليَّ بما صنعت، أنت- يا أستاذي العزيز- وطائفة أخرى من أمراء الرأي العصري. حينذاك، أستطيع أن أتكلَّم، بأعلى صوتي، وملء فمي، كما أصنع الآن. على أنك تعلم أني كنت مسوقاً، رغم أنفي، إلى ذلك المصير المحتوم، لكن هذا المجتمع الذي يتغذّى بالأكاذيب، يأبى إلّا أن يعيش بمعزل عن العلم؛ ذاك العلم الذي كانت وجهتي خدمته حتى في تلك الفترة التي كنت أفكِّر فيها أن أراود «شارلوت» عن عفافها.

وأرسلوا في طلب الكتب من «كليرمونت»، ولم تكن للمركيز أيّة ملاحظة عليها. على أنه كان ينبغي أن يكون للمرأة عقل غير عقل المركيز ليدرك أن ليست هناك كتب سيّئة، إنما هناك فترات سيِّئة لقراءة خير الكتب.وما أصدق الشبه بين الجرح الذي تحدثه، في المخيِّلة، بعض المطالعات، وبين الجروح الناشئة في الجسم المسمَّم بمرض السكَّر؛ فالوخزة البسيطة قد

تحدث به نغراً، يوشك أن يهلكه!.

واتَّخذت الآنسة «شارلوت» تلك الكتب وسيلةً لتعرُّف حالي، وتفهُّم طريقة شعوري، وتفكيري، ونظراتي إلى الحياة وإلى الأخلاق. فكانت كلّما قرأت جانباً منهاغ أقبلت تسائلني.

وخلا لي الجوّ كي أتحدثَّ إلى «شارلوت» طيلة النهار، فكانت تبدو، في الصباح، حين أتناول الشاي مع تلميذي، متذرِّعة بالاشتراك معنا في تناول الشاي، وتجلس إلى المائدة فتتحدَّث طويلاً، ثم تقبل إلى المكتبة فأراها، وأتحدَّث إليها، وكنت ألقاها قبل الطعام وبعده، وكنّا نخرج للرياضة في بعض الأحيان: المربِّية، وشارلوت، وتلميذي،وأنا، ونجتمع لتناول الشاي عند الساعة الخامسة، فأجلس إلى جانبها.

ولبثتُ زهاء شهرين أتودَّد إلى «شارلوت»، وما كنت أبغي أن أتسلَّط على خيالها، إنما كنت أبغي أن أحملها على حبّي... فيخفق قلبي لمجرَّد التفكير بهذا. وما كان الخوف من طردي خارج القصر، مجلَّلاً بالخزي، ملفَّعاً بالعار، هو الذي يصدّني عن إنفاذ فكرتي. فقد كان كبيراً على نفسي أن لا أجترئ، ولا أقدم. وكم من مرّة نهضت، في جوف الليل، فهممت بأن أغشى غرفتها! بل كم كنت أفتح الباب، في رفق حذر، كما يصنع اللصّ، فأهبط السلَّم، ثم ألتمس الطريق إلى باب «شارلوت»، مجازفاً بأن أُضبَط، فأُطرَد، دون أن أبلغ غرضاً، أو أنال مأرباً! ولكم هممت بفتح الباب، ثم تراجعت ولم أجسر! وما كنت وَجِلاً ولا هيّاباً، بل كنت أتهيَّب طهر «شارلوت» وعفافها.

وأقبل الربيع، بعد طول تردُّد، وأصبحت أحبّ تلك الفتاة من كلّ قلبي.

ولمّا كاشفتها بحبّي كنت مخلصاً وفياً.

نعم، إني لأذكر يوم صارحتها بحبّي؛ كان ذلك في الثاني عشر من مايو. كان الجوّ صحواً، فخرجنا نحن- الأربعة: الآنسة لارجكس، ولوسيان، وشارلوت، وأنا- قاصدين قرية «سان ساترنان». وما أصبحت الآنسة «لارجكس» غير بعيد، حتى تعبت من السير فركبت العربة، وقد شهد سائقها عليّ، في التحقيق. ثم ما لبث أن لحق بالمربِّية. وكنت أسير وحدي مع «شارلوت»، وقد وضعت، نصب عينيها، أن تؤلّف طاقة من الزهر، فكنت أعينها. وأوغلنا بين أغصان الأشجار الوارقة الظلال، وبتنا بعيدَيْن عن العربة، ومَنْ أَقَلَّت. وأدركت «شارلوت»- لأوَّل وهلة- العزلة التي أصبحنا فيها، فأنصتت إلى عَدْو الحصان في الطريق، ثم صاحت في مرح الطفولة:

«لقد ضللنا! لكن، لن يعزّ علينا أن نرجع أدراجنا.. فهل لك تنتظر حتى أهيِّئ طاقتي؛ فليس من الخير أن نتلف تلك الأزهار الرائعة؟»

ثم جلست على صخرة، تغمرها الشمس بأشعّتها، ونثرت الأزهار فوق ثوبها، وأخذت تنظِّمها، زهرةً فزهرةً. وجلستُ إلى الجانب الآخر من الصخرة، وشذى الأزهار ينعش نفسي. ولم تبدُ لي تلك الإنسانة، التي ملكت علىَّ قلبي، شهرين كاملين، كما بدت الساعة: بارعة الحسن، رائعة الجمال، بوجهها الوضّاح الذي أكسبه الهواء لوناً ورديّاً، ومحيّاها الذي تشرق فيه ابتسامة، وعينيها النجلاوين، وقدّها الرشيق. ثم خلعت قفازيها، فتكشَّفت يداها عن جمال يملأ العين روعة، وقد تمشّى جمالها مع جمال الطبيعة، وربيع عمرها، مع الربيع الغضّ. وكلّما نظرت إليها،

اقتنعت بأن الفرصة سانحة لأن أفضي إليها بما احتبس في صدري طويلاً، فلن تتاح لي فرصة مثلها. وخفق قلبي.. لسوء طالعها، التفتت نحوي لتريني طاقتها، فلمحَتْ آثار العاصفة التي تضطرب بين جوانحي، ترتسم على وجهي، فاكفهرَّ وجهها، بعد أن كان مشرقاً، وارتسمت عليه دلائل الاضطراب، بعد أن كان هادئاً. ولا أنسى أننا لم نُشِر، في أحاديثنا، إلى تلك القصّة الملفَّقة، وما كنت أدري أنها صدَّقت تلك الرواية المخترعة، لكنها لم تلبث أن قالت لي، ونظراتها تشفّ عن الأسى:

«لماذا تكدِّر صفو هذا اليوم الجميل بإثارة الذكريات المحزنة؟ لقد كان يبدو عليك أنك صرت أكثر تعقُّلاً...».

- فأجبتها: «كلّا.. إنك لا تعلمين ماذا يبعث الحزن في نفسي! آه.. إنها ليست ذكريات.. إنك تلمِّحين- على ما أرى- إلى أحزاني الماضية.. إنك مخطئة..ليس في نفسي موضع لها، كما أنه لا موضع لأوراق العام الماضي، بين هذه الأغصان.».

وسمعتني أنطق بتلك العبارة، وكأن غيري الذي يتكلَّم. ورأيت أن «شارلوت» قد أدركت ما أرمي إليه، رغم خلعي الثوب الشعري على عبارتي؛ رجاء أن يخفى ما ينطوي تحتها. فكيف أصبح المستحيل ممكناً مستطاعاً؟ وكيف اجترأت على ما لم أكن اجترئ عليه؟، ثم تناولت يدها، فأحسست برعدة فيها، كأنّما أصاب تلك البُنيّة المسكينة هول وفزع. ووجدت في نفسها القوّة لتنهض وتذهب، فاصطكَّت ركبتاها، فلم أجد كبير عناء في حملها على الجلوس، كرّةً أخرى. وهالني إقدامي، ففقدت صوابي، وطفقت أعبر لها عن عواطفي، وأترجم عن شعور، في عبارات لا أذكرها

اليوم، إذ جاءت عفو الخاطر. واستحالت العواطف التي اضطربت بين جوانحي، والشعور الذي جاش في صدري، من يوم قدمت إلى القصر، إلى عبادة لتلك الإنسانة المروَّعة المضطربة. نعم، استحالت العواطف جميعاً: شرّها وخيرها، إلى عبادة لــ«شارلوت»، والحسد للكونت «أندريه»، وحتى تأنيب الضمير لاستغلال فتاة بريئة.. ! وكلّما أمعنت في الكلام رأيت وجهها يمتقع، فيصبح في لون الأزهار المتناثرة فوق ثوبها. واندفعت أزجي العبارات في غير خوف ولا حذر، حتى أرسلت الصيحة من أعماق قلبي: «إني أحبّك.. آه! إني أحبك!» وشددت على يدها، ودنوت منها أكثر من ذي قبل، فمالت كأنما فقدت القوّة على التماسك، فطوَّقتها بذراعي... فارتاعت لتلك الحركة، ونهضت، ثم تخلَّصت مني، وقالت: «دعني.. دعني..» ثم تراجعت، ويداها مبسوطتان، لتدفع عن نفسها، حتى آوت إلى جذع الشجرة، فأسندت ظهرها إليه، ومظاهر الاضطراب بادية عليها، ثم انحدرت الدموع فوق خدَّيها. ولئن دلَّت تلك العَبرات على شيء فإنما تدلّ على الحياء الجريح، والثورة المضطرمة، والفورة المتأجِّجة. فلم أبرح مكاني، وتمتمت بتلك الكلمة: «مغفرة...»، فأشارت بيدها إليَّ قائلة: «لا تنطق بكلمة».. ولبثنا على تلك الصورة وقتاً، لم أتبيَّنه، ثم ما لبثنا أن سمعنا نداءً يشقّ أجواز الفضاء؛ فقد أقلقَتْهم غيبتنا، فصاح «لوسيان» الصغير الصيحة التي اعتدنا أن تجمعنا، فارتعدت فرائص شارلوت، واحتدم الدم في وجهها، وألقت عليَّ نظرة رهيبة تشفّ عن العزّة أكثر ممّا تشفّ عن الفزع، ثم نظرت إلى نفسها كأنما أفاقت من حلم مروِّع، ورأت يديها العاريتين، وكانتا لا تزالان ترتعدان، فلم تنبس بكلمة واحدة، والتقطت قفّازها وأزهارها، وراحت تعدو أمامي، كما تعدو الفريسة، روَّعها الصيّاد. سارت صوب الجهة التي كان ينبعث منها النداء، ولم

تلبث أن صرنا إليها قالت لمربِّيتها؛ درءاً لما عسى أن توجّه إليها من سؤال، قد يثيره مظهرها: «إني لأشعر بشيء من التعب، فهل لك أن تفسحي لي مكاناً في العربة؟ فلابدّ لنا من العودة..»، فأجابتها المربِّية: «إن حرارة الجوّ هي التي آذتك».

وتساءل الغلام، حين تبوَّأت «شارلوت» مكانها من العربة، وجلس هو إلى الخلف: ومسيو «جرسلو»؟»، فأجبت: «سأعود سيراً على قدميّ».

ودرجت العربة مسرعةً، و«لوسيان» يلوِّح بيده، حتى اختفت عن الأبصار. ألفيت نفسي في الطريق وحدي، فأحسست الألم يشيع في نفسي، بعد ذاك المرح الذي كان يملأها أوَّلاً؛ فلقد أثرت المعركة، ثم ما لبثت أن خسرتها. ولسوف أُطرد من القصر شرّ طرد. نعم، لقد كان هذا الشعور هو الذي أطار صوابي، بدل أن يكون مزيحاً من الأسف والخجل والرغبة؛ ذلك هو الطريق الذي ساقتني إليه فلسفتي، وذاك هو مصير الحصار الذي ضربته حول قلب تلك الفتاة! وكأني كنت أرسل الصيحة في جوف الصحراء، فلم تنحدر من فمها كلمة واحدة إجابةً لصدى ذاك الإفضاء الحارّ الملتهب. وقفت في مكاني جامداً لا أتحرَّك، مجتزئاً بالعبارات المسرحية أزجيها إزجاءً. وكانت إيماءتها، وفرارها بعيداً عني، ويداها المبسوطتان، كان كلّ أولئك كافياً لأن يجعلني أتحجَّر في مكاني. وما من شكّ في أن العاطفة التي كانت تنزع بي إليها، في تلك المرحلة، قد تألَّفت عناصرها من الكبرياء والحساسية، إذ انقلب شعور العبادة، الذي جعلني أتدفَّق بعبارات الهوى تدفُّقاً، إلى شعور بالحنق، إذ لم أطرحها أرضاً، فأغتصبها اغتصاباً، عند جذع الشجرة التي أسندت ظهرها إليه. على أني، وقد أصبحت على قيد خطوات منها، لم أزد أن أسألها المغفرة.

وتمثَّلَ لي وجه الكونت «أندريه»، وتجلّى أمام ناظريّ مظهر الازدراء الذي ينطبع على وجهه، حين يقصّون على سمعه ذاك الحادث. فلمّا صرت أمام القصر، شعرت بذلّ كبريائي، وبدا لي أن أعود أدراجي إلى «كليرمونت»، بدل أن تتلقّاني «شارلوت» بالاحتقار، ويفاجئني أبوها بالإهانات.. لكن، لم يعد في الوقت متَّسع؛ فقد تقدَّم المركيز نحوي مصحوباً بـ«لوسيان» الذي كان يدعوني. فجاءت صيحة الغلام واستقبال الأب، دليلَيْن على أني كنت واهماً عندما اعتقدت دنوّ مصيري.

وقال لي المركيز: «لقد خلفوك وحيداً. ولم يخطر في بالهم أن يبعثوا إليك بالعربة ثانيةً.. وما إخالك إلّا متعباً من السير. وأكبر ظنّي أنك أسرعت الخطى.. وأخشى أن تكون «شارلوت» قد أصابها برد، فمالبثت أن آوت إلى فراشها.. إن شمس الربيع خدّاعة».

إذاً، فالآنسة «شارلوت» لم تبُح بشيء بعد..!.

إنها تتألَّم الليلة. وأكبر الظنّ أنها ستفضي بكلّ شيء، غداً، فلا يسعني إلّا أن أعدّ أوراقي، وأتأهَّب للرحيل، وقد كنت، في ذلك الحين، أحرص عليها كلّ الحرص، إيماناً بموهبتي كفيلسوف!

ثم أقبل الغد. ولم يحصل شيء. ورأيتي مع «شارلوت» على المائدة حين تناول الغداء، وكانت ممتقعة الوجه كمن مسه ألم شديد، وشعرت أن صوتي يُحدث لديها شيئاً من الاضطراب. قضيت أسبوعاً كاملاً وأنا أترقَّب الطرد في كلّ يوم، دون أن أفكِّر في أن أغادر القصر طائعاً مختاراً. وماكانت تعوزني الأعذار التي أتلمَّسها، والأسباب التي أنتحلها، إنّما الفضول وحبّ الاستطلاع هما ما كانا يقعدان بي.

وفي اليوم الثامن، استدعاني المركيز، فأيقنت أني- لا محالة- هالك، وترقَّبت أن أرى وجهه متجهِّماً، وعبارات جارحة تنهال على رأسي انهيالاً. وما راعني إلّا أن رأيته وقد تهلَّل وجهه، وأبرقت أساريره.

قال المركيز: «إن ابنتي مازالت تتألَّم.. لا شيء من الخطورة، لكنها حالات عصبية غريبة، وهي تودّ أن تستشير بعض الأطبّاء في باريس.. فأنت تعلم أنها كانت مريضة، من قبل، فأبرأها طبيب، وضعت فيه كلّ الثقة. وسيكون من دواعي اغتباطي أن أستشيره فيما يختصّ بحالتي، وسأسافر معها بعد غد. وقد نستطيع القيام برحلة بسيطة للترويح عنها؛ لذلك وددت أن أوصيك بـ«لوسيان»، في فترة غيابنا، وإني راضٍ عنك ياعزيزي «جرسلو».. ولقد كتبت إلى «ليماسيه»، بالأمس، مُظهِراً ذاك الرضا.. وإني لسعيد للقائك..».

وإنك لتحكم- يا أستاذي العزيز- بما كشفت لك عن خُلُقي، بأن تلك التحيّة كانت خليقة أن تداعب كبريائي، إذ جاءت شهادة ناطقة بإجادتي لتمثيل دوري، فوق أنها مسكِّنة لما ثار في نفسي من مخاوف. ورحت أسأل نفسي: لماذا حبست «شارلوت» لسانها عن الكلام بمكاشفتي بحبِّها؟ ولم أعلِّل ذاك الصمت بأنه في صالحي، بل ظننت أنها أمسكت عن الكلام إبقاءً على كسب قوَّتي، مسوقةً بعامل الشفقة، لا بشعور الرحمة الممزوجة بالحبّ كما حين وددت أن أجد تلك العاطفة في نفسها.ولم يكد هذا التعليل يثور في خاطري حتى عَزَّ عليَّ احتماله، وقلت في نفسي: «كلّا، ذلك ما لن يكون، ولن أتقبَّل ذاك الإحسان الذي يوليه تسامح يجرح عزّة نفسي.. ومتى عادت الآنسة «شارلوت» فلن تجدني هنا. إنها تدلّني على ما كان ينبغي لي أن أصنع. وددت أن أثير اهتمامها، فلم أثر إلّا غضبها..

فلتغادر، في نفسها، ذكرى غير ذكرى ذاك الفضوليّ الذي يستمسك بمركزه، رغم الإهانات التي تنصبّ فوق رأسه..».

لقد مات أمل الإغراء في صدري، وذاك الأمل الذي ظللت أداعبه طوال فصل الشتاء، إلى حَدّ أن كتبت إليها خطاباً، في الليل التي أعقبت حديثنا، ألتمس فيه غفرانها، وصارحتها بأن كلّ رابطة بيننا باتت مستحيلة، وأنها لن تضيق صدراً بوجودي عند عودتها. فلمّا أقبل الغد، تربّصت حتى تدعوها والدتها، فأستطيع أن أغشى حجرتها. وما إن ذهبت حتى سارعت إلى وضع الخطاب على مكتبها، فوجدت، بين الكتب التي أُعِدَّت لتوضع في الصناديق، كتاباً على غلافه هذه الكلمات: 12 مايو، عام 1886. وذلك تاريخ مكاشفتي لها بحبيّ، فتناولت الكتاب، ثم فضضته، فألفيت فيه أزهاراً جافّة! إذاً، لقد احتفظت بتلك الأزهار، وحرصت عليها، رغم ما أفضيت إليها به، بل إن ذلك بسبب هذا الإفضاء، وآية ذلك هذا التاريخ المكتوب بيدها: 12 مايو، عام 1886. وما أحسب أني تأثَّرت يوماً كما تأثَّرت حين رأيت ذاك الكتاب، فطغت موجة كبرياء غمرت قلبي. نعم، إن شارلوت قد دفعتني..ونعم، إنها تعلّقت بأذيال الفرار، لكنها كانت تحبّني. وبيدي الدليل على شعورها الذي ما كنت أجسر على أن أشرئبّ إليه بآمال، فأعدت الكتاب إلى مكانه، وسارعت إلى غرفتي، خشية أن تفاجئني، ولم أترك خطابي، بل بادرت إلى تمزيقه.

والآن، لا ينبغي أن أرحل، بل يجمل بي أن أقيم حتى تعود. وفي هذه المرّة، سأقتحم الحصن المنيع، وسيُعقَد النصر بِلِوائي. إنها تحبّني..

الأزمة الثانية

أجل، لقد كانت تحبّني. والتجربة التي صاغها كبريائي وفضولي، قد تُوِّجت بالنجاح. فلما تجلَّت لي تلك الحقيقة، وما كانت لترقى إليها الشكوك، بعد هذا الدليل الذي لمسته بيدي، هان عليَّ رحيل الفتاة، لا بل أصبح عذباً سائغاً. فلا ريب أن رحيلها يحمل، في ثناياه، معنى مغالبتها لشعورها، وأن ذاك الشعور متدفِّق عميق، وأن غيابها، بضعة أسابيع، كفيل بإنقاذي من ورطتي. فماذا أصنع؟ وما الطريق الذي ينبغي أن أسلك، والسياسة التي يجب أن أنتهج، ليتمّ لي النجاح؟

سيتَّسع أمامي مجال التفكير في أثناء غيابها الذي لن يطول، إذ إن أسرة «جوسات» لا تملك، الآن، مسكناً إلّا في «أوفرني»، فارجأت، إلى المستقبل، حَبْكَ أطراف خطّة جديدة، واستسلمت لنشوة الظفر حين كنت أشهد رحيل «شارلوت» أبيها. استأذنت منهما وصعدت إلى غرفتي. لقد كانت مصافحة المركيز لي ودّيّة حارّة، فلم تدعْ لدي مجالاً للشكّ في أن عروة ارتباطي بالأسرة، لا انفصام لها. ولمحت، تحت رداء فتور الفتاة

المصطنَع، قلباً دائم الخفقان.

وكنت أقيم في الطابق الثاني، في غرفة، تشرف نافذتها على واجهة القصر، فوقفت خلف الستار، بحيث أَرى ولا أُرى، لأشهد ركوبها العربة. بدا المركيز ثم بدت «شارلوت»، فمااستطعت أن أتبيَّن ملامحها تحت النقاب، وأنا أشرف من علٍ، ولم أدرِ، حين أزاحت النقاب عن وجهها لتجفِّف دمعها، أكان مبعث انفعالها قبلات الوداع من أمِّها وأخيها، أم يأسها من مغالبة شعور، تجد أشدَّ العناء في مغالبته؟ على أني رأيتها وقد أدارت رأسها، حين بلغت العربة سور القصر. وإذا كان أهلها قد تواروا، فإلّامَ كانت تنظر، وتُمعن النظر، ان لم يكن إلى تلك الشرفة التي آويت إليها لأراها؟ احتجبت العربة، ثم بدت على ضفاف البحيرة، لتتوارى عن الأبصار كَرَّةً أخرى، في الطريق الذي يجتاز غابة «برادات»؛ ذاك الطريق الذي يثير ذكرى، يخفق لها قلبها.

وكذلك، أشبعت شهوة كبريائي، ولبثت أداعب ذاك الشعور شهراً كاملاً، وفي ذلك الدليل الناهض، والآية الحيّة، إلّا أن علاقتي بتلك الفتاة كانت لا تزال روحية بحتة، وما كنت أصفى عقلاً، وأنضج رأياً، وأخصب تفكيراً، مني، في ذلك الحين. وإذ ذاك، كتبت أبهى صفحاتي عن عمل الإرادة في أثناء النوم. وأدمجت فيها بيان عزمي طوال تلك الشهور.

فلقد حرصت على أن أسجِّل حالتي النفسية، في كرّاسة، أعددتها قبل أن آوي إلى مضجعي، وحين أنهض من نومي. وألفيت نفسي حرّاً طليقاً، ووجدت أمامي متَّسعاً من الوقت، فالآنسة «لارجكس»، والأخت «أناكليه» تحرصان على ملازمة المركيزة. وإذا صفا الجوّ حرصت أن أخرج وتلميذي

للرياضة. وغرست في نفسه حبّ اصطياد الفراش، بدعوى تلقينه مبادئ العلم، فكان، في كلّ حين، يحمل عصاه وشبكته لاصطيادها، فيوغل في الصيد بعيداً عني، ويدعني أوغل في تفكيري، فكنت أنظر إلى أوراق الأشجار وهي تتفتَّح للشمس، فأذكر نواميس التنفُّس لدى النباتات، وكيف كان من المستطاع تبديل حياتها، بتبديل الضوء. فإذا استطعنا أن نعرف نواميس النفس البشرية أتيح لنا أن نوجِّه حياتها الوجهة التي نريد. ولقد تكلَّل سعيي بالنجاح في خلق عاطفة بين جوانح فتاة، تفصل بيني وبينها هوّة عميقة مظلمة. فأيّة وسائل جديدة تسمح لي أن أُذكي نيران تلك العاطفة؟ وذهلت عن صفاء السماء، وغفلت عن جمال الغابات، وروعة البراكين، وبهاء الربوع، وما عدت أرى غير العبارات النفسية المصبوبة في قوالب الحساب، والصيغ الخلقية المطبوعة، على غرار علم الجبر.

وتنازعتني حلول كثيرة أعددتها لليوم المرتقب، حيث أُصبح، في عزلة القصر، وجهاً لوجه أمام الآنسة «شارلوت». أيجدر بي، حين تعود، أن اصطنع عدم المبالاة، لأبلبل فكرها، ثم أحملها على التسليم بعامل الدهشة والألم، أم أُضرم نيران الغيرة في صدرها، بأن ألقي في روعها أن تلك الفتاة الروسية التي لا جود لها إلّا في خيالي، قَدِمت إلى «كليرمونت»، وأنها مابرحت تكتب لي، أم أضيف حلقات جديدة إلى سلسلة مكاشفتي لها، وأَدَّرع بالإقدام، دون تهيُّب؟

لقد أدرت هذه الفروض في ذهني، على التعاقب، وقلَّبت فروضاً أخرى، فكنت أقنع نفسي بأني لست مأخوذاً بحبِّها، وأن الفيلسوف يتسلَّط على العاشق، وأن شخصيتَّي القويّة احتفظت بسموِّها، واستقلالها، وصفائها.

وكنت أنحي على نفسي باللائمة، كلّما بدا من جانبي وهن، أو تخاذل لا يتمشّى وتلك التقديرات. فالحقّ أني كنت أستسلم للأحلام كلّما خلوت إلى نفسي، ورأيتني أمام صور شارلوت وقد ازدانت بها الحوائط، أو فوق الموائد، أو في غرفة «لوسيان». وكانت صور فوتوغرافية، بكافّة الأحجام، تمثِّلها وهي في السادسة، وفي العاشرة، وفي الخامسةعشرة، فأتيح لي أن أتابع تاريخ جمالها، من عهد الطفولة، إلى يوم صارت فتاة رائعة الجمال. وبدا لي أن ملامحها تتبدَّل، من صورة لأخرى، على أن نظرتها لم تتغيَّر أبداً. نعم، لقد ظلَّت نظرتها، وهي طفلة، كنظرتها وهي فتاة، تفيض جدّاً وخطورة، وحناناً وعطفاً، وتتكشَّف عن الشعور والحساسية. ولقد بسطت تلك النظرة سلطانها عليّ، وكلّما ذكرتها ثارت عواطفي. آه! لماذا لم أرفع أمامها راية التسليم؟ ولماذا حال كبريائي بيني وبين التمتُّع بها؟ لكن، لماذا كانت «شارلوت»، إلى جانب أخيها الكونت «أندريه»، في معظم تلك الصور؟ لقد كانت مراجل الحقد تغلي في صدري كلّما رأيت ذاك الرجل. ولمّا شهدته إلى جانب أخته، غاض الحنان من نفسي، ولم يعد فيَّ إلّا إرادة تعمل. وأيّة إرادة؟ الآن، قد اجترأت على أن أبوح بها لنفسي بعد أن أيقنت بوقوع ذاك القلب في حبائلي. نعم لقد كنت أريد أن أصبح عاشقاً لـ«شارلوت»، وما حملت نفسي على التفكير في النتائج، كما حملتها على إخماد ثورة الضمير لانتهاك حرمة بيت آواني. استجمعت أفكاري، وركَّزت في نفسي نظرياتي عن عبادة الذات، وسأظفر، من تلك التجربة، بطائفة من الانفعالات والذكريات. كذلك، كانت النتيجة الأدبية لتلك المغامرة. أمّا النتيجة المادّيّة فعودتي لأمّي بعد انقضاء مدّة التدريس. فإذا استيقظ الضمير في نفسي، وأهاب بي: «وشارلوت؟ وهل من حقِّك أن تتَّخذها مادّة لتجربتك؟»، تناولت كتاب «سبينوزا» فقرأت فيه النظريات

القائلة بأن حقَّنا محدود بقدرتنا، ثم تناولت كتابك «نظرية العواطف» فدرست فيه عباراتك عن الصراع بين الجنسَيْن في ميدان الحبّ. وكنت أقول لنفسي: «إن قانون العالم يقضي بأن كلّ وجود هو غزو ينفِّذه الأقوياء، ويحتفظون به على حساب الضعفاء، وذلك حقّ في العالم الأدبي، كما هو حقّ في العالم الطبيعي؛ فهناك نفوس جارحة، كما أن هناك ذئاباً ونموراً وبُزاة». وبدت لي تلك العبارة قويّة، طريفة، صادقة، فطبقتها على نفسي، وكرَّرت القول «أنا نفس جارحة، أنا نفس جارحة».

وما لبث كبريائي أن تبدَّد بحادث غير مرتقَب؛ فقد كتب المركيز يخبر أنه سيعود إلى القصر وحده. أمّا الآنسة «شارلوت»، التي ما برحت تتألم، فستظلّ في باريس عندي خالتها. وكنّا حول المائدة، حين حملت إلينا المركيزة ذاك النبأ، فانفجرت براكين غضبي على صورة كانت مثاراً لدهشتي، وغادرت العشاء تحت ستار الدعوى بأني أصبت بدوار مفاجئ. ولقد كنت أوشك أن أصيح، وأحطِّم الأدوات، وأترجم، بمظهر جنوني، عن ذاك الضرب من السُّعار الذي أثار ثائرتي. ففي وسط حمّى الغرور التي تملَّكتني منذ رحيل شارلوت، قدَّرت كلّ احتمال إلّا أن تكون تلك الفتاة من قوّة الخلق، بحيث لا ترجع إلى «إيدات».

لقد كانت وسيلتها إلى الفرار من شعورها هيِّنة ليِّنة، لكنها سامية ونهائية. وبذلك حبطت خطّتي، كما يحبط المدفع في إصابة عدوّ، تحصن بعيداً عن مرماه. وما عسى أن يكون سلطاني عليها، إذا كانت بنجوة مني؟ لا شيء، لا شيء على الإطلاق، ومالي أن ألحق بها. بدا لي عجزي، فأمضّ نفسي، وآلمَ شعوري، ومزَّق أعصابي، فنبابي الفراش، وتجافى جنبي عن المضجع، ولم أذق الطعام في الفترة التي مضت، بين ورود

الخطاب وقدوم المركيز نفسه.

وابتغيت أن أتبيَّن إذا كان ذاك العزم من شأنه أن يميت الأمل في صدري إلى غير بعث، وأن لا رجاء في عودة الفتاة، خلال شهر يوليو أو في غضون أغسطس وسبتمبر، فقد كان تعاقدي ينتهي في منتصف أكتوبر. كان قلبي يخفق، حين كنت أنا و«لوسيان»، في محطّة «كليرمونت»، نرقب قدوم القطار من باريس عند الساعة السادسة. فلمّا أعياني القلق التمست أن يؤذَن لي بالتقدُّم إلى المركيز. وأقبل القطار، وأطلَّ المسيو «دي جوسات» برأسه من النافذة، وأنا أوشك أن أفتح عينيه على العاطفة التي تتأجَّج بين جوانحي، إذ قلت:

والآنسة «شارلوت»؟، فصافحني بحرارة، وأجابني: «شكراً، شكراً، يقول الطبيب إنها مصابة باضطراب عصبيّ شديد.. ويلوح لي أن طقس الجبال لا يلائمها. لكن، كيف السبيل إلى ذلك وأنا لا أشعر بالصحّة إلّا في ربوعها؟! حقّاً، إن هذا لمؤلم، مؤلم جدّاً.. وأخيراً، سنجرب الاستشفاء بالماء البارد، في باريس، وربَّما جربناه، بعد ذلك، في «رجتز»..».

إنها لن تعود!. وإذا كنت قد أسفت على شيء- يا أستاذي العزيز- فإنما آسف اليوم على تلك الكراسة التي ألقيتها طعاماً للنيران، والتي كانت وثيقة قيمة لعلم النفس. وكيف لا، وقد كنت أضمِّنها آرائي، يوماً فيوماً، وأرسم فيها صورة صادقة لنفسيَّتي منذ صارحني المركيز، في مساء يوم من شهر يونيه، بأن ابنته لن تعود؟ وجرت الأمور على ذاك المنوال حتى كان شهر أكتوبر، فجاء ظرف غير مرتقب، فغيَّر مجراها. ولو اطَّلعت على تلك الكراسة، لراعك أن ترى فيها- كما ترى في مجموعة خرائط للتشريح

الخُلُقي- مصداقاً لتحليلاتك الرائعة عن الحبّ، والرغبة، والأسف، والغيرة، والحقد. أجل، لقد مضت أربعة شهور طوال، تقلَّبت، خلالها، في تلك المراحل جميعاً. فكتبت إلى «شارلوت» إيماناً مني بأن غيابها ينمّ عن حبِّها لي. وفي ذاك الكتاب، سألتها المغفرة عن تهجُّمي عليها في غابة «برادات».

على أني جدَّدت التهجُّم، على صورة أبشع وأشنع، إذ شفعت طلب المغفرة، بإماطة اللثام عن اليأس الذي ملك قلبي، حين أصبحت بعيداً عنها، فجاء الكتاب مكاشفة جديدة بالحبّ، هي أعظم جرأة من المكاشفة الأولى، فلم أكد ألقيه في صندوق الخطابات حتى تملَّكني الخوف، من جديد.

ومضت ثلاثة أيّام، ثم أربعة، ولم أتلقَّ جواباً. على أني كنت أخشى أن يُرَدّ إليّ كتابي دون أن يُفَضّ غلافه. وفي ذاك الحين، كانت المركيزة تعدّ عدّتها تأهُّباً للرحيل، لتلحق بابنتها. وكان لأختها بيت رحب في باريس، فاستطاعت أن تفسح فيه لتينك السيِّدتَيْن مكاناً. ولشدّ مااضطربت جوانحي كلّما كتبت ذاك العنوان الجديد؛ فقد قدَّرت أن خالة الفتاة لا تراقب رسائلها كما تصنع أمّها، وكان لابدّ لي أن أرقب وجود تلك الأخيرة في «إيدات»، فأضاعف الأثر الذي أنتجه خطابي الأوّل، لا محالة. فواليت إرسال الخطابات، كلّ يوم، إلى حين سفر المركيزة، وكانت كلّها مطبوعة على غرار الخطاب الأوَّل؛ أتهالك فيها وجداً عليها، وأكاد أطير شوقاً إليها، وأتحرَّق حبّاً بها.

وكانت رغبتي الملِحّة، في حمل «شارلوت» على العودة، أدنى إلى الخيال، وأبعد عن العقل، فقد علمت أنها كلّما جاءها كتاب منّي وتبيَّنت خطّي

على غلافه، ظلّت ساعات تصارع الرغبة في فضّه، لكنها- أخيراً- تفضّه، فتطالع تلك الصفحات التي تقطر سمّاً. وإذا كانت تجهل الاكتشاف الذي أزاح لي الستار عن سرّها، وكشف أمامي القناع عن شعورها، فلم تجد في نفسها حاجة إلى الدفاع حيال الرأي الذي يمكن أن أكوِّنه عنها، فما من شكّ في أنها كانت تبرِّر موقفها، وتتلمَّس لنفسها المعاذير عن قراءة كتبي،بدعوى أني أجهلها، وأجهل حبَّها الوليد.

ومسَّتْ تلك الكتب شغاف قلبها، فاحتفظت بها، وألفاها المحقِّقون تراباً في موقد غرفتها. إذ ألقَتْها طعاماً للنيران، ليلة موتها.

وقدّرت أثر تلك الكتب التي كنت أسطِّرها في جوف الليل، مسوقاً بأني أطلق مقذوفاتي الأخيرة. فكان موقفي شبيهاً بموقف من يطلق المقذوفات الناريّة وسط ضباب كثيف، إذ لم تبدُ إشارة تدلّني على أني، في كلّ مرّة صوَّبت فيها إلى تلك التي جعلتها هدفاً لرمياتي، كنت أصيبها في صميم القلب.

وفي بادئ الأمر، ظننت عدم الوثوق في صالحي. فلمّا غادرت المركيزة القصر لتلحق بابنتها، استحالت الكتابة عليّ، ووجدت، في صمت «شارلوت»، الدليل الناهض، لا على عدم حبِّها لي، بل على أنها تغالب ذاك الحبّ، ولسوف تغلبه، فقلت لنفسي: ينبغي لي أن أكفّ عن تلك المحاولات، فما أنا ببالغها. لقد انقضى كلّ شيء، ورفعت صوتي بتلك العبارة، إذ كنت وحيداً في غرفتي، أسمع كَرَّ العربية التي أقلَّت المركيزة. وقد صحبها المسيو «دي جوسات» و«لوسيان» حتى استقلَّت القطار، فقلت في نفسي: «نعم، لقد انقضى كلّ شيء، وماذا يضيرني، ما دمت لا أحبّها؟»، فهدأت

ثائرتي، ولم أشعر إلّا بشيء من الضيق الذي يشعر به المغيظ المحنق. ثم بادرت إلى الخروج، لأزحزح الكابوس الجاثم فوق صدري، ويمَّمت شطر المكان الذي صارحت فيه «شارلوت» بحبّي، وحملت معي كتاباً جديداً تلقّيته، هو ترجمة خطابات «داروين»، لأقنع نفسي بأن عقلي بات حرّاً طليقاً. كان الجوّ ملبَّداً بالسحب، إلّا أن الطقس حارّ، وكأنما كانت تهبّ رياح السموم فتلفح تلك الاشجار النضرة. وكلّما أمعنت في السير، عصفت تلك الرياح بأعصابي، وأحببت أن أعزو إليها ما أعاني من ضيق وحَرَج. وبعد جهد اهتديت، إلى حيث كنّا نجلس («شارلوت» وأنا)، واخترت أن أطالع كتابي، فجلست وفتحت الكتاب، فما إن قرأت بضعة أسطر حتى ساورتني الذكريات وطغت على مشاعري، وكأني أبصر الفتاة، على تلك الصخرة، وهي تنسِّق أزهارها، ثم أراها ناهضة ومستندة إلى جذع الشجرة، ثم أشهدها مروَّعة مذعورة، تلوذ بأذيال الفرار فوق الأعشاب، فأحسست الألم يطغى على قلبي رويداً رويداً، فيحبس أنفاسي، ويستدرّ دموعي. وهالني أن أرى تلك الفتاة قد شغفتني حبّاً، فلم يعصمني من حبّها ما أوتيت من قوّة على البحوث الفلسفية، وقدرة على التحليلات النفسية- الفتاة التي لا يضمّها هذا المكان، ولن تراه بعد الآن.

فلمّا تجلّت لي تلك العاطفة المنافية للخطّة التي رسمتها لمغامرتي، ثرت عليها، وعلى خيال الفتاة التي كانت مبعث ألمي. فلم يكن يمضي يوم لا أرجع فيه على نفسي باللائمة لذاك العار الذي أصابني، والخزي الذي لحقني، إذ تردَّيت في الهوّة التي حفرتها، واضطربت في الشباك التي نصبتها. وما إن ذكرت موقفي حتى فاض قلبي حقداً ومرارةً على تلك النائية التي باتت مصدر شقائي.

وليس أدلّ على حقدٍ من ذاك الاغتباط الشائن الذي غمر قلبي، حين تلقّى المركيز خطاباً من باريس، فلمّا قرأه اكفهرَّ وجهه، وقطَّب جبينه، وتنفَّس الصعداء قائلاً: «إن «شارلوت» ليست بخير»، فشعرت بعزاء ناقص، تعس، ولكنه عزاء، في كلّ حال، إذ استطعت أن أقول لنفسي: إني، أنا الآخر، قد جرحتها جرحاً مسموماً لا يلتئم إلّا بعد حين. وخُيِّل إليَّ أني أثأر لنفسي منها، إن هي ظلت تتألَّم، وبرئتُ أنا من دائي، فأهبتُ بالفيلسوف الذي يتبدّى في ثيابي، ليظفر بالعاشق الذي يضطرب بين جوانحي، وعدت إلى منطقي القديم، فقلت: «هناك نواميس للنفس البشرية، أعرفها تمام المعرفة. على أني لا أودّ أن أطبِّقها على «شارلوت»، لأنها فرَّت مني؛ أفأعجز عن تطبيقها على نفسي؟»، ثم أعملت الفكر في هذا السؤال: «هل هناك دواء لداء الحبّ؟، فأجبت نفسي: «نعم، هناك أدوية، وسأجدها»، فأعانتني طبيعتي، في التحليل الشبيه بالتحليل الحسابي، على البرء من دائي، وعمدت إلى تحليل المسألة إلى عناصرها كما يصنع علماء الهندسة، فتساءلت: «ما هو الحبّ؟» وأجبت نفسي بتعريفك: «الحبّ هو الضيق الناشئ عن التفكير في الجنس». والآن، كيف السبيل إلى مغالبة ذاك التفكير الملازم؟ لا سبيل إلى تلك المغالبة إلّا بالتعب الجسماني الذي يقف، أو- على الأقلّ- ينقص من عمل الفكر. فأكرهت نفسي، وأكرهت تلميذي معي، على المشي البعيد. فإذا أقبل اليومان اللذان لا يتلقّى فيهما دروساً، وهما الأحد والخميس، سرت وحدي حين يتنفّس الصبح، بعد أن أدلّ على الزمان والمكان اللذين يلحقني فيهما «لوسيان»، بالعربة. وكنت أوصي بإيقاظي حوالي الساعة الثانية، فأبرح القصر قبل أن ينبثق الفجر، وأضرب في الأرض على غير هدى، وأختار الطريق الوعر، وأتسلَّق الجبل الصعب المرتقى، الشديد المنحدر. ولكم قامرت برأسي، وجازفت

بحياتي. وعرّضت للتهشيم أعضائي، وللتحطيم أشلائي. وكنت أسير، والليل مدبر. فإذا انبثق نور الفجر، شعرت بزمهرير الصباح كوخز الإبر في وجهي، ورأيت الكواكب تحتجب، والشمس ترسل أشعّتها على الأزهار والأشجار والأعشاب، فتخلع عليها حلّة وردية وهّاجة. وكنت أرجو، بذاك السير المضني، والصعود المنهك، أن أوقظ في نفسي روح أجدادي، روح أولئك الذين كانوا يأوون إلى المغاور والكهوف؛ فما أنا إلّا مؤمن بعصر ما قبل التاريخ، وما أنا إلّا مصدِّق أن الوحش الضاري يكمن تحت أثواب الإنسان المتمدين. وهل انحدرت إلّا كما انحدر غيري من تلك الوحوش الضواري؟ فلمّا ثارت تلك الخواطر في نفسي، بلغت حَدّ الهذيان، فلم يكن ذاك السلام الذي أتطلَّبه، ولا السرور الذي أنشده، بل كانت ذكرى علاقتي بـ«شارلوت». ولقد كنت أذكرها كلّما اجتزت طريقاً اجتزناه معاً، أو شهدت صفحة ماء البحيرة من قمّة الجبل، أو لمحت شرفات القصر، أو رأيت أوراق الأشجار، أو قرأت اسم قرية، كُتِب على لوحة قرأتها «شارلوت» من قبل. نعم، كان كلّ أولئك يثير ذكراها في نفسي، ويحزن قلبي ألّا أراها إلى جانبي. وكأني كنت أسمع صوتها العذب، وهي تقول لي: «انظر...» كما كانت تقول ونحن معاً في ربوع الجبال، تحت ذاك الأفق، وقد غطَّت الثلوج الأرض لكن زهرة جمالها الحيّة كانت تفتح أكمامها. والآن والأرض تكسوها الخضرة، عز عليَّ أن أرى فوقها الزهرة الحيّة، فأحسست الوجد لفراقها. وبخاصّة أن «لوسيان» كان غائباً، وقد ألف أن يحدِّثني عنها، في كلّ حين. كان يحبّها، ويعجب بها، ويدلّني على أنها خليقة بالحبّ، جديرة بالإعجاب. وقضيت الليالي مسهّداً، أبكي وأنتحب، وأهتف باسمها هتافاً عالياً، كأنما أصابني ضرب من الجنون.

فلمّا لم أجد الدواء في إنضاء الجسد قلت لنفسي: «إن الفكر هو مبعث آلامي، فلنهاجم الفكر بالفكر...» وكان عهداً ثانياً، حاولت خلاله أن أغيّر اتِّجاهي العقلي، فأقبلت على الدراسة التي لا تمتّ بِصِلة إلى المسائل النسائية. وفي أقلّ من خمسة عشر يوماً، راجعت، والقلم في يميني، مئتَيْ صفحة من كتاب «علم وظائف الأعضاء» لــ«بونيس»، وهو الكتاب الذي حملته في صندوقي، وكانت أوعر الصفحات مسلكاً، وأعسرها فهماً، وأشدّها جفافاً، تلك الخاصة بكيمياء الأجسام الحيّة. وبذلت جهوداً جبّارة في سبيل أن أفهم وألخِّص تلك التحليلات، التي تتطلَّب المعمل، فأخمدت شعلة ذكائي، وأطفأت جذوة تفكيري، وبتّ كالأبله، وما استطعت أن أقاوم الفكرة الثابتة، فأيقنت أني ضللت الطريق، مَرَّةً أخرى. أفلم تكن الطريقة المثلى هي التي كان ينادي بها «جوته»: تسليط الفكر على الألم الذي يراد الخلاص منه؟ فهذا العقل الجبّار، الذي عرف كيف يعيش، قد وَضَع، موضعَ التنفيذ، النظريّة التي أوضحها «سبينوزا» في كتابه الخامس، والتي تنادي بأن نستخلص، من حوادث حياتنا الشخصية، القانون الذي يصل بينها وبين الحياة العظمى للكون. ولقد نصحنا المسيو «تين»، في الصفحات البليغة التي كتبها عن «بيرون»، بأن «نفهم أنفسنا»؛ رجاء أن «ينتج ضوء العقل هدوء القلب». وماذا تقول أنت- يا أستاذي العزيز- في مقدِّمة كتابك «نظرية العواطف»؟ ألست القائل: «لا سبيل إلى تحرير النفس إلّا باعتبار مصيرنا الشخصي مرتبطاً بنواميس الطبيعة»؟ وهل أكتب هذه المذكِّرة إلّا في ضوء تلك المبادئ؟ وهل تجديني هذه المبادئ اليوم، وهي لم تُجْدِني بالأمس؟

لقد حاولت، في ذلك العهد، أن ألخِّص تاريخ حبّي لــ«شارلوت»، فافترضت

شابّاً يستشير عالماً من فطاحل علماء النفس. فانظر كيف تحقِّق المصادفات المحضة أحلامَنا المتلاشية! والعالِم يشخِّص للشابّ الداء، ويصف له الدواء. وكتبت تلك القطعة خلال شهر أغسطس تحت تأثير جوّ حارّ، وكرّست لكتابتها حوالي خمس عشرة جلسة، تبدأ في الساعة العاشرة مساءً، وتنتهي عندي الساعة الأولى صباحاً، والنوافذ مفتوحة، والفراش يتهالك على مصباحي. وبدأ القمر يرسل أشعّته الفضِّية على صفحة الماء في البحرية. فألقيت القلم من يدي، وأخذت أتأمَّل جمال الطبيعة، وشعرت بأن السعادة لا تتمّ لي إلّا إذا كانت «شارلوت» معي، في تلك الغرفة، جالسةً على هذا المقعد، أو نائمةً في ذاك الفراش، يصافح جمسها جسمي، وتعانق روحها روحي، ويلاقي شبابها شبابي.

فلمّا ضاق صدري، التمست من المركيز أن يمنحني إجازة، فمنحني ثمانية أيّام، قضيتها في «كليرمونت». وما لبثت أن تبرَّمت بالحياة فيها، وتاقت نفسي إلى العودة إلى القصر؛ فهناك، يتاح لي أن أعيش بين ذكرياتي. وما إن قدمت حتى عاجلني المركيز بنبأ انقضَّ عليَّ انقضاض الصاعقة.

فلم يكد يراني حتى قال لي: «نبأ سارّ: إن صحة شارلوت قد تحسَّنت.. ونبأ آخر سارّ.. أنها ستتزوَّج... نعم، لقد ارتضت أن تكون زوجة لمسيو «دي بلان» الذي أبت أن تتزوَّج منه قبلاً، وهي، الآن، راضية عنه كلّ الرضا...»، ومضى في كلامه، معرِّجاً على نفسه، كعادته المألوفة، فقال: «أجل، هذا نبأ سارّ، فأنت ترى أني أصبحت في آخر مرحلة من مراحل العمر...».

ولقد كان في وسعه أن يفيض في الكلام عن آلامه الموهومة، وأمراضه

المزعومة، وأن يسهب، ما شاء له أن يسهب، في التحدُّث عن معدته، ونقرسه وأمعائه، وكليتيه، ورأسه، فما كنت لأصغي إليه إلّا كما يصغي المحكوم عليه إلى سجّانه. وتمثَّلتُ الحقيقة، في تلك اللحظة، أمام عيني، هائلةً رهيبة. وأنت الذي كتبت الصفحات الرائعة عن الغيرة والأثر الدامي الذي تتركه في خيال العاشق، حين يمرّ في خاطره أن خصمه قد داعب من يتعشَّقها، تستطيع أن تقدِّر أيَّ سمّ أفرغه ذاك النبأ في جرح قلبي. فلقد مضى شهر مايو، وانقضى من بعده يونيه، وكَرَّ، في إثرهما، يوليو وأغسطس وسبتمبر. مضى حوالي خمسة أشهر منذ سافرت «شارلوت»، وهذا الجرح، بدل أن يلتئم، أخذ يتَّسع شيئاً فشيئاً، ويتسمَّم رويداً رويداً، حتى مسَّه النبأ الأخير، فأجهزَ عليّ. وما عدت أستطيع أن أقول لنفسي أنها تشاطرني آلامي، فعزَّ عليّ، حتى ذاك العزاء القاسي. أفلا يدلّني هذا الزواج على أنها قد برئت من حبّها لي، على حين أني مازلت أتهالك وجداً عليها؟ وثارت ثائرتي حين ذكرت أن ذاك الحبّ الوليد الناشئ، قد انْتُزِع مني انتزاعاً، في الساعة التي كنت أستطيع أن أتعهَّده حتى ينمو ويترعرع، فأجْني ثماره الناضجة.

وأنحيت على نفسي باللائمة، إذ لم أهجر كلّ شيء بعد رحيل «شارلوت»، ولم أتبعها رغم المال الضئيل الذي أملكه. لكن، «سبق السيف العذل». وقد أراها في باريس؛ إذ كنت أعلم أن المسيو دي بلان يمضي إجازته فيها، تستقبل خطيبها في شبه خلوة ترتفع فيها الكلفة، تحت سمع المركيزة وبصرها، وأن ابتسامات «شارلوت» التي تشعّ نوراً، ونظراتها التي تفيض عطفاً وحناناً، ووجهها الذي يتدفَّق حياءً وعفافاً، وإيماءاتها الحلوة، وصوتها العذب- كلّ أولئك قد بات ملكاً لذاك الرجل. وهل من

شكّ في أنها تحبّه، بعد أن رضيت الزواج منه؟ وبدا لي المسيو «دي بلان» في صورة الكونت «أندريه»، وشعرت بأثر هذا الأخير في مسألة الزواج، فتأجَّجت نيران الحقد عليه، وعلى خطيب أخته، وشملت هذين الضابطين النبيلَيْن بكراهيّتي وبغضي.

وما برحت أحمل ذاك الغضب الصبياني الفارغ، فأختلف إلى الغابة. وكانت الطيور تتجمَّع تأهبُّاً للرحيل، فقد بدأ عهد الصيد، وباتت تروِّعها طلقات الصيّادين، فتطير كما طار العصفور الذي شُغِلت باصطياده زماناً. ورأيت الأعناب قطوفها دانية، فذكرت أني حُرِمت الثمرة ساعة نضوجها. وكذلك كنت أنقِّب في ثنايا الطبيعة عن رموز لحبّي. وكأن آلامي قد أبرأتني من فلسفتي إلى حين، فما صرت نهباً للذكريات تارةً، واليأس تارةً أخرى، كما كنت في تلك الأيام الأخيرة لانقضاء عهد التدريس. وفي الواقع، أعلن المركيز عزمه على تقريب يوم رحيله، وقال لي، وقد نسيَ مرضه، واستخفَّه الطرب: «إني أحبّ صهري الجديد حبّاً يقرب من العبادة... وكنت أودّ أن تعرفه... إنه وفيٌّ مخلص، شجاع، طيِّب القلب، عزيز النفس، تجري في عروقه دماء النبل والشرف. وأخيراً، هل تفهم أحوال النساء؟ هاك واحدة منهنّ ليست أقلّهنّ عقلاً، وأضعفهنّ إدراكاً. تقدَّمَ إليها منذ عامين، فقالت: كلّا. فطار صواب ابني، ولم يعد إلينا إلّا وهو بين الحياة والموت. ثم بعد الرفض القبول، وبعد كلّا، ونعم... ولعلَّك تعلم أني ظننت، دائماً، أن بعض الحبّ هو منشأ مرضها العصبي. وكنت أقول لنفسي: إنها تحبّ شخصاً... ولقد كان هو! وما عسى أن يحصل لو أنه رغب عن زواجها؟».

هذا ما وعته الذاكرة من محاضرة المركيز، على أنه يوضِّح لك كيف أدمت

الحادثات قلبي. كلّا، لم يكن المسيو «دي بلان» هو الذي أحبَّته «شارلوت». إلّا أنها أحبَّتْ، وما في ذلك شكّ. ولقد ضرب الدهر بيننا بضرباته، فافترق مصيرها عن مصيري، وإلى الأبد!

وسيحيا البارون «دي بلان» حياة النعيم والخيلاء، في باريس، فتتَّسع مسافة الخلف بين نعيمه وشقائي. ما كنت أجهل حياتي المقبلة، فقد تمثّلت لي حياتي في الغرفة الصغيرة في شارع «بيار»، وتراءت أمامي الطرق الثلاثة المفضية إلى الجامعة، وكأني كنت أجتاز دار المجمع العلمي، فأبلغ قاعة المحاضرات، فأستمع إلى الأساتذة وهم يناقشون رسائل الطامحين لنيل الإجازات العلمية، والإجازات الأدبية. وأظلّ في الجامعة ساعة ونصف الساعة، ثم أنقلب إلى بيتي، حاملاً حقيبتي على ذراعي. وأبقى على تلك الحال عاماً كاملاً، إذ لم أكن قد أخذت الأهبة لتأدية الامتحان لنيل إجازة الآداب. وكنت أتمثّل أبوَيْ «إميل» الصغير، يطلّان من النافذة، والمسيو «ليماسيه» يطالع الصحف في جانب القهوة، والناس يغدون ويروحون، والسيارات العامّة تنساب في الطرقات. نعم، لقد انحدرت- يا أستاذي العزيز- إلى مستوى تلك العقول التي تتشبَّث بمظهر الحياة الخارجي، فلا تبلغ روحها، ولا تنفذ إلى صميمها.

وفقدت إيماني القديم بسمّو العلم وتفوُّقه، حيث تكفي غرفة صغيرة، لا تجاوز مساحتها ثلاثة أمتار مربَّعة، يشرف منها «سبينوزا» أو «أدريان سكست» على العالم، فيتفهّمه ثم يتملَّكه. آه! لقد كنت وضيعاً في فترة الطماعية العاجزة، والحبّ المقهور! ولكم تسخَّطت على تلك العلوم التجريدية، التي سأستأنف دراستها. ولكم وددت، اليوم، أن يكون ذلك مصيري، وأن أكون الطالب الفقير المنتسب إلى جامعة الآداب في

«كليرمونت»، المقيم لدى والد «إميل»، تلميذ «ليماسيه»، عابر الطرقات الحالكة الظلام، وهو عابس متجِّهم، على أن أكون بريئاً! بريئاً! وأن لا أكون ذاك الذي اجتاز ما اجتزت، وما ينبغي أن أفضي به.

الأزمة الثالثة

شعر «لوسيان» بألم في غضون شهر سبتمبر، عزاه الطبيب، في بادئ الأمر، إلى مجرَّد إصابته بالبرد. وما مضى يومان حتى تضاعفت أعراض المرض، فاستقدموا طبيبَيْن، من «كليرمونت»، على عجل، فقالا إنه مصاب بحمّى لا تُخشى عواقبها. ولو لم أكن مأخوذاً بتلك الفكرة الثابتة، التي جعلتني، في ذلك العهد، كالمصاب بدخل في عقله، لملأت كرّاستي بالملحوظات. فما كان على إلّا أن أتابع تطوُّرات عقل المركيز، والصراع الناشب في قلبه، بين مرضه وحبّه الأبويّ؛ فتارةً كنت أراه- رغم آراء الأطباء المطمئنة- قلقاً على ولده، يسهر عليه طوال الليل. وتارةً كان يفزع من سريان العدوى إليه، فيلزم الفراش، ويشكو آلاماً وهميّة، مترقِّباً قدوم الطبيب. ولطالما حسب أن أعراض المرض خطيرة، حتى ليطلب أن يعوده الطبيب أوّلاً، ثم يتولّاه الخجل من هذا الذعر المستولي عليه، ويتجلّى فيه شرف المحتد، فينهض من فراشه، ويصبّ اللعنات على الضعف الذي يجره السنّ في ذيوله، ثم يسارع إلى وسادة ابنه. وكان أكبر همّه أن يخفي على المركيزة- كما يخفي على «شارلوت»، والكونت «أندريه»- مرض الغلام. على أنه،

بعد أسبوعين، قضاهما موزَّعاً بين الغيرة والفزع، خمدت همَّته، ونفد نشاطه، فشعر بالحاجة إلى وجود امرأته إلى جانبه لتشدّ أزره، وبلغ من اضطراب فكره أن عمد إلى أخذ مشورتي.

وقد وختم قوله بتوجيه ذاك السؤال إليّ: «ألّا ترى أن هذا هو واجبي؟».

إن هناك نفوساً طُبِعت على الكذب- يا أستاذي العزيز- وبرعت في تبرير أقبح الأعمال بإشراف البواعث. ولو كنت في عدادها لعزوت لنفسي الفضل في الإصرار على عدم دعوة المركيز لامرأته. حقّاً، لقد كنت أعلم مرمى جوابي، وأقدِّر مبلغ القرار الذي سيتَّخذه المسيو «دي جوسات». كنت أعلم أنه إذا أخطر المركيزة فستقدم بأوَّل قطار، وكنت أعرف «شارلوت»، حتى أصبحت على ثقة بأنها قادمة معها، لا محالة. وإذ ذاك أراها، فأوقظ الحبّ الناشئ في قلبها، وقد لمست دليله بيدي.

وكنت أستطيع أن أعدّ نصيحتي إلى المركيز بأن يدع مدام «دي جوسات» هانئة في باريس، إخلاصاً من جانبي. نعم، لقد كان لي مظهر ذاك الإخلاص، ولماذا؟ لأني إذا لم أكن مقتنعاً بأن لكلّ سبب مسبِّباً، وأن كلّ إخلاص تشويه للأنانية، لجاهرت بأن من أبشع الأمور أن استغلّ أنبل شعور في سبيل عاطفة مجرمة، وأسخِّر، لأهوائي، شعور أخت حيال أخيها. وإليك الحقيقة المجرَّدة:

لقد كنت على يقين، حين حاولت أن أصرف المركيز عن فكرته، من أن كلّ مجهود في سبيل الاستيلاء على قلب «شارلوت» ذاهب في الهواء، وكنت أرقب، في ثنايا تلك العودة، إذلالاً محقَّقاً لكبريائي. ولشدّ ما ضعضعت قواي تلك الحرب النفسية التي ظلَّت مشبوبة النيران، طوال تلك الشهور،

حتى أخلقَت جدّتي، وأطفأت شعلة ذكائي، فلم أعد قادراً على تدبير خطط جديدة، وما كان لي فضل ما في أن أصوِّر للمركيز المضارّ، بل المخاطر التي يمكن أن تنجم عن إقامة هاتَيْن السيِّدتين في القصر، على كثب من مريض، قد تسري عدوى مرضه إليهما.

فأجابني: «وأنا؟ أو لست أعرِّض نفسي للعدوى، في كلّ حين؟ لكنك على حقّ فيما يختصّ بـ«شارلوت»، وسأكتب إني لا أودّ حضورها...».

ومضى يومان، ثم تلقّى المركيز برقيّة، فقال لي: «آه! يا «جرسلو»، ذلك ما صنعتا بي. اقرأ...»، وقدَّم لي البرقية المؤذنة بقدوم الآنسة «شارلوت» مع أمّها، وقال بصوت متهدِّج: «من الطبيعي أنها آثرت الحضور، دون أن تفكِّر في أني لست بحاجة إلى تلكم الانفعالات».

وكان المركيز يخاطبني على تلك الصورة عند الساعة الثانية بعد الظهر. كنت أعلم أن القطار القادم من باريس يقوم في الساعة التاسعة مساءً، ويصل إلى «كليرمونت» حوالي الساعة الخامسة صباحاً، فذاك هو القطار الذي أخذته حين عودتي من الرحلة التي تعرَّفت إليكَ فيها. وقدرت أن مدام «دي جوسات»، والآنسة «شارلوت» تستقلّان العربة، فتبلغان القصر قبل الساعة العاشرة، فأمضيت ليلةً ليلاء، إذ تجرَّدت من سند الفلسفة، وأمسيت مخلوقاً فاقد الهمة، مهزول الإرادة، ضحّيّة كلّ صدمة، وفريسة كلّ هزّة عصبيّة. على أن حسن التقدير هداني إلى حلّ موفَّق سعيد، وقد أسلفت لك أن أجل تعاقدي ينتهي في 15 أكتوبر، وكنا في الخامس من ذاك الشهر. دخل الغلام في دور النقَه، وأضحت أمّه وأخته إلى جانبه، وبات في وسعي أن انتحل أيّ عذر لأرجع إلى أهلي، دون أن أشعر بشيء من وخز

الضمير. أجل، لقد بات ذلك في وسعي، لا بل من واجبي؛ حفاظاً على كرامتي وإيثاراً لراحتي. ومضت ليلة، لم أذق فيها طعم النوم، ولمّا أقبل الصباح صحَّت عزيمتي على الرحيل، ولمَّحْت للمركيز بعزمي، فلم يدعني أتمّ كلامي، إذ تملَّكه الاضطراب لقدوم ابنته، وقال لي: «حسن. فيما بعد، فيما بعد. أما الآن فليس في ذهني متَّسع للتفكير في شيء... با للضيق! لقد أدركتني الشيخوخة مسرعة.. ثم إني أتلقّى الضربات تباعاً..».

ومن يدري، فلعلّ مصيري كان معلَّقاً في ميزان القدر، حين أبى المركيز أن يصغى إليّ؟ ولو أني خاطبته في تلك اللحظة، فضربنا موعداً لرحيلي، لرأيتني مكرهاً عليه. في حين إن مجرَّد حضور «شارلوت» قد استبدل بالرحيل البقاء، كمصباح حُمِل إلى غرفة مظلمة، فأبدل بالظلمات النور، في الحال. وأوكِّد لك أني كنت على ثقة من أنها أصبحت لا تلقي إليّ بالاً، على حين أمسيت أجتاز أزمة نفسية، مبعثها الكبرياء الجريح، والشهوة الجامحة، لا الحبّ الصادق.

وما كدت أراها تهبط من العربة، حتى تجلّى لي كيف يثير حضوري اضطرابها، ويعصف حضورها برشدي. وتبينت أمرين: أوَّلهما استحالة مغادرتي القصر ما بقيت فيه، أمّا ثانيهما فإدراكي لمعاناتها كما عانيت، بل أشدّ. إذاً، لم يخطئ تقديري حين ألفيت الأزهار في المظروف غداة رحيلها، فقد كان في وسعها أن تفرّ من وجهي، تحدوها شجاعة صادقة، وأن لا تجيب على رسائلي، بل لا تلقي عليها نظرة، وإن تعقد خطوبتها لتقيم بيننا سدّاً منيعاً، وتحفر هوّة، لا يمكن اجتيازها بحال، وأن تؤمن، بينها وبين نفسها، أنها باتت لا تحبّني، وأن تعود إلى القصر مليئةً بذاك الإيمان. على الرغم من كلّ أولئك، كانت تحبّني.

وما كنت بحاجة، كي أتعرَّض إلى هذا الحبّ، أن أعمد إلى التحليل النفسي الذي طالما شغُفت به، وكثيراً ما خانني. فلقد قرأت ذاك الحبّ مسطوراً في عينَيْ تلك الصبيّة، كما تقرأ أنت تلك الكلمات التي أسطِّرها إليك. رأيتها، في ثياب السفر، بيضاء مثل بياض الورق. وكان حقّاً عليّ أن أعلِّل ذاك الشحوب الذي عرا وجهها، بالسأم الذي تملَّكها طوال الليلة التي قضتها في عربة القطار، والاضطراب الذي استولى عليها لمرض أخيها. فلمّا التقت نظرتها بنظرتي، أحسست بالاضطراب في عينيها، وكان يمكن أن يُعَلَّل ذلك بحيائها الذي خُدِش. وباتت ضعيفة متخاذلة، فلما صارت إلى البهو، خلعت معطفها، فرأيت أن ثوبها، الذي عرفته في العام الماضي، أصبح فضفاضاً عليها. لكن، ألم تكن مريضة؟ آه! لقد شعرت، أنا الذي طالما صدق طريقة البحث الفلسفي، وآمن بأساليب الاستنتاج العلمي، والتدليل العقلي، بالقوّة القاهرة للغريزة! لقد كانت تحبُّني دائماً، بل لقد تضاعف حبُّها لي. وماذا يضيرني إذا لم تكن قد صافحتني حين التقينا لأوَّل مرّة، أو خاطبتني إذ رأتني في البهو، أو التفتت وهي ترتقي وأمَّها السلَّم؟

لقد كانت تحبُّني. ولمّا ثبت ذاك اليقين في نفسي، بعد فترة قلق واضطراب، غمر شعور الفرح قلبي إلى حَدّ الألم، فبادرت بالصعود إلى غرفتي. وماذا أنا صانع؟ فاعتمدت على مكتبي، وأسندت رأسي إلى يديّ، وآليت ألّا أرحل، وألّا ينقضي ما بيني وبين «شارلوت». وفي الحقّ، لقد دنت الساعة التي يقال فيها أن الجهود التي بُذِلت من الجانبين، والنضال الذي جرى وراء ستار، والرغبات المكبوتة، قد آذنت أن تسوقنا إلى أعماق الهاوية. أجل، لقد كنت أشعر باقتراب مأساة فاجعة، لا سبيل إلى الفرار

منها، فقد كانت شارلوت مكرهة على أن تراني. وقد التقينا عند فراش أخيها، يوم حضورها، إذ كان عليَّ أن ألازم المريض الصغير، حين وافت الساعة الحادية عشرة. نعم، لقد وجدتها تتحدَّث إليه، في الوقت الذي كانت المركيزة تسائل الأخت «انكليه»، فوقفتا تهمسان إلى جانب النافذة. ولقد كتموا عن «لوسيان» قدوم السيِّدتين، فما إن رآهما حتى ارتسمت الابتسامة على وجهه الشاحب، وبدت في إشاراته العصبية، أمارات الفرح المشوب بالتأثُّر والانفعال، شأن الذين يجتازون دور الإبلال من المرض. فحَيّاني بابتسامة مرحة انطبعت على فمه، ثم أخذ بيدي وقال لأخته:

«لو كنت تعلمين كم كان المسيو «جرسلو» يحنو عليَّ طوال هذه الأيام!».

فلم تُحِرْ جواباً. على أني رأيت يدها، فوق الوسادة إلى جانب خدّ أخيها، وهي ترتجف. وبذلت جهداً كي تنظر إليَّ نظرةً لا تشفّ عن عواطفها. وكان لمظاهر التأثُّر والانفعال، التي بدت على وجهي، أثر في نفسها. واستشعرت أنها إذا لم تحفل بتلك العبارة البريئة التي انحدرت من فم الغلام الصغير، فقد تؤذي شعوري، وتجرح عاطفتي. فقالت، وهي لا توجّه القول إليّ، بصوتها العذب، الذي تختلج فيه خفقات قلب مضطرب:

«نعم، إني لأعلم ذلك، وإني لأشكره عليه. ونحن جميعاً نشكره...».

ولم تزد كلمة واحدة. وهذا الحديث البسيط جعل التأثُّر يأخذ منها كلّ مأخذ، فلو أني أخذت بيدها، في تلك اللحظة، لخرَّت مغشيّاً عليها. فتمتمت بجواب مبهم، كقولي: «هذا طبيعي» أو بما يشابه ذلك. وما استطعت أن أحتفظ برباطة جأشي. واستأنف «لوسيان» الحديث، وهو لا يشعر بتبدُّل لهجة أخته، ولا باضطرابي:

«أفلا يحضر «أندريه» ليراني؟»، فأجابته: «إنك تعلم أنه باقٍ في فرقته».

– فقال الغلام: «ومكسيم؟».

وما كنت أجهل أن ذاك هو اسم خطيب الآنسة «شارلوت». وما كادت تلك الكلمة تنحدر من فم المريض، حتى فارقها شحوب وجهها، وتدفَّق الدم في جوانبه. ثم كانت فترة صمت، فقال الغلام وقد عرته الدهشة:

«نعم، «مكسيم»؟.. أفلا يأتي هو الآخر؟...»، فأجابت شارلوت: «إن مسيو «دي بلان» قد لحق بفرقته».

وإذ نهضت بغتةً، فقد سألني «لوسيان»: «أو تصعد، الآن، يا مسيو «جرسلو»؟»، فأجبته: «سأعود، فقد أغفلت كتاباً فوق مكتبي...». ثم خرجت تاركاً «شارلوت» إلى جانب فراش أخيها، شاحبة اللون، مطرقة الرأس.

آه، يا أستاذي! إني بحاجة لأن تصدِّقني فيما سأفضي به إليك. وأرجو ألّا تشكّ في إخلاصي، رغم تذبذب قلب استعصى فهمه حتى عليّ. وأؤكِّد أني ما كنت أصطنع الكذب، في ذلك الحين. صدِّقني. فما كان في نهوضي شيء من التمثيل المسرحي، حين ذُكِر أمامي اسم الرجل الذي بات مالكاً لـ«شارلوت»، وما فاضت دموعي تمثيلاً، حين اجتزت الباب، ولا ذرفت عيناي تصنُّعاً طوال الليلة التي قضيتها مسهَّد الجفن، لا يطمئنّ جنبي إلى مضجع، ولا سالت عبراتي تكلُّفاً إذ ملك اليأس قلبي، حين تجلّت أمام عيني تلك الحقيقة الهائلة الرهيبة، وهي أنها تحبّني وأنا أحبّها، لكنها لن تكون لي، ولن أكون لها. وما كان ألمي هزلاً، حين كنت أشعر بالألم لمرآها.

إن وجهها المهزول، وطيفها الناحل، وجفونها الفيّاضة بالألم، كلّ أولئك

بات كفيلاً بإثارة الاضطراب في نفسي. وإن شحوب لونها كان يحزن قلبي، وضمور خصرها يثير غرامي، وكأنما كانت عيناها تقولان: «لا تتكلَّم... إني أعلم أنك تَعِس مثلي، وأن من القسوة، بل من تحجُّر القلب، أن تلوم، أو تشكو، أو تكشف عن جرحك». قل إني كنت حسن النيّة خلال تلك الأيّام، وإلّا لما تركتها تمرّ دون أن أقدم، وقد كانت الساعات الباقية لي معدودة. على أني لا أذكر إلّا مشاعر مضطربة، وآلاماً ممضّة، وددت أن أضع حدّاً لها، فآثرت الموت على الحياة، وفكَّرت في الانتحار..

فأنت ترى أني كنت أحبّ حبّاً صادقاً، في تلك اللحظات. وقد ذابت جهودي، وسط لهيب تلك العاطفة، كما يذوب الرصاص في الموقد، وأصبحت أوثر الاستشهاد في ذاك السبيل. وما كان خاطر الموت الذي خطر لي، وتمخَّضت عنه أعماق نفسي، ولا كان تهالكي على أن أصبح تحت أطباق الثرى جسداً هامداً، إلّا نتيجة محتومة لمرض الحبّ الذي أبدعت- يا أستاذي العزيز- في دراسته، أيّما إبداع. لا أنسى أن غريزة التدمير تتمشّى في نفس الإنسان، جنباً إلى جنب، مع غريزة الجنس. ولقد تجلّى ذلك لناظري من السأم الذي لا نهاية له، السأم من أن يشعر المرء دون أن يجد السبيل إلى التعبير عن شعوره. ولو شئت الدليل عليه لوجدته في ذاك الألم الذي كان يشعّ من عينَيْ «شارلوت» حين كانت تلتقي نظراتها بنظراتي.

وما كنّا على انفراد، أبداً، إلّا في قاعة الاستقبال، بضع لحظات، يسود خلالها صمت عميق. وكان يستحيل الكلام كما يستحيل على المصاب بالشلل أن يحرِّك قدميه. وما كان يكفي مجهود فوق طاقة البشر لأن يحلّ عقدة الصمت. وإذا فاض الشعور تعذَّر حمله إلى آخر. وإذ ذاك يشعر الإنسان بأنه سجين نفسه، فيؤثر أن يفرّ من السجن، ويلقي

بنفسه في هاوية الموت. وكذلك أحببت أن أطبع «شارلوت» بأثر لا يمحى، وأن أبرهن لها على حبّ لا يطغى عليه حنان زوجها المقبل، ولا مظاهر البيئة التي ستعيش فيها. «إذا متُّ يأساً من لقائها إلى الأبد، فقد وجب أن تذكر ذاك المدرِّس البسيط، ذاك الريفي الصغير الفقير، الذي يضحّي بنفسه في سبيل غرامه!...».

ويلوح لي أني غرقت في بحار تلك التأمُّلات. وتراني أقول: «يلوح لي»، والحقّ أني لم أستطع أن أفهم نفسي في تلك الفترة، وكيف السبيل إلى ذلك وقد اضطربت في نيران حمّى عنيفة، وفنيت في مأساة فاجعة؟ وما كدت أتبيَّن، في بيداء الفكر، ومجاهل الرأي، هذا الذي سمَّيته «الإيحاء الذاتي». وكأنما أصبحت تحت سلطان التنويم المغناطيسي، الذي اصطنعته بنفسي، وأمسى مثلي مثل الذي يمشي وهو نائم، فما أدري كيف اعتزمت أن أجهز على نفسي، في يوم وساعة محدَّدَيْن! قصدت إلى الصيدلي، وابتعت زجاجة السمّ. وما كنت- وأنا أعدّ العدّة، تحت سلطان ذاك العزم- أرجو شيئاً، أو أحسب حساب شيء. فقد ثارت بين جوانحي قوّة خارجة عن نطاق ضميري. كلّا، وكأنما انتزعت من نفسي شخصاً يفكِّر، وآخر يعمل. وستجد ملحوظة عن ذاك البحث في ورقة مودعة في كتاب «بريير دي بواسمونت» عن الانتحار - وكأني في حلم اليقظة حين كنت أتَّخذ الأهبة للانتحار. وإني لأعزو تلك الظواهر الغريبة إلى اضطراب عصبيّ يبلغ حَدّ الجنون، منشؤه الضرر الناجم عن الفكرة الثابتة. وخطر لي، في صباح اليوم الذي اخترته لإنفاذ عزمي، أن أقوم بالتجربة الأخيرة مع «شارلوت». فجلست إلى مكتبي لأكتب إليها كلمة الوداع الأخير، وتراءت لي وهي تتلو ذاك الكتاب، فتساءلت: «ترى ماذا تصنع؟» أمن المستطاع ألّا تتأثَّر، وهي

تشهد عزمي على الانتحار؟ أفلا تسارع كي تحول دونه؟

نعم، إنها ستبادر بالحضور إلى غرفتي. وستجدني جثّة هامدة... إلّا إذا تريّثت في القضاء على نفسي، حتى أرى نتيجة هذه التجربة الأخيرة. وكذلك انبعث الأمل في الساعة الأخيرة، فقلت: «لنجرِّب». وصحَّت عزيمتي على أن أتجرَّع السمّ، إذا لم تحضر إليّ في منتصف الليل.

ولقد درست آثاره، فعلمت أنه يقضي على من يتجرَّعه في الحال، وبذلك لا تطول فترة آلامي.

ومن عجب أني قضيت ذاك اليوم في هدوء وسكون! ولقد أحسست كأني ألقيت عبئاً يثقل كاهلي، وأزحت كابوساً يجثم فوق صدري. ولم يساورني القلق إلّا في الساعة العاشرة، حين وضعت الخطاب على المائدة، في غرفة الفتاة.

وفي منتصف الساعة الحادية عشرة، شعرت بصعود المركيز والمركيزة ومعهما «شارلوت»، ولبثوا يتحدَّثون برهة، تبادلوا التحيّات، ثم ذهب كلٌّ إلى غرفته.. وأقبلت الساعة الحادية عشرة، فالحادية عشرة والربع. ولم يبدُ شيء. وظللت أنظر إلى ساعتي وهي موضوعة أمامي، إلى جانب الخطابات الثلاثة التي أعددتها لمسيو «دي جوسات»، ولأمّي، ولك، ياأستاذي العزيز. وكان قلبي يخفق حتى كاد ينشقّ صدري، على أن إرادتي ظلَّت ثابتة، لا تتزعزع.

ولقد صارحت الآنسة «شارلوت» بأنها لن تراني في الغد، وكنت موقناً بأني لن أتراجع عن عزمي إذا.. وما اجترأت على أن أفتِّش عن الأمل

الذي ينطوي تحت كلمة «إذا». ولبثت أرقب «إبرة الثواني» في سيرها. وأعدّ الوقت، بطريقة آليّة، ولكني في غاية الضبط والإتقان: «سأرى إبرة الثواني تدور مرّات عدّة، قبل أن ينتصف الليل، فأجهز على نفسي..». ثم شعرت بوقع أقدام فوق السلَّم، خفيّة مترفقة، تنمّ عن انفعال شديد، فقطعت عليّ سبيل حسابي.. وظلَّت تلك الخطوات تدنو، فوقفت بباب غرفتي. ثم فُتِح الباب فجأة، فرأيت «شارلوت» أمامي.

نهضت من مكاني. ولبثنا واقفَيْن، وجهاً لوجه، وكأنما أحسّت هول ما صنعت، فاكفهرّ وجهها، وامتقع لونها، وأبرقت عيناها. وتجلّت، في سحنتها، هزيمة الإرادة أمام سلطان العاطفة. وأكبر الظنّ انها تهيّأت للنوم، ثم نهضت من نومها، فقد كان شعرها مرسلاً، بدل أن يكون معقوصاً خلف رأسها، وارتدت رداء النوم. ووضعت قدميها عاريتين في حذائها، وهي لا تدري، شأن من تملَّكه الاضطراب.

وبديهي أن ضاقت صبراً باحتمال الألم، فوثبت من فراشها، وسارعت إلى غرفتي. وماخشيَتْ أن أظنّ بها الظنون، ولا حفلت بما يمكن أن أقوله لها، وقد آمنت بكتابي، فبادرت بالقدوم، وهي فريسة لأشدّ ألوان الاضطراب.

وما لبثت، بعد ذاك الصمت، أن قالت لي، في صوت متهدِّج: «آه! حمداً للّه وشكراً، لأنني لم أصل بعد فوات الوقت.. لقد اعتقدت أنك ميِّت! آه! ياللهول!.. لكن، لقد انقضى كلّ شيء، أليس كذلك؟ قل إنك ستطيعني، قل إنك لن تقضي على حياتك. أقسِمْ، أقسِمْ لي..».

وأخذت يدي بين يديها، وكأنها تتوسَّل إليّ. وكانت أصابعها مثلَّجة، وبات غشيانها غرفتي، على تلك الصورة، موقفاً حاسماً في تاريخ حبِّنا. لا، بل

آية حيّة على ذلك الحبّ. وفي تلك اللحظة، بلغ منّي التأثُّر كلَّ مبلغ، حتى لم أعد أدرك ما أصنع، فلم أجبها، لكني أذكر أني أخذتها بين ذراعيّ وأنا أبكي... وكانت برهة ذهول وسعادة، ثم ما لبثت أن انتزعت نفسها من بين ذراعيّ، فاصطبغ وجهها حياءً وخجلاً.

قالت. «تعساً لي، يجب أن أذهب!.. دعني أذهب!.. لا تدنُ مني..».

فأجبتها: «أنت ترين أني ميِّت- لا محالة- إذا كنت لا تحبّينني، وستصبحين زوجة لغيري، وكلّ شيء يفرِّق بيننا، وإلى الأبد».

وتناولت الزجاجة من فوق المائدة، وأريتها إيّاها على ضوء المصباح، واستأنفت القول: «إن ربع ما في هذه الزجاجة علاج لآلامي، فإذا انقضت خمس دقائق، فقد قُضِي الأمر.». ثم قلت في هوادة ورفق، دون أن تبدو مني إشارة يمكن أن تَحملها على أن تدافع عن نفسها: «اذهبي، وشكراً لك على حضورك. فلا يكاد يمضي ربع ساعة حتى أكون قد وضعت حدّاً لآلامي، إذ حرمت منك طوال تلك الشهور.. هيّا فاذهبي، الوداع.. لا تسلبيني شجاعتي..».

وما إن رأت ذاك السائل الأسود، في ضوء المصباح، حتى ارتعدت فرائصها. فمدَّت يدها إليّ فانتزعت الزجاجة قائلة: «لا! لا!...»، ثم نظرت إليها، وقرأت ما كُتِب على غلافها الأحمر، فجزعَتْ، وزاد وجهها اكفهراراً، وقطَّبت حاجبيها، واختلجت شفتاها، وباتت عيناها تشفّان عن القلق، ثم قالت، في صوت متهدِّج، وكأنماكانت هناك قوّة قاهرة تنتزع منها الكلمات انتزاعاً:

«وأنا، الأخرى، قد احتملت الآلام حتى أعياني احتمالها، وغالبت الشعور

فغلبني، وناضلت حتى لم يبقَ إلى النضال سبيل.. كلّا...»، ثم مضت في كلامها، وتقدَّمت نحوي، وأخذت بذراعي «لن تموت وحدك، لن تموت وحدك.. سنموت معاً. فبعد الذي صنعت، لم يبقَ إلّا هذا..». وهمَّت برفع الزجاجة إلى فمها، فانتزعتها منها. قالت، وهي تتبسم ابتسامة تشفّ عن عزمها المجنون: «أموت، نعم، أموت، على كثب منك، ومعك..» ودَنَتْ مني، ووضعت رأسها على كتفي، إلى حَدّ أني أحسست بنعومة شعرها فوق خدّي. «هكذا.. آه.. إني أحبّك من عهد بعيد!. والآن، أستطيع أن أفضي إليك بذاك الحبّ، إذ قد جعلت حياتي ثمناً له. أتودّ أن تأخذني معك، فنذهب نحن الاثنان، نحن الاثنان؟، فأجبتها. «نعم، سنموت معاً.. وأقسم لك على ذلك. لكن، ينبغي ألّا نموت في الحال.. آه! دعي لي الوقت الذي أشعر فيه بأنك تحبِّينني..».

لقد أسلمت تلك العذراء نفسها إليّ، بكلّ ما فيها من صون وعفاف، وظلَّت تحدِّثني حديث شعورها، فقالت إنها أحبَّت من النظرة الأولى، وهي لا تدري، وآلمها حزني، وما أفضيت به إليها، وودَّت لو باتت رفيقة لي، تروِّح عن نفسي. وقد أذهلتها مكاشفتي لها بالحبّ، فأقسمت أن تعمِّق الهوّة بيننا، حتى لا يمكن اجتيازها بحال. وحدَّثتني حديث صراعها حين كانت تتلقّى رسائلي، وكيف كانت تجهد ألّا تتلوها، فتذهب جهودها عبثاً، وكيف دفعها اليأس إلى الخطبة؛ رجاء أن تقيم بيننا سدّاً منيعاً، ثم عودتها وما أعقبها. وترجمت عن شعورها بعبارة من تلكم العبارات التي تنحدر من الروح، كما تنحدر الدموع من العين، فقالت: «لو أني استطعت أن أمحو صحيفة تلك الآلام لَما طاوعتني نفسي على ذلك، إذ كنت بحاجة لأن أشعر بأني عشت بك ولك..».

وقالت: «دعني أمُتْ أوَّلاً؛ كيلا أراك تتألَّم..»، ثم طوَّقتني بشعرها، فتراءت لي كالشهيدة. ولمحت، في وجهها، مزيجاً من الفرح والألم، والحماس وتأنيب الضمير. وإذ التزمت جانب الصمت، وهي مضمومة إلى صدري، فانية فيّ، وفمها إلى فمي، ونحن متعانقان، كنّا نسمع الرياح تهبّ حزينة، فتصطفق بالنوافذ الموصدة، وكان القصر في صمته، كالقبر الذي يقودنا الحبّ إليه.

تلك هي الحلقة الغريبة في سلسلة المغامرة، والمرحلة الحاسمة في مراحل المأساة، والتي سيقول الناس عنها إنها تدعو إلى الخجل، وتبعث على الخزي. على أن تلك الكلمات، فيما بينك وبيني- يا أستاذي العزيز- لا طائل تحتها، ولا غناء فيها، وسأجد في نفسي الشجاعة لأن أفضي إليك بكلّ ما جرى منذ تلك الساعة:

قلت لك، إني كنت جادّاً غير هازل، حين اعتزمت الانتحار، فابتعت مادّة السمّ، وكتبت إلى «شارلوت» أصارحها بعزمي، وما كنت أبغي من وراء ذلك غرضاً، أو أمثِّل شعوراً مسرحياً.

وظللت أنظر إلى «شارلوت»، فأذكر أن ذاك الجسم الذي ينبض بالحياة، سيصبح، بعد ساعات، جثّة هامدة... وتقضي تلك الروح التي ملأها حبّي، ورحت أردِّد تلك الكلمات: «جثّة هامدة، جثة هامدة...» فتمثَّل لي شبح الموت الرهيب.

وإذ كان الحبّ يبسط سلطانه عليّ، فقد بتّ أستقبل الموت بسّاماً، ولا أفرق من ظلمة القبر، ولا أفزع من المجهول، ولا أجزع من العدم. وحين خمدت جذوته، وفترت حرارته، تراءى لي هول الموت، فتراجعت.. وظلَّت

«شارلوت» تطبق عينيها. وكان شحوبها ونحولها ينبئاني بما احتملت، ثم أجهز عليها، أو أعاونها على أن تجهز على نفسها، ونقضي معاً.. حينذاك، ارتعت فارتعدت. وما أدري: أجزعت من أجلها، أم فزعت من أجل نفسي، أم مشى الخوف في صدري، من أجلنا معاً؟ وإنّما الذي أدريه أني أصبحت كمثل الذين يعالجون سكرات الموت، فيلقون على الدنيا نظرة أخيرة، ويذكرون ما نعموا به، وما أشرأبَّت آمالهم إليه. كذلك، ذكرت الحياة التي ارتقبتها، والآمال التي شيَّدت صروحها.

وتمثَّلت لي في خلوتك- يا أستاذي العزيز- وأنت تطلق لفكرك العنان، فاتّسعت أمامي آفاق التفكير. وقلت كيف أضحّي بمباحثي النفسية التي حرصت عليها زماناً، ثم أغفلتها حيناً؟ وفي سبيل مَنْ أبذل ذلك الرأس الذي طالما اعتززت به، وهاته الشخصية التي كثيراً ما فاخرت بقوَّتها؟ ولماذا أطوِّح بتلك الكنوز جميعاً؟ أَ في سبيل الوعد الذي بذلته، والعهد الذي قطعته؟ لكن الوعد أَمْلته ثورة نفسية، والعهد أوحى به هوًى من أهواء النفس الجامحة. وإنما كان للانتحار محلّ حين تولّاني اليأس من حبّ «شارلوت». فأمّا الآن، فهي تحبُّني وأحبُّها، وهي لي وأنا لها، ومن ذا يحول بيننا وبين الهرب، إذا أقبل الغد، بعد تلك الليلة التي نعمنا بها؟

نعم، من ذا يأخذ علينا السبيل، ونحن حرّان طليقان، لاتعوزنا وثبة الشباب وحرارته؟ وما إن ذكرت فراري مع «شارلوت» حتى تراءى لي شبح الكونت «أندريه»،وأثارت تلك الذكرى في نفسي شعور العزّة. أجل لقد نظرت إلى «شارلوت» من جديد، فامتلأت نفسي كبرياءً؛ فالخصومة التي مبعثها الحسد، بين أخيها وبيني، قد تُوِّجَت بالظفر. وظللت أنظر إليها، وتلك الخواطر تزدحم في رأسي، فأشعر بأني أستردد حرّيَّتي.

وتدفّقت الحياة، في جوانب نفسي، طليقةً حرّة، كما يتدفَّق ماء النهر، أزيلت من طريقة الحواجز والسدود.

وأخذت «شارلوت» سِنةٌ من النوم، وكنت أسمع أنفاسها تتردَّد، ثم هبَّت من نومها مذعورة فقالت: «آه.. هل أنت هنا، هل أنت هنا؟ لقد غبت عن صوابي، ورأيت في نومي.. آه.. يا له من حلم! لقد رأيت أخي يتوثَّب عليك.. يا له من حلم فظيع!..»... وإذ ذاك دقَّت الساعة، فاستمعت إلى دقّاتها لغاية الرابعة، فقالت: «الساعة الرابعة، لقد حان الوقت. الوداع، يا حبيبي، الوداع..».

وعانقتني من جديد، وبدت على وجهها مظاهر الثبات، ورباطة الجأش، وقالت في سكون: «هات السمّ».

وظللت جامداً، لا أبدي حراكاً، ولا أحير جواباً. ومضت تقول: «أتخشى عليّ؟ إني أعرف كيف أموت.. ناولني..» فنهضت دون أن أجيب، وكانت جاثية على ركبتيها، وقد ضمَّت يديها، دون نظر إليّ. أفكانت تصلّي؟ أكان ذاك هو الجهد الأخير الذي تبذله نفس غضّة شابّة لتنتزع حبّ الحياة من أعماقها، وتستأصل جذور التعلُّق بالدنيا، وهي خليقة أن تتأصَّل في قلب فتاة بلغت عشرين ربيعاً؟

وليس أدلّ على ثبات جناني ورباطة جأشي، من هذا البيان الصغير في مبناه، العظيم الدلالة في معناه ومغزاه؛ فقد أصلحت من شأني، تأهُّباً للمشادّة التي كنت أرقب وقوعها، إذ صحّ عزمي على أن أحول دون هذا الانتحار المزدوج. تناولت زجاجة السمّ بثبات، وأودعتها القمطرة، وأغلقته بالمفتاح. لم تلتفت «شارلوت» إلى تلك الحركة، ولكن الوقت طال

عليها، فألحَّت وألحفت، ثم نظرت إليّ وقالت: «إني على تمام الأهبة».

ورأت يديّ فارغتَيْن، فاربدَّ وجهها، وبدت عليه أمارات الألم، ثم قالت بصوت تمازجه قسوة، ولهجة تخالطها جفوة:

«السمّ.. أعطني السمّ..»، ثم أضافت، بصوت ضعيف، وكأنما تجيب نفسها، عن خاطر خطر لها: «كلّا.. ليس هذا بممكن..».

فجثوت على ركبتي، وأخذت بيديها، وصحت: «كلّا، كلّا. إنك تقولين حقّاً، فليس هذا بممكن.. فلا أستطيع أن أدعك تموتين أمامي، وتقتلين نفسك في سبيلي. إني أتوسَّل إليك- ياشارلوت- أن لا تقدمي على ذاك العمل المشؤوم.. إني كنت مجنوناً حين ابتعت السمّ، فقد اعتقدت أنك لا تحبِّينني، فأردت أن أجهز على نفسي. آه! وكان يحدوني الإخلاص فيما أعددت العدّة له!. أمّا الآن، وأنت تحبِّينني، وأنا أشهد ذاك الحبّ، وقد أسلمت نفسك إليّ، فلا أستطيع، ولا أريد.. لِنَحْيَ، يا عزيزتي، لِنَحْيَ.. وافقيني على أن نحيا.. وسنسافر معاً، إن شئت. ومن حقِّنا أن نتزوَّج. فنحن حرّان طليقان.. وإذا لم تشائي، وإذا كان عراك ندم على ما وقع، فلأكن أنا الضحيّة، ولأكن وحدي الشهيد. وأقسم لك أني سأصير كأن لم أكن شيئاً مذكوراً، ولن أكدِّر عليك صفو حياتك، أو أثير غباراً في جوّ راحتك، أو أبعث غمامةً في سماء سعادتك.. أمّا أن أعينك على أن تموتي، على أن تقتلي نفسك، أنت، فلا تطلبي مني ذلك، ولا تنتظريه..».

لست أدري ما مضى من الوقت، وأنا أخاطبها على تلك الصورة، ولا أعلم ماذا قلت لها غير ذلك. ولبثت أرقب أن تبدو عليها مظاهر ضعف المرأة، وأن تقول «نعم» بدل «لا»، فتكذِّب العين دعوى الفم، لكنها صمتت، وهي

تمعن في النظر إليّ، وعيناها تبرقان وترعدان، وانتزعت يديها من بين يدي ثم عقدت ذراعيها فوق صدرها، وقالت، حين فرغت من توسُّلي إليها، وقد كرهت أن تراني، واستنكرت أن تدنو مني:

«وكذلك أنت، لا تريد أن تحتفظ بكلمتك؟»

فتمتمت: «كلّا، أنا لا أستطيع، أنا لاأستطيع.. وما كنت أدري ما أقول..».

ألقت عليَّ نظرة احتقار، وقالت- وشفتاها تختلجان من الغضب- «آه.. قل لي إذاً إنك خائف! أعطني السمّ. إني أردّ إليك قولك.. سأموت وحدي.. لكن، كيف نصبت لي الفخّ الذي أوقعتني فيه على تلك الصورة.. جبان! جبان! جبان!..».

ولست أدري لماذا لم أثب تحت سلطان تلك الإهانة البالغة، وفيم كان إحجامي عن تناول زجاجة السمّ، وفيم كان قعودي عن رفعها إلى فمي، فأتجرّع ما فيها، قائلاً لها: «انظري، أترينني جباناً؟». كلّما فكرت في ذاك الموقف أعياني فهمه، وحرتُ في تعليله، و- بخاصّة- كلّما ذكرت أن آيات الازدراء الساحق كانت مطبوعة على وجهها.

وعندي أن التعليل الصادق لذاك الموقف هو أني كنت، في تلك اللحظة، خائفاً وَجِلاً، أنا الذي أمشي، الآن، إلى الاعدام بخطًى ثابتة، وألزم الصمت منذ ثلاثة أشهر، مقامراً برأسي، مغامراً بحياتي.. ذلك أني اليوم أستند إلى فكرة، وأرتكز على إرادة، في حين كنت أضطرب بين العواطف الثائرة والمشاعر المهتاجة، فجثوت على ركبتي، كأنما كنت عاجزاً عن الوقوف على قدميّ، لوَّحت برأسي، وقلت: «لا، لا»، وفي تلك المرّة، كانت هي التي لم

تجب. ورأيتها تجمع شعرها، وتضع قدميها في حذائها، وترتدي ثوبها الأبيض، ولبثت تدور بعينيها، بحثاً عن زجاجة السمّ، فلمّا لم ترَها فوق المائدة، سارت إلى الباب، فتوارت دون أن تلتفت، بعد أن رمتني، كَرّةً أخرى، بتلك الكلمة الهائلة الرهيبة:

«جبان! جبان!..».

ودرت بنظري في الغرفة، فأيقنت إني لم أكن حالماً، ثم ما لبثت أن تولّاني الفزع، فماذا أصنع، إذا انقلبت «شارلوت» إلى غرفتها حانقة، تغلي مراجل غيظها، غاضبةً، تنفجر براكين حنقها، فقضت على حياتها؟ ولمّا بتّ فريسة ذاك الألم، اجترأت على أن أجتاز البهو، فأرقى السلَّم، حتى إذا بلغت غرفتها، سمعت حركة، أو أنيناً، أو إشارة تزيح الستار عن المأساة التي تجري خلف الباب، فأسارع إلى اقتحامه، وأبادر لإنقاذها، فلم أسمع شيئاً! وبدأت الحركة في الطابق الأوّل؛ إذ استيقظ الخدم، فرجعت إلى غرفتي وارتديت ثيابي. وما وافت الساعة السادسة، حتى هبطت إلى الحديقة تحت نافذة الفتاة، فقد أشفقت أن تكون قذفت بنفسها من النافذة، فهوت إلى الأرض، مهشَّمة الأعضاء، محطَّمة الاشلاء، فرأيت نوافذها مغلقة، وأبصرت الورود، في أرض الحديقة، قد تفتَّحت أكمامها، وازدهرت.

ولا أنسى ما قالت لي، في تلك الليلة، من أنها كانت تشعر بغبطة، لا تعادلها غبطة حين تنظر إلى تلك الورود، فتنعم، بمرآها وشذاها، فاقتطفت منها واحدة. ولكي أغالب الاضطراب الذي ساورني، رحت أضرب في الأرض، على غير هدى، وسط ضباب كثيف، في صباح يوم من شهر نوفمبر. ولقد

أوغلت في السير. إلّا أنه ما إن وافت الساعة الثامنة حتى كنت في قاعة الطعام، في القصر، أتناول، أو- على الصحيح- أتكلَّف تناول الفطور. وكنت أعلم أنه في تلك اللحظة تدخل الخادمة إلى غرفة الآنسة «شارلوت». فلو أن مكروهاً أصابها، لاستغاثت الخادمة في الحال. ولقد سرَّى عني، أني رأيتها قادمة تحمل آنية الشاي، و«شارلوت» لم تقتل نفسها!، فانبعث ميِّت الأمل في صدري، ولعلَّها قد فكّرت، بعد أن هدأت ثائرة غضبها، فاستخلصت، من رفضي أن أموت، وأن أدعها تموت، دليلاً على الحبّ. ولن ألبث طويلاً حتى أعلم ذلك.

وما عليَّ إلّا أن أنتظرها في غرفة أخيها الذي أوشك أن يجتاز دور النقاهة. وعلى الرغم من أنه كان محروماً من الرياضة، كانت تبدو عليه دلائل المرح، كأنه طفل قد بُعِث إلى الحياة ثانيةً. فتلقّاني ذاك الصباح بأعظم مظاهر الترحيب، وتضاعف رجائي، فعسى أن يصل الغلام ما انقطع بين أخته وبيني، فما من شكّ في أن يد الفتى ويد الفتاة ترتبطان، حين تمرّان حول رأس بريء. على أن شارلوت ماكادت تبدو شاحبة اللون، وعيناها ذابلتان متوسِّلة بآلام رأسها، كي تنجو عن مداعبة «لوسيان»، حتى أيقنت أني كنت مسرفاً في الأمل حين رجوت التفاهم معها. حيَّيتها فأبت أن تردّ التحيّة، وإني وجدتها تفيض حناناً وعطفاً، حلوة الشمائل، رقيقة العواطف، قد امتلأت نفسها شفقةً ورحمةً، وعرفت فيها فتاة نافرة، وشابّة مَلَك الحبّ قلبها. والآن، رأيت وجهها مقنَّعاً بقناع الزراية والاحتقار. آه من كبرياء النبلاء! لقد قدَّرته في تلك اللحظة، وقدَّرت أن الصمت المنطوي على الازدراء، أقتَلُ للنفوس من يد الجلّاد. وامتلأت نفسي مرارةً، فلم أشأ أن أرفع راية التسليم والاستسلام. وترقَّبتها، ذلك اليوم،

لعليّ أراها، فأسمع كلمة تنحدر من فمها، ولو كانت إهانة جديدة، تقذف بها في وجهي.

وفي اللحظة التي كانت تغشى غرفتها وقت الأصيل، لترتدي ثيابها قبل تناول طعام العشاء، أخذت الطريق إليها. فنحَّتني جانباً، بإيماءة تشفّ عن الاحتقار، وعبارة تُشعِر بالقسوة.. قالت: «ما عدت أعرفك..»، ورأيت فمها يختلج غضباً، وعيناها تنظران إليّ شزراً، فلم أجد السبيل إلى كلمة أقولها لها. لقد حاكمتني، فحكمت عليّ.

أجل، لقد قضت عليّ، وكان الحكم قاسياً، واحتماله شديداً؛ إذ كنت به خليقاً. لقد غمرتني باحتقارها، لأنها رأتني أهاب الموت، وكان حقاً أني فزعت من ظلمة القبر، حين رأيتها تسند رأسها إلى صدري. وماكان الخوف وحده ليصدّني عن الانتحار معها، لولا أن امتزجت الشفقة عليها بطموحي كمفكِّر. لكن، ما جدوى ذلك؟ لقد استسلمت إليَّ تحت شرط، فأجبت على ذاك الشرط بكلمة «نعم»، ثم عقَّبت عليها بكلمة «لا». على أن ما تدعوه- يا أستاذي العزيز- كبرياء الرجل كان قويّاً، إلى حَدّ أن فكرة امتلاك المرأة والتسلُّط على روحها ومشاعرها، قد أشبعا ذاك الكبرياء، حتى أن الإذلال الفظيع الناجم عن احتقار «شارلوت»، لم ينل مني كما نال صمتها، بعد أن كاشفتها بحبّي، وبعد فرارها من القصر، وخطبتها.

لقد كانت تغمرني باحتقارها، على أنها كانت لي، وقد طوّتها بذراعيّ قبل أن يطوِّقها غيري. حقّاً، لقد تألَّمت، في الفترة التي انقضت، بين تلك الليلة وبين رحيلي من القصر إلى غير عودة. على أنه لم يكن اليأس هو الذي تملَّكني طوال الصيف، ولا التسليم حين تألَّبَت عليَّ الخطوب، وتحالفت

ضدّي المصائب.

لست أزعم أني كنت سعيداً، على أني كنت أشعر بالشبع يملأ جوانب نفسي، فاستطعت أن أنهض على قدميّ وسط العاصفة، وأتماسك، خلال الأزمة النفسية. وحين مرَّت شارلوت أمامي، ولم تنظر إليّ إلّا كما تنظر إلى شيء زريّ مهمَل، أغفله خادم، تأمّلتها، وهي ترقى السلَّم... وما آلمني إلّا أن تنقضي تلك الليلة، فلا تعود. ولو أتيحت لي ثانيةً، لكنت أبرّ بوعدي، وأَفي بعهدي، وأتجرَّع السمّ طائعاً، وأرتضي الموت مختاراً، وأمشي إلى ظلمة القبر بسّاماً. على أن تلك السعادة كانت حقّاً وصدقاً، وكان اليقين بها كفيلاً بإنقاذي من ضلال الماضي. فهل قُبِرَ ذاك الحبّ إلى غير بعث؟

إن موقف الآنسة «شارلوت» حيالي، وما صنعت بي، ليدلّ دلالة صريحة على أن الحبّ قد ملك قلبها. فهل من المستطاع أن تكون آثاره قد امَّحت من ذاك القلب، وجذوته أُخمدت في هذا الفؤاد؟ اليوم، وفي ضوء المأساة التي كانت خاتمة مشؤومة لتلك المغامرة، أستطيع أن أدرك أن الهوى لم يغادر هاته النفس التي تحلِّق في أجواء الخيال. حقّاً أنها لم تفكر، لحظة واحدة، في أن تكون زوجة لي، وتنشئ عائلة معي، وما أقدمت على ما أقدمت عليه إلّا في ساعات، غاب عنها الصواب، فانتزعها من الحياة انتزاعاً. لقد أحبَّت فيّ صورة رائعة، ومثلاً أعلى. أحبَّت كائناً يغايرني تمام المغايرة. فلمّا تبدَّت لها حقيقتي، وتكشَّفت لها طبيعتي، تبدَّدت أوهامها، وتناثرت أحلامها، وكرهتني، بكل ما فيها من قوّة للكره.

والطبائع التي تجنح للأوهام، وتنزع للخيال، تسرف في الحبّ وفي البغض معاً، وا أسفاه! إن دعوى إلمامي بعلم النفس، لم تكشف لي عن تطوُّر

تلك النفس، في ذاك الحين. وما خطر، في بالي، أنها ستحاول، بأيّ ثمن، أن تزداد معرفة بدخيلتي، وأنها، مسوقةً باشمئزازها مني، وتقزُّزها من أساليبي، ستعاملني كما تعامل طائفة القضاة جماعة المتَّهمين، وستحاول أن تطالع أوراقي، فلايتراجع ضميرها أمام أيّ اعتبار.

ولم يمرّ في خاطري أنها لا تحتمل الحياة مشوبةً بالعار، ولا تطيق العيش بعد أن خسرت أعزّ ما تملك، فأغفلت زجاجة السمّ الذي أبيته عليها. وكنت أعتقد أني دقيق الملاحظة، قويّ المشاهدة، لأني أطيل التفكير، إلّا أني كنت في اعتقادي واهماً، وفي نظري مخدوعاً، فما كان ينبغي لي في ذاك العهد، أن أتأمَّل، وإنما كان ينبغي لي أن أنظر.

وأمعنت في الضلال، فخيِّل إليّ أن «شارلوت» ما برحت تحبّني رغم ازدرائها إيّاي، فحاولت أن أبعث الحبّ من مرقده، فكتبت إليها. وما راعني إلّا أن أرى كتابي، في اليوم ذاته، فوق مكتبي، ولم يُفَضّ غلافه.

فإذا أقبل الليل تلمَّست الطريق إلى بابها، وناديتها. فألفيت الباب موصداً، محكم الإيصاد، ولم تلقَ دعوتي سميعاً أو مجيباً، فأحببت أن أدنو منها مرّةً أخرى، فنحَّتني بيدها جانباً، دون أن تنظر إليّ.

فأخذت الأهانة من نفسي كلّ مأخذ، ولم أقتصد في البكاء حين صدَّتني ذاك الصدّ، الذي يفيض زرايةً وازدراءً. ثم اعتزمت أمراً، فقد عاد إليّ قليل من عزمي القديم، وكان ينبغي أن أقدم على ما فكَّرت في الإقدام عليه. وأقول- كي أفضى بالحقيقة كاملة- أن قدوم مسيو «دي بلان»، والكونت «أندريه»، كان قد أُعِلن، فلم يدع ذاك النبأ محلّاً للتردُّد والإحجام؛ فإن حضورهما معاً، إبَّان نكبة حبّي، واذلال كبريائي، لَممّا يخرج عن طوق

احتمالي. وهاك ما اعتزمت:

لقد رجاني المركيز أن أطيل إقامتي إلى 15نوفمبر، إذ نحن في الثالث منه، فأعلنت، في صباح ذلك اليوم المشؤوم، أني تلقّيت من والدتي كتاباً يبعث على القلق، ثم انبأتهم بورود برقيّة زادت في قلقي، وضاعفت من مخاوفي. وطلبت إلى المسيو «دي جوسات» أن يأذن لي في السفر إلى «كليرمونت»، صباح الغد، ورجوت- إذا لم أعُد- أن يتفضّلوا بإرسال حاجاتي إليّ. وقلت ذاك القول، أمام «شارلوت»، وأنا على يقين بأنها ستحمله على محمله الصحيح؛ «سيذهب إلى غير عودة». وحسبت أن نبأ الفراق سيهزّ عواطفها، وأحببت أن استغلّ تلك العواطف، فاجترأت على أن أكتب لها بطاقة تتضمّن هذه العبارة: «إن من حقّي أن أتحدّث إليك، للمرّة الأخيرة، إذ أزمعت أن أهجرك إلى الأبد. سأحضر إليك في الساعة الحادية عشرة». وقصدت أن لا تعيد البطاقة إليّ دون أن تقرأها، فوضعتُها مفتوحة فوق مائدة غرفتها، مقامراً بنفسي، مغامراً بـ«شارلوت»، إذا ما ألقت الخادمة نظرة على تلك البطاقة. آه.. ثم خفق قلبي، حين وافت الساعة الحادية عشرة، فيمَّمت شطر بابها، ووقفت أمام الباب، ولم يكن موصداً، فأيقنت أنها ترقب حضوري، وأحسست، للنظرة الأولى، أن الصراع سيكون حادّاً عنيفاً؛ فقد تجلّى على وجهها أنها لم تدعني أحضر لتغفر لي، وكانت ترتدي ثوباً قاتماً، ثم ألقت عليَّ نظرة هائلة رهيبة.

وما لبثت أن أوصدت الباب، ووقفت جامداً لا أتحرَّك، حتى قالت: «سيِّدي، إني لأجهل ما اعتزمت أن تقوله لي، إني لأجهله، ولا أودّ أن أعلمه.. وما أذنت لك في الدخول لأصغي إليك، وأقسم لك- وأنا أعرف كيف أحتفظ بكلامي- إني لو خطوت خطوة، فحاولت أن تخاطبني، لأدعونّ من

يقذف بك خارجاً، كما يُقذَف باللصّ..».

واذ قالت ذلك، وضعت أصبعها على الجرس الكهربائي، وكانت آيات العزم والتصميم باديةً على جبهتها، وفمها، وإشارتها، وصوتها، حتى لقد رأيت أن ألزم جانب الصمت، ثم مضت تقول:

- «لقد حملتني- يا سيِّدي- على ارتكاب ثلاثة أفعال قبيحة: فأمّا الأوَّل، فالعذر فيه أن ماكان يدور في خلدي، أنك خليق بارتكاب العار الذي ارتكبته..»، ثم أضافت، كأنها تخاطب نفسها: «ومع ذلك فسأكفِّر عنه..»، وأمّا الثاني، فلن ألتمس له الأعذار..». واصطبغ وجهها بصبغة الحياء والخجل، وتابعت: «لم أحتمل التفكير فيما صنعت. وأردت أن أستوثق من حقيقتك. أردت أن أعرفك.. وكنت قد قلت لي أنك تكتب مذكِّراتك اليومية، فوددت أن أقرأها، ولقد قرأتها.. إذ دخلت غرفتك حين كنت غائباً، ونقَّبت في أوراقك، وكسرت قفل كرّاسة.. نعم، لقد فعلت ذلك، فجوزيت عن فعلي، بأن طالعت في تلك الصفحات ما طالعت. أمّا الثالث فإني إذ أقوله لك، فإنما أوفّي الدَّيْن الذي اشتركت فيه معك..». وتردَّدت، ثم قالت: «لقد كتبت إلى أخي تحت سلطان الغيظ الذي ملأ نفسي. إنه يعلم كلّ شيء». فصحت: «آه! إنك هالكة، لا محالة!». قاطعتني، ووضعت يدها على الجرس من جديد: «أنت تعلم أني أقسمت، لا تنبس بكلمة واحدة.. فلست أستطيع أن أهلك أكثر ممّا هلكت»، واستأنفت القول: «ولن يصنع كائن مَنْ كان شيئاً لي أو عليّ، وسيعلم أخي ذلك، وما صحَّت عزيمتي عليه، فسيصله الخطاب غداً صباحاً. ولقد رأيت أنه من واجبي أن أنذرك، ما دمت تحرص على حياتك. والآن، اخرج من هنا..»، فتوسَّلت إليها قائلاً: «شارلوت..»، فنظرت إلى ساعة الحائط وقالت: «إذا انقضت دقيقة، ولم تخرج، فسأدعو..».

كلمة الختام

فأطعت صاغراً.. وما وافت الساعة السادسة من صباح غد، حتى غادرت القصر، وأنا فريسة لأسوأ ضروب القلق وشرّ ألوان الاضطراب. وحاولت، عبثاً، أن ألقى في روعي أن تلك المشادّة لن يكون لها ما بعدها، وأن الكونت «أندريه» سيقدم، وينقذها من إنفاذ خطّة، أملاها اليأس، وأنها هي نفسها، ستتردَّد في اللحظة الأخيرة، فتقف بين الإقدام والإحجام، أو أن حادثاً غير مرتقب سيحدث، فيحول بينها وبين الإجهاز على نفسها.. فمن يدري؟ أمّا أن أتعلَّق بأذيال الفرار، وأتراجع أمام انتقام أخيها، فذلك ما لم يخطر لي في بال؛ فقد آليت ألّا أدع أحداً يقدم على إذلال كبريائي. فلئن كنت قد تخاذلت أمام فتاة، فما أنا بمتخاذل أمام رجل يُبرِق ويُرعِد، ويتهدَّد ويتوعَّد. وقدمت إلى «كليرمونت» نهباً للاضطراب. إلّا أن فترة الاضطراب لم تطُلْ، إذ علمت بانتحار الآنسة «شارلوت»، ما لبث أن قُبِض عليّ، وقُدِّمت إلى قاضي التحقيق، فتبيَّنت ملابسات ذاك الانتحار؛ إذ تناولت «شارلوت» قسطاً من السمّ الذي ابتعتُه، يكفي للقضاء عليها. وقد أقدمت على فعلتها، في اليوم نفسه الذي طالعَتْ فيه مذكِّراتي

اليومية. علي أني لم أُلقِ لهذا الأمر بالاً، إذ كنت معنيّاً بغير تلك المذكِّرات العقيمة. ولقد حرصت «شارلوت»، كيلا تثير شكوكي، على أن تضع ماءً بدل السم الذي أخذته، ثم ألقت الزجاجة من النافذة، مخافة أن يعلم أبوها أو أمّها بانتحارها، عن طريق غير طريق أخيها. وعلى الرغم من أني كنت أعلم الحقيقة كاملةً، عن تلك المأساة المروعة، وأستطيع أن أقدِّم تلك المذكّرات لتكون قرينة على براءتي، فإني ما إن خرجت من التحقيق حتى مزَّقتها كلّ ممزَّق. وأَبَيْت أن أتكلَّم، وأن أدافع عن نفسي، بسبب ذلك الأخ؛ فقد قلت لك إني شربت كأس الذلّ حتى الثمالة، فلم أعد أطيق ذلاً جديداً. وهذا الرجل الذي فاضت نفسي بالحقد عليه، والذي تتمثّل لي «شارلوت» في شخصه، يعلم الحقيقة كاملةً، فيعدّني أدنى الأدنياء. على أنه ليس من حقّه أن يسرف في احتقاري. نعم، ليس من حقِّه، فنحن الاثنان نلزم الصمت معاً، لكن صمتي يفضي بي إلى المقامرة برأسي إنقاذاً لشرف تلك التي قضت. أمّا صمته فمعناه التضحية ببريء على هيكل ذاك الشرف. فأيُّنا الشجاع: أنا الذي أبى الدفاع عن نفسه محتمياً خلف جثّة «شارلوت»، أم هو الذي يحتفظ بالخطاب المتضمِّن خبر انتحارها، ليثأر من عاشق أخته، بأن يدعه يقضي عليه كأنه قاتل؟ وأيُّنا النبيل، بعد هذا؟

إن رفضي الدفاع عن نفسي ليمحو الخجل الناشئ عن ضعفي، ليلة أسلمت «شارلوت» نفسها إليّ. وإني لأشعر بالكبرياء يملأ جوانحي، حين أراني أحتمل تلك الآلام، دون أن أقتل نفسي، لأضع حَدّاً لها. وما أرى الكونت «أندريه» إلّا ماضياً في طريق العار، إلى النهاية. فإذا قضى عليّ، وهو يعلم براءتي، ويحمل دليلها بيده، ثم يلتزم الصمت، فلن يكون لدى أسرة «جوسات راندون» ما تأخذني به، لكني أفضيت إليك بكلّ

شيء، يا أستاذي الجليل، وكشفت لك عن دخيلة نفسي، وما أنا بحاجة لأن أذكر العهد الذي أخذته عليك، حين استودعتك هذا السرّ؛ فما أنت ممّن ينكث العهد. وإنك تعرف أن هذا الصمت يضيِّق أنفاسي. أجل، لقد ضقت ذرعاً بهذا الكابوس الجاثم فوق صدري.. ضقت ذرعاً بتأنيب الضمير، وأصبحت بحاجة إلى صوت يرثى لحالي، ويبدِّد الأشباح التي تتراءى لي.

ولقد فكَّرت في الأسئلة التي كنت أودّ أن أوجِّهها إليك، وظننت أني سأبسط لك تاريخي كما بسطت نظريّاتك في مؤلَّفاتك، التي طالما أقبلت على مطالعتها، فلم أجد ما أقوله لك غير كلمة اليأس «من الأعماق!» فاكتب إليَّ يا أستاذي العزيز، وخذ بيدي وسط ذاك الظلام المتحجِّر. وثبِّت عقيدتي بأن أبغض الأعمال وأقبحها (حتى اعتزامي، بدم بارد، وضمير جامد، أن أخدع «شارلوت» عن عفافها، وحتى تخاذلي بعد أن تواصينا بالموت معاً) ليست إلّا جزءاً من نواميس هذا الكون العظيم. قلْ إني لست مسخاً دميماً، وإنك سوف ترتضيني- إذا اجتزت تلك المحنة- تلميذاً وصديقاً. فلو كنتَ طبيباً، وجاءك مريض يكشف لك عن جرحه، لدفَعَتْك الإنسانية إلى تضميده. وأنت طبيب نفوس عظيم. وفي نفسي جروح عميقة دامية، فهلّا قلت كلمة تروِّح عني، ولا زلتَ موضع الإجلال والإكبار من الوفيّ المخلص.

«روبير جرسلو»

الاضطراب الفكريّ

مضى شهر كامل، مذ حملت والدة «روبير جرسلو»، تلك الوثيقة الغريبة إلى «أدريان سكست»، فتردَّد في قراءتها. وما إن قرأها حتى بات الفيلسوف، أربعة أسابيع طوال، صريع الاضطراب. وما استطاع أن يخفي اضطرابه عن أعين الناس. فمشى بعضهم إلى بعض يتساءلون عمّا دهى الفيلسوف، فغيَّر أطواره، وبدَّل أحواله، وراحت الآنسة «ترابينارد» تتحدَّث إلى جماعة «كربونية». لقد لبث «أدريان سكست»، طوال خمسة عشر عاماً، مثالاً للدقّة والضبط، في ذهابه وإيابه، وغدوه ورواحه، كأنما هو «كرونومتر حَيّ» وسط حَيّ حديقة النباتات الهادئ الساكن، ثم أصبح أليف اضطراب وقلق، دون سبب ظاهر. فمنذ أن زارته مدام «جرسلو»، وهو كَريشةٍ في مهبّ الريح، لا يستقرّ على حال؛ فإذا خرج للرياضة، نازعته نفسه إلى العودة. وإذا عاد لا يلبث أن يتبرَّم بغرفته. وإذا سار في الطريق، لم يسِرْ بخطًى منتظمة: فتارةً يستحثّ السير، وتارةْ يقف، وأخرى يلوِّح بيديه، كأنما هو في حرب مع نفسه. وتجلَّت مظاهر أخرى لاضطرابه؛ فقد روت الآنسة «ترابينارد»، لحارس الباب وامرأته، أنه لم يعد يأوي

إلى فراشه قبل الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً، فقالت: «وليس العمل مبعث اضطرابه، فإنه يمشي.. ثم يمشي. ولقد اعتقدت- لأوَّل وهلة- أنه مريض، فنهضت كي أسائله عمّا إذا كان يبغي دواءً، فما راعني إلّا أن رأيته يردّني بجفاء وغلظة، وهو الذي عهدته جمّ الأدب، وديع النفس، طويل مدى الأناة..».

وقالت امرأة الحارس: «أمّا أنا فقد رأيته جالساً في قهوة، فما صدَّقت عيني.. وكان يقرأ صحيفة، ولو لم أعرفه، لَوَلَّيتُ منه فراراً، ولَمُلِئتُ منه رعباً، ثم رأيت وجها مكفهرّاً، وجبينا مقطِّباً، وفماً ملتوياً..».

فصاحت الآنسة «ترابينارد»: «القهوة؟... لقد مضى عليّ، في خدمته، زهاء ستّة عشر عاماً، لم أره في خلالها يفتح صحيفة...».

وقال الحارس: «إن الرجل حزين.. ويرجع تاريخ حزنه إلى يوم استدعاء قاضي التحقيق له، وزيارة السيِّدة المتَّشحة بالسواد. وأكبر ظنّي أن له غلاماً يثير متاعبه..»، فصاحت الآنسة «ترابينارد» في دهشة وذهول: «سبحانك ربّي! كيف يكون له غلام؟»، فمضى الحارس يقول: «ولماذا لا يكون له غلام، وللصبا عنفوانه وللشباب فورته وجنونه؟!».

وهالَ الآنسة «ترابينارد» ما سمعت من فم الحارس، فراح يملأ سمعها بالإشاعات التي استفاضت عن «أدريان سكست»، منذ تغيَّرت أطواره، وتبدَّلت أحواله، فلقد تضافرت ألسنة السوء على القول بأن استدعاء قاضي التحقيق للفيلسوف هو منشأ اضطرابه. وقال نسوة في المدينة إن ثروة المسيو «سكست» قامت على وديعة في ذمّة أبيه لم يحسن القيام عليها، فأصبح حقّاً على الابن أن يردّ الأمانة إلى أهلها. وكان القصّاب

يقول لمن يريد أن يستمع إليه: إن هذا العالِم متزوِّج، أقبلت امرأته تثير في وجهه حرباً عواناً، وأقامت عليه دعوى أمام القضاء. وقال بائع الفحم إن لهذا الرجل الشريف أخاً قاتلاً. وكان القاتل الذي يلمِّح إليه قد ارتكب جريمة مروِّعة أثارت ثائرة الرأي العامّ.

فاستنكرت الآنسة «ترابينارد» تلك الإشاعات التي يرِّوجونها، والأراجيف التي يذيعونها، فأقسمت أن تصمّ أذنيها عن سماع الإشاعات، وأن تعرض عن المرجفين.

وحقّاً أنها كانت تشعر بمحبَّته، وتجلّ فيه الإنسان المهذَّب، والرجل المثقَّف، الذي طالما تحدَّثت عنه الصحف، وتُكبر منه أن يجعل منها ربّة البيت، فلا يناقشها في الحساب. وكان من دواعي اغتباطها أن ترعاه وتسهر على راحته، وهي القويّة المتينة، وهو الضعيف المهزول، وأن تظلِّل، بحمايتها، رجلاً غرّاً ساذجاً، في وسع غلام أن يتغفَّله.. فما من عجب أن تعرض عمّا يرجفون به، وأن تستشعر الوحشة بعد تبدُّل أحوال سيِّدها. وما آلَمَها غير أن تراه يكاد لا يذوق الطعام، ولا ينام إلّا غراراً. ورأت سحابة الحزن ترتسم على وجهه، فما استطاعت أن تسرِّي عنه، أو تتبيَّن منشأ الحزن، ومبعث الاضطراب لديه. وعندما جاءها «سكست»، بعد ظهر يوم في شهر مارس، حوالي الساعة الخامسة، وقد تناول الغذاء في الخارج، أقبل يقول لها:

«هل الحقيبة مهيَّئة يا «مرييت»؟، فأجابت الخادمة: «لست أدري، يا سيِّدي، فما أذكر أن سيِّدي استخدمها، منذ أقبلت على خدمته..».

قال الفيلسوف: «اذهبي، فابحثي عنها».

أطاعت الآنسة، وما لبثت أن حملت حقيبةً، كساها الغبار، وعلا الصدأ أقفالها، وفقدت مفاتيحها.

فقال مسيو «سكست»: «حسن جدّاً. ما عليك إلّا أن تشتري حقيبة مثلها، وأن تضعي فيها كلّ ما يتطلَّبه السفر..»، فتساءلت الآنسة ترابينارد: «أمسافرٌ أنت، يا سيِّدي!»، فقال الفيلسوف: «نعم، بضعة أيّام..».

فقالت الخادمة: «ولكن سيِّدي يعوزه كلّ شيء يتطلَّبه السفر. ولا يستطيع أن يذهب على تلك الصورة، بغير غطاء للسفر، وبغير...».

قاطعها الفيلسوف: «هيّا هيِّئي كلّ ما يتطلَّبه السفر، فسأستقلّ قطار الساعة التاسعة».

– «وهل يرى سيِّدي أن أصحبه؟...».

– فقال «سكست»: «كلّا، لا جدوى في ذلك. هيّا، فليس في الوقت مُتَّسَع...».

ولمّا روَت الآنسة «ترابينارد» هذا الحادث الجديد للحارس، وهو حادث، لا يقلّ غرابة عمّا قيل من إعلان زواجه، قال: «إن أكثر ما أخافه أن تكون خطرت له فكرة القضاء على نفسه»، فقالت الخادمة: «آه! لو ارتضى أن أصحبه!.. كنت سأتحمّل نفقات السفر راضية...».

ودلَّت لهجة الآنسة «ترابينارد» عن مبلغ ما ساوَرَها من القلق على سيِّدها. وفي الواقع، فإن الفيلسوف لم يكد يقرأ مذكِّرة «روبير جرسلو»، حتى أخذ منه الاضطراب كلّ مأخذ، وكان فزعاً مرتاعاً حين أمر خادمته أن تهيِّئ له الحقيبة، كما كان جزعاً مروَّعاً حين طالع تلك الصفحات. والحقّ

أنها تكشفت عن روح إجرامية، ونفس تتنازعها عوامل الكبرياء والخجل، وتضطرب، في جوانبها، دواعي القحة والعار.

وما إن طالع الفيلسوف عبارة «روبير جرسلو»، التي يصارح فيها بأنه يرتبط معه برباط وثيق، حتى بلغ منه الاضطراب كلّ مبلغ. كذلك، كان يجزع كلّما رأى اسمه يُذكَر في سياق تلك المذكِّرة، ورأى ذلك الشابّ المتشبِّع بروح الإجرام يسوق الاستشهاد تلو الاستشهاد، من مؤلَّفاته، بما يؤكِّد أنه تلميذه حقّاً. ولقد ساقه حبّ الاستطلاع إلى مطالعة ذاك التاريخ إلى النهاية، فهاله أن يرى علمه وآراءه متَّصلة بتلك الأعمال الشائنة. وليت الأمر وقف عند هذا الحَدّ؛ فقد زعم متَّهم مدينة «ريوم» أن ذلك العلم وتلك الآراء، تُعَدّ مبرِّراً وسبباً لأبشع فعلة أملاها الفساد الخلقي! وكلّما أوغل «سكست» في المطالعة، كان يشعر بأن شخصيَّته قد تلوَّثت، وتعفَّنت، بل تسمَّمت، رغم أن المشاعر التي تكشف عنها تلك المذكِّرة، هى أبغض المشاعر إلى نفسه؛ فقد كان ذاك الفيلسوف العظيم عفّ الضمير، وكان، إلى عقليّته الهدّامة، يحمل في صدره قلباً رحيماً، وينطوي على أشرف العواطف، وأنبل النزعات. وإن هذا الضمير الحَيّ الذي لا تشوبه شائبة، وذاك الشرف الرفيع الذي لا ترقى إليه شبهة، أو يرتفع إليه شكّ، أو يتعلَّق به غبار، هما اللذان تأذَّيا من الإثم الذي اقترفه ذاك المدرِّس الأثيم.

وراع الفيلسوف أن يرى شابّاً يمزِّق عِرْض فتاة، على تلك الصورة الدنيئة، ويرتكب أبشع الجنايات وأشنعها، ثم تُتَوَّج المأساة الفاجعة بانتحار يمزِّق نياط القلوب! فراح يقلِّب النظر في فتك نظريّاته بالعقول الفجّة، وإفساد آرائه للنفوس الغضّة، وهو الذي عاش، طوال حياته، طاهر الذيل، عفّ الضمير والنظر.

وهاله أن يرى مغامرة «روبير جرسلو» تتكشَّف عن اشتراك مؤلَّفاته في الفعال القبيحة التي يمليها كبرياء بشع، وتوحي بها أهواء جامحة، وهو هو الذي وقف جهوده على البحوث النفسية، وجعل، نصب عينيه، خدمة علم النفس، كعامل متواضع، يلقي البذرة الصالحة لتأتي بخير الثمرات، ويعرض على نفسه أقسى ضروب الزهد، وأشدّ ألوان التقشُّف، حتى لا يجد خصومُ مذهبه سبيلاً إلى التشكيك فيه، من طريق التهجُّم على شخصه. ولو أن طبيباً اكتشف علاجاً، فبادر أحد مساعديه إلى تطبيقه، فبات فريق من المرضى في النزع، لشَعَر الطبيب بالحزن والألم، وكذلك كان شأن «أدريان سكست»! ولو أن رجلاً ارتكب الشرّ، وهو يعلم ذلك ويريده، لفاضت نفسه ألماً ومرارةً، لو كان يؤثر ضميره على فعاله. فما بالك برجل كَرَّس ثلاثين عاماً، من أعوام حياته، للقيام بعمل، وكان يعتقد بجدوى ذاك العمل، فوقف جهوده عليه، وأخذ يصدّ هجمات خصومه، ويدفع اتِّهاماتهم الباطلة بمنافاته للأخلاق، فإذا به يشهد، على ضوء مأساة مروِّعة، ويرى بعينه، ويلمس بيده، الدليل على أن ذاك العمل قد سَمَّمَ نفساً، وأنه ينطوي على مبدأ الموت، ويبثّ ذاك المبدأ في جوانب العالَم! لاشكَّ في أن الصدمة العنيفة التي يتلقّاها، لايهون احتمالها، والجرح الذي يدمي قلبه لا يلتئم بحال:

ولقد مرَّت فترة الألم هذه بجميع المفكِّرين الذين ينزعون إلى الثورة، على أن غالبيَّتهم يجتازونها بسرعة، فقد يندر أن ترى رجلاً يزجّ بنفسه في غمار الأفكار، ثم لا تفتر حرارة إخلاصه، فيصبح ممثِّلاً أكثر منه عاملاً مخلصاً. إلّا أنه يظلّ يلعب الدور الذي بدأه، ويلتفّ الأنصار حول رايته، وينضوي الأشياع تحت لوائه، ثم لا تلبث الحياة أن تصدمه بحقائها،

فينكمش خياله، ويتضاءل مَثَله الأعلى، ويعلِّل النفس بأن الحياة مزيج من الخير والشرّ، والحقّ والباطل، والحقيقة والخيال، وأن العالم هو العالم، والناس هم الناس، في كلّ زمان وكلّ مكان.

على إن اخلاص «أدريان سكست» لم يكن من ذاك الطراز الذي يبيح الترخص في الضمير، والتفريط في المُثُل العليا؛ فلم يكن لديه دور ليقوم بتمثيله، ولا كان له أنصار يترضّاهم، أو أشياع يتملَّق شعورهم، بل كان يعيش لنفسه، ولفكرته، ويفنى في فلسفته، لا في شخصيّة غيره.

وإذا كان الاسم الذي يملأ الأفواه والأسماع، والشهرة المستفيضة التي تطبق الخافقين، يحملان على المجاملة والمصانعة، فقد ظلّ «أدريان سكست»، رغم اسمه المدوّي وشهرته الخفّاقة، جافّاً لا يعرف المصانعة، عزيز النفس، لا يدري المجاملة والمداجاة، وكان يعيش بين ظهرانَي المجتمع وكأنه ليس من أبنائه.

فأمّا العواطف التي رسم صورَها، والجرائم التي توفَّر على دراستها، فقد كانت تبدو له كتلك الشخصيات التي تشير إليها المشاهدات الطبّيّة: «فلان.. ، عمره 35 سنة.. صناعة كذا..، أعزب...» ثم يسهب الطبيب، في بيان الحالة، دون التعرُّض لشخصية المريض. وقصارى القول أن ذاك الذي أشبع الكلام عن العواطف، وأفاض في تحليل الإرادة، لم يواجه إنساناً من لحم ودم، حتى أن مذكِّرة «روبير جرسلو» لم تجرح ضميره فحسب، بل أدمت خياله، وضميره معاً.

أجل، لقد آذت تلك المذكِّرة خيال الفيلسوف، كما يؤذي ضوء الشمس عين الأرمد، ولبث، طوال الأيّام الثمانية التي تلت قراءتها، يشعر بألم

مضاعف: معنوي، ومادّي. وشعر هذا الذي لم يضرب إلّا في بيداء النظريات المجرَّدة، بثقل الكابوس الجاثم فوق صدره، وتمثَّلت له صورة تلميذه البغيض، كصورته يوم رآه في غرفته، يمشي على أرضها، ويعتمد على منضدتها، ويروح ويغدو في جوانبها. وانبعث من ثنايا السطور صوت يهيب به، فيملأ سمعه بتلك العبارة الرهيبة: «لقد عشت بفكرتك، ولها، بكلّ ما فيك من جهد وعاطفة».

وما كانت كلمات الاعتراف حروفاً مسطورة بمداد بارد، فوق ورق جامد، وإنما بات يكمن، في ثناياها، كائن ينبض بالحياة. فلمّا تراءت له تلك الصورة المفزعة المروِّعة، صاح صيحة الألم: «آه.. لماذا جاءتني الأمّ بتلك الكرّاسة؟». ولقد كان من الطبيعي، وقد باتت الأمّ فريسة لشرّ أنواع القلق، وأسوأ ألوان الاضطراب، متهالكة على التثبُّت من براءة ولدها، أن تنتهك حرمة الوديعة! لكن لا، فقد خدعها «روبير»، متوسِّلاً بذاك الرياء الذي طالما فاخر ذاك الشقيّ به، كما يفاخر بانتصار في ميدان علم النفس.

ولقد كان يكفي أن يتمثَّل «أدريان سكست» وجه ذلك الشابّ حتى يملأ الاضطراب جوانحه. ولما صاحت الأمّ في وجهه: «لقد أفسدت ولدي»، لم تمسسه تلك الصيحة كعالِم يدين بعلمه، ويؤمن بنظريّاته، وهو لا يرى أن العلم يفسد النفوس، والنظريات البريئة تدفع إلى الإجرام. لم يأبه لصيحة الأمّ، ولم يحفل بالاتِّهامات التي أزجاها المسيو «دي جوسات»، وردَّدها قاضي التحقيق، بل لم يهتزّ لعبارة القاضي عن المسؤولية الأدبية. ولقد غادر دار العدالة أهدأ ما يكون نفساً، وأروح ما يكون ضميراً، بل ليس من الغلوّ في شيء أن يقال إنه برح غرفة التحقيق فرِحاً!.

أمّا الآن فقد خانه جَلَده، وفارقه سكونه، وبات- وهو الفيلسوف الذي ينكر كلّ حريّة، ويدين بالجبرية، ويؤمن بالقضاء والقدر، فيحلِّل الفضيلة، والرذيلة، غير متورِّع ولا متأثِّم، كما يقبل الكيميائي على دراسة غاز من الغازات، وهو النبي الذي يبشِّر بسَيْر الكون سيراً ميكانيكياً، والذي عرف الانسجام بين قلبه وعقله- يشعر بألم يتناقض تناقضاً صارخاً مع كافّة مذاهبه العلمية، ونظريّاته النفسية.. لقد بات، مثل تلميذه، يحسّ بوخز الضمير، ويشعر بالمسؤولية.

قرأ الفيلسوف المذكِّرة، وأعاد قراءتها، فتجلّى له الخلاف بين قلبه وعقله. وكان يتريَّض في حديقة النباتات، فآوى إلى جذع شجرة، كان يؤثر أن يتفيّا ظلالها، إذ كُتِب عليها.. «غُرِسَت في عام 1632..» وهو العام الذي وُلِد فيه «سبينوزا». وكان للطقس أثره المحمود في تهدئة أعصاب «أدريان سكست»، وأصبح يحلو له أن يراقب طفلين يلعبان عن كثب من أمّهما، وأخذ الطفلان يجمعان الرمال ليشيِّدا منها بيتاً وهميّاً.

نهض أحد الطفلين فاصطدم بمقعد خشبي، وكانت الصدمة أليمة، على أنه لم ينفجر بالبكاء إلّا بعد يضع ثوان، والأطفال تخنقهم العَبَرات قبل أن يبكوا وينتحبوا، ثم هاج وماج، وانفجرت براكين غضبه، فأخذ يضرب المقعد بقبضة يده، فقالت له أمّه، وهي تدلِّله، وتكفكف دموعه: «ما الذي دهاك، يا ولدي؟ وكيف تثور ثائرتك ضدّ قطعة من الخشب؟..».

فلما رأى الفيلسوف هذا سرّى عنه، وفكَّر فيه طويلاً، ثم قال لنفسه: «ما أشبهني بهذا الغلام الصغير: إن سذاجة الطفولة تصوَّر له الجامد حيّاً، فيجعله مسؤولاً، ويحمِّله التبعة.. وهل صنعت أنا غير ذلك طوال

أسبوع؟». ولأوَّل مرّة منذ قرأ المذكّرة، اجترأ على أن يصوغ فكرته بوضوح: «لقد اعتقدت أني أحمل قسطاً من المسؤولية في تلك المغامرة الشنيعة.. مسؤولية؟ إن تلك الكلمة لا طائل تحتها، ولا معنى لها..».

ولبث يحلِّل عناصر المسؤولية، ورأى نفسه مسوقاً إلى التفكير في «جرسلو» السجين اليوم في السجن الانفرادي رقم (5) في مدينة «ريوم»، «وجرسلو»، الطالب بالأمس، في مدينة «كليرمونت»، والمكبّ على دراسة «نظرية العواطف» و«روح الله»، فآلمه أن يكون ذاك الفتى قد تناول مؤلَّفاته، فأنعَمَ النظر فيها، فأحبَّها. وثارت في خاطره العبارة الواردة في مذكِّرة «جرسلو»، والتي يقول فيها: «إني لأشعر بتأنيب الضمير، على حين أن المذاهب التي أدين بها والحقائق التي أؤمن بصحّتها، والعقائد التي يتألَّف منها جوهر عقلي، تجعلني أعتبر الضمير أغبى الأوهام الإنسانية جميعاً..».

وقال الفيلسوف في نفسه: «لكن، ماذا صنعتُ من سوء؟ وفيمَ يؤنِّبني ضميري؟ وكيف أحتمل تبعة المأساة الفاجعة التي أثارها ذلك الشرير الفاجر؟ وأين الخطأ الذي ارتكبته؟». واستعرض تاريخ حياته، فوجد أنه اتَّخذ الحقيقة ديناً، فلم يكتب إلّا ليناصرها، ولم يخطّ حرفاً إلّا في سبيل تأييد قضيّتها. وفي سبيل الحقيقة، ضحّى بكلّ شيء: بالثروة، والمنصب، والأسرة، والصحّة، والحبّ، والصداقة. ولم يَحِدْ يوماً عن شعاره: أفضِ بكلّ فكرتك، ولا تفضِ إلّا بفكرتك». وفي تلك الليلة، نام الفيلسوف ملء جفونه، ولم تزعجه في نومه رؤيا «روبير جرسلو».

وفي الغد، نهض «أدريان سكست» من نومه هادئ البال، ثم أخذت تتنازعه

الخواطر، فرأى في عنقه دَيْناً، لابدّ أن يؤدّيه لــ«روبير جرسلو»، وحقّاً أن الأستاذ مسؤول عن تلميذه، وإن أساء التلميذ فهم مبادئه وتعاليمه. وهنا، اضطربت نفس الفيلسوف، للمرّة الثانية، ولَكَم هَمَّ بأن يكتب لــ«روبير جرسلو»، على أنه كان لا يدري كيف ينجز ما بدأ؛ فماذا يقول لذاك الشابّ التعس؟ أيلومه؟ وباسم أيّ مبدأ يلومه، وهو القائل إن الفضيلة والرذيلة ليست إلّا مسائل اعتبارية، والخير والشرّ اصطلاحات اجتماعية، لا طائل تحتها، ولا غناء فيها؟ أيّ نصيحة يبذلها له في المستقبل؟ وكيف السبيل إلى إصلاح فتى لم يجاوز الثانية والعشرين، وقد نفخ الغرور رأسه، وأفسدته الشهوات الجامحة، والفضول المعيب، والنزوع إلى مخالفة الإجماع، والتنكُّر لكلّ ما اصطلح الناس على أنه شرف، وتواضعوا على أنه فضيلة؟ وهل من سبيل إلى إقناع الأفعى بألّا تنفث سمومها؟

وظلّ الفيلسوف في حرب نفسية، حتى حدث ما زاد الحرب ضراماً؛ فقد أرسل إليه مجهول صحيفةً تحمل مقالاً عنيفاً، أثار حملةً شعواء عليه، وعلى تأثيره السيِّئ بشأن «روبير جرسلو». وما من شكّ في أن الوحي قد هبط على كاتب المقال، من أحد ذوى القربى، أو المتَّصلين بأسره «جوسات»، فوصم الفلسفة العصرية ومذاهبها، ودمغ دعاتها، والهاتفين بآرائها، وعلى رأسهم «أدريان سكست»، ومَن لَفَّ لَفَّه من العلماء، ثم ضرب مثلاً، فأشار إلى قاتل الآنسة «شارلوت»، وهو يمشى نحو أداة الإعدام، فيبرِّيء الشبّان من أدواء الفلسفة الحديثة. ولو كان العالم العظيم، في موقف غير هذا الموقف، لابتسمَ إشفاقاً لهذا الكلام الأجوف، ولظنَّ أن خصمه «ديمولان»، هو الذي بعث إليه بالصحيفة، ولَأَقبلَ على عمله هادئاً، هدوء «أرخميدس»، حين كان يخطّ رسومه الهندسية على

الرمل، والمدينة فريسة للنهب والسلب. ولكن، راعه أن يرى تلك المأساة الخلقية تتمشّى، جنباً إلى جنب، مع مأساة حقيقة. وما هي إلّا بضعة أسابيع، أو بضعة أيّام، حتى يساق إلى المحاكمة، ويقف موقف الاتّهام، ذاك الذي يحمل بيده دليل براءته.

والآن، إن خادِعَ الآنسة «شارلوت» بريٌء في عرف العدالة الإنسانية. ولئن لم تكن تلك المذكِّرة شهادة قاطعة، فإن جانب الصدق فيها يكفي لإنقاذ رأس المتَّهم. أَفَيدع ذلك الرأس يطيح، وهو الذي استودعه ذلك الشابّ سرّ بؤسه، وفعاله الشائنة، وخياناته السوداء، مع أنه يعلم، إلى جانب ذلك، أن هذا الشرّير الفاجر ليس قاتلاً؟ حقّاً، لقد كان مقيَّداً بالعهد الذي قطعه على نفسه حين فضَّ غلاف تلك المذكِّرة، وطفق يطالعها. لكن، هل العهد مشروع حيال الموت؟ وكذلك، لبث «أدريان سكست» بين الإقدام والإحجام، ثم اتَّخذ خطّة:

لقد طالع في الصحف أن قضيّة «جرسلو» ستُطرح أمام محكمة جنايات «ريوم»، في يوم الجمعة (11) مارس. وفي اليوم السابق، أمر «مريت» أن تهيِّئ له حقيبته. وفي المساء، استقلّ القطار، بعد أن ألقى في صندوق البريد كتاباً موجَّهاً إلى الكونت «أندريه دي جوسات» الضابط بفرقة الخيّالة بحامية «لونيفيل»، وكان الخطاب غفلاً من الإمضاء، ولا يتضمَّن إلّا هذه الأسطر: «إن بيد الكونت «دي جوسات»، خطاباً من أخته، يحمل الدليل على براءة «روبير جرسلو». أفيسمح بأن يقضي على بريء؟». ولم يستطع ذاك الفيلسوف الهدّام أن يكتب كلمات «الحقّ» و«الواجب». على أن عزمه قد استقرّ، وسيتربَّص حتى تنتهي الدعوى، ثم يتكلَّم، فإذا التزم المسيو «دي جوسات» الصمت إلى النهاية، وإذا قُضِي على «جرسلو»،

فسيضع المذكِّرة بين يدي الرئيس، في الحال.

وقالت الآنسة «ترابينارد» للحارس «كاربونيه»، بعد أن رجعت من المحطّة، حيث صحبت سيِّدها، على الرغم منه: «لقد أخذ تذكرته إلى «ريوم»، فكيف خطر له أن يذهب إلى هناك وحده، في هذا الشتاء، وهو الذي قد توافرت له أسباب الراحة هنا؟..». فأجاب الحارس: «هدِّئي من روعك، يا آنسة «مرييت». ففي الأمر سرّ، سوف تكشفه الأيّام.. وأغلب الظنّ عندي أن، في طيّات المسألة، ولداً غير شرعيّ..».

الكونت «أندريه»

كان الكونت «أندريه» في مدينة «ريوم»، في اللحظة التي وصله فيها خطاب «أدريان سكست» إلى «لونيفيل»، يحمل الدعوة إلى ذاك الذي بات مصير «روبير جرسلو» معلَّقاً بيده. وشاءت الأقدار ألّا يلتقي الرجلان، فقد أخذ كلّ منهما طريقاً غير طريق صاحبه، ونزل في فندق غير فندقه.

وفي صباح يوم الجمعة، (11) مارس، عام 1887، فُتِحت جلسة الجنايات، وأخذت المحكمة تنظر في قضيّة «روبير جرسلو»، وكان الكونت «أندريه»، أخو «شارلوت»، يروح في بهو الفندق، ويغدو. وأوشك النهار أن ينتصف، واستطاع ياور الكونت أن يهيِّئ النظام في البهو، ولبث يرقب ضابطه وهو يقطع المسافة جيئةً وذهاباً، فيفتل شاربه بيد عصبية، ويعضّ شفته، ويقطِّب جبينه، ويعقد ما بين عينيه، بما لا يدع مجالاً للشكّ في أنه صريع الاضطراب والقلق.

ولاح للجنديّ أن الكونت لم يستطع أن يضبط شعوره في أثناء محاكمة قاتل أخته. وما كان هو، أو غيره ممّن اتَّصلوا بأسرة «جوسات راندون»

وعرفوا «شارلوت»، ليشكّوا في إدانة «روبير جرسلو». على أن الذي لم يتبيَّنه الجنديّ الأمين، هو أن ضابطه- بما عهد فيه من همة، وعرف عنه من نشاط- يدفع المركيز، وهو شيخ كبير، ليشهد الجلسة وحده. وقال الكونت لياوره، وهو يهيِّئ المائدة للطعام: «إن ذلك ليؤلمني جدّ الألم». وإذ رأى الجندي مظاهر الغمّ مرتسمة على وجه سيِّده، قال لنفسه: «إنه لطيِّب القلب، رغم ما به من خشونة وغلظة.. كم كان يحبّها!..».

وما كان «أندريه دي جوسات» يشعر بوجود أحد معه في الغرفة، وما كانت عيناه السوداوان اللتان طالما قذفتا الروع في قلب «روبير جرسلو»، ترسلان النظرة التي تفيض عزّةً وكبرياءً، شأنهما عادةً، بل كان ينبعث منهما ما يشبه الخجل، والخوف من إبداء ما يساور النفس من ألم. ويرجع تاريخ ألمه هذا إلى اليوم الذي تلقّى فيه كتاب أخته، المؤذِن بعزمها على الانتحار، ثم برقيّة تعلن موت «شارلوت». استقلّ القطار إلى «أوفرني»، على عجل، وهو لا يدري على أيّة صورة يكاشف أباه بالحقيقة الرهيبة، وقد عقد العزم على أن يثأر من «جرسلو»، وتلقّاه المركيز بهذه الكلمات:

«أتسلَّمتَ برقيَّتي الثانية؟ لقد وضعنا يدنا على القاتل...»، فلم يقل الكونت شيئاً، علماً بأن سوء التفاهم قائم بينه و بين أبيه. وطفق المركيز يروي الشبهات الملقاة على المدرِّس، ويقول: «سيلقى القبض عليه، كونه القاتل». وتسلَّطت الفكرة التالية على ذهن الأخ، الذي طار صوابه من هول الصدمة: إن القدر يحمِّله ثقل الثأر، وقد بات الثأر نصب عينه، ومناط تفكيره، منذ قرأ- والأسى يملأ فؤاده- اعتراف التي قضت، وبيان بؤسها، وظلالها، ومقاوماتها، وكيف هبَّت من نومها مذعورةً، وكيف اعتزمت أن تجهز على نفسها، وما كان عليه إلّا أن يخفي هذا الخطاب

الذي يحمله في محفظته، كي يتَّهم ذاك الجبان الذي عبث بشرف الفتاة، فيقضي عليه، دون شكّ؛ وبذلك تُنقَذ سمعة «شارلوت»، ويسلم شرفها من الأذى، إذ كان «روبير جرسلو» لا يستطيع أن يبيِّن حقيقة علاقته بالفتاة، ويوفِّر على أبويها اللذين وضعا ثقتهما في ابنتهما، وانطويا على أصدق الحبّ لذكراها، أن يعلما بالخطأ الذي تورَّطت فيه، فلا يحتملان الصدمتين معاً: صدمة موتها، وصدمة سلب عفافها.. وكذلك، لزم الكونت «أندريه» جانب الصمت.

ولزم الصمت، وهو مع نفسه في حرب مشبوبة الضرام؛ فهذا الرجل الباسل، الذي كان ينطوي، بطبعه وإرادته، على أصدق الفضائل التي يتميَّز بها أصدق جنديّ، كان يمقت الخيانة، والترخّص في الضمير، وجميع ألوان المواربة، وكافّة ضروب الجبن. وشعر بأن من واجبه أن يتكلَّم، وألَّا يدع بريئاً يؤخَذ بجهالة. وما كان يغني عنه شيئاً أن يقول لنفسه إن «جرسلو» هو القاتل الأدبي لـ«شارلوت»، وإنه خليق بالعقاب كغيره من القاتلين. وكانت تلك سفسطة أملاها الحنق المضطرم، وأوحى بها الحقد المتأجِّج، فلم تقوَ على أن تخمد الصوت المنبعث من أعماق الضمير، والذي يهيب بنا ألّا نكون أعوان الظلم، وشركاء في البغي، وإن القضاء على «جرسلو»، بوصفه مرتكباً جريمة القتل بالسمّ، ظلم لا شكّ فيه.

وجَدَّ ظرفٌ غير مرتقَب، هال «أندريه دي جوسات» وضاعف من حيرته واضطرابه؛ ذلك هو صمت المتَّهم. فلو أن «جرسلو» تكلَّم، فملأ الأسماع بتاريخ حبِّه وغرامه، مدافعاً عن رأسه، على حساب شرف الضحيّة، لما كان الكونت مسرفاً في احتقاره. على أن هذا المجرم، الذي يسطو على

الأعراض، ما لبث أن تبدّى في كرم النبيل، فلم ينطق بكلمة تلوِّث ذكرى تلك التي ساقها إلى أعماق الهاوية، وظهر ذاك الوغد في مظهر الشجاعة أمام العدالة، وتبدّى في ثياب البطولة، على طريقته الخاصّة. وفي كلّ حال، لم يعد غير جدير إلّا بالتقزُّز من لؤمه، غير حقيق إلّا بالاشمئزاز من نذالته.

وقال أندريه لنفسه، ما تلك إلّا حيلة، يعمد المتَّهم إليها، ووسيلة يتذرَّع بها أمام محكمة الجنايات، لينال البراءة، إذ كانت القضيّة خلواً من الأدلَّة. ولكنه كان يعلم، من كتاب أخته، بوجود مذكِّرات يومية، تتضمَّن تاريخ الإغراء، ساعةً فساعة، ومرحلةً فأخرى. وما من شكّ في أن تلك المذكِّرات تزعزع أركان الاتّهام، وتُضعف الرجاء في القضاء على المتَّهم، ورغم ذلك، أبى «جرسلو» أن يبرزها.

وما استطاع الضابط أن يعلّل مثار غضبه من هذا السلوك الشريف الذي سلكه خصمه، حتى لقد رأى نفسه مسوقاً برغبة ملحّة في أن يسارع إلى القاضي المنوط به تحقيق الدعوى، فتتجلّى الحقيقة، ويُلقى الضوء على المأساة، ولا تكون تلك التي قضت مَدينةً بشرفها لذاك الداعر الفاجر الذي سطا على عرضها، فسلبها أثمن جوهرة في تاج شرفها.

وكلَّما تمثَّل أخته، تلك الإنسانية التي كان يحبّها من كلّ قلبه، كما يجبّ الأخ الكبير أخته الصغيرة، حبّاً صادقاً عميقاً.. كلّما تمثَّلها ضجيعة ذلك الوغد الأنيم، والمدرِّس الحقير، الذي ساقته المصادفات المحضة، والحاجة إلى كسب القوت، تجسَّمت أمامه الإهانة البالغة التي أعياه اليوم احتمالها، كما أعياه، إبّان الحرب، أن يشهد تسليم «متز»، وهو يلقي سلاحه.

وشعر بتفريج كربته، حين ذُكِر أن قفص الاتِّهام، لا بل قفص الخزي والعار، الذي أُعِدّ لطائفة المزوِّرين، وجماعة النصّابين، وفريق السفاحين السفّاكين، قد تهيأ لذاك الرجل، ثم تتلقّاه آلة الإعدام، أو يلقى به في غيابة السجن... وكان يخمد الصوت الذي يهيب به: «يجب عليك أن تتكلّم...» سبحان الله! لقد مضت ثلاثة أشهر طوال، وهو يقاسي شرّ ألوان القلق، ويعاني أقسى ضروب الألم. وما مضت، خلال هذا الزمن، لحظة، لم تتنازعه فيها تلك العواطف المتضاربة!

«ماذا أصنع؟». كان يبدو له هذا السؤال أينما حلّ، وأينما ارتحل. كان يبدو له وهو في ميدان المناورات (فقد عاد إلى الخدمة)، وهو ممتطٍ صهوة جواده، فينهب الأرض نهباً في طرق اللورين، وفي حجرته وهو يعمل في ضوء المصباح. ومضت بضعة أسابيع وهو لا يجيب على هذا السؤال. لكن، أقبلت اللحظة التي ينبغي له أن يعمل فيها، ويضع خطّة حاسمة. فما هما إلّا يومان حتى يحاكَم «جرسلو». فيُحكَم عليه، لا محالة. وما من شكّ في أنه سيكون في الوقت متَّسع للقضاء عليه. على أن الحرب النفسية ستشتعل نارها من جديد. وكيف تمضي أشهر ثلاثة، ولا يَقطَع برأي، وهو الذي لم يعرف التردُّد أو الشكّ طوال حياته؟ أفلا يشعر، إذا انحدر إلى قرارة نفسه، بأن الصمت الذي يعتصم به، في الوقت الحاضر، ليس إلّا عزماً موثقاً؟ إنه لم يرتضِ أن يصمت إلى النهاية، إنما أرجأ الكلام، ولم يقف مكتوف اليدين، ولا أعطى على نفسه عهداً ألّا يتكلَّم. وهذا ما حال بينه وبين أن يصحب أباه في الجلسة الأولى، التي لن يلبث أن يطلَّع على محضرها، إذ قد وافت الساعة الثانية عشرة، ودنا موعد قدوم الشيخ الكبير.

قال الجندي، حين ألقى نظرة من النافذة، إذ سمع كَرَّ عربة تدنو من الفندق: «ها هو المركيز قد أقبل».

وما إن أقبل المركيز حتى ابتدره أندريه قائلاً: «خيراً، يا أبتي؟»، فأجابه: «خير، إن المحلَّفين في جانبنا»، ولم يعد المسيو «دي جوسات» ذلك المتهوِّس الذي سخر منه «جرسلو» في مذكِّرته، وأوغل في السخرية؛ فقد تهلَّل وجهه، وأبرقت أساريره، وتجلّت روح الشباب في صوته وإيماءته، وجعلته عاطفة الانتقام يتماسك، بدل أن يتخاذل، كما أنسَتْه مرضه، وأصبحت عبارته قويّة واضحة النبرات: «ففي صباح هذا اليوم، تَمّ سحب القرعة... وبين الاثني عشر محلَّفاً.. لقد أخذت أسماءهم...» ثم يرجع إلى أوراقه، «بين الاثني عشر محلَّفاً، ثلاثة مزارعون، وضابطان في المعاش، وطبيب، واثنان من أصحاب الحوانيت، واثنان من الملّاك، وصاحب مصنع، وأستاذ، وكلُّهم ممن طابت نيّاتهم، وخَلُصت سرائرهم، ومن أبناء البيوتات الذين يتطلَّبون مثلاً رادعاً.. والنائب العامّ على يقين من الحكم.. آه! يا للشقيّ الفاجر! ما شعرت بالراحة، لحظة واحدة، منذ ثلاثة أشهر، إلّا حين رأيته قادماً بين جنديَّين، فأيقنت أنه مأخوذ بجنايته، وأن العدالة قد وضعت يدها عليه!.. ومن هو ذاك المجرم الذي يفلت من قبضة العدالة؟ لكن، يالها من جرأة! فقد نظر في جوانب القاعة.. وكنت جالساً في الصف الأوَّل... فرآني... أفتصدِّق؟ إنه لم يحوِّل نظره... بل لبث يصوِّب النظر إليّ، كأنما هو يزدريني... إنّا نطلب رأسه، وسننناله، لا محالة».

وطفق الشيخ يتحدّث في لهجة وحشية، ولم يتبيَّن آثار الألم التي ارتسمت على وجه الكونت، حين سمع حديثه. فما لبث أن تراءت لــ «أندريه»

صورة خصمه، وهو صريع بين يدي القوّة العامّة، مكبَّلاً بالحديد، يحيط به الجند، وتوشك العدالة أن تبطش به، لا بل تسحقه تحت ثقل أداتها سحقاً، حتى استشعر الخجل، خجل الرجل الذي يعهد بالقتل إلى طائفة من القَتَلة. وفي الواقع، لقد سَخَّر الجند والقضاة للقتل، واتَّخذ منهم أداة للقيام بعمل، وَدَّ لو قام به هو نفسه، وبيديه، وتحت مسؤوليَّته!.

أجل، لقد كان من الجبن ألّا يتكلَّم. ثم ماذا ينطوي، من معنى، تحت تلك النظرة التي ألقاها المتَّهم على المركيز «دي جوسات»؟ هل كان «جرسلو» يعلم بأن شارلوت كتبت الخطاب المتضمِّن اعترافاتها، قبل يوم انتحارها؟ ولئن كان يعلم به، فماذا يظنّ؟ لقد غلا الدم في عروق الكونت حين خطر له أن ذاك الشابّ يمكن أن يكون واقفاً على الحقيقة، فيزدريهما، المركيز وهو، لاعتصامهما بالصمت.

وما إن غادر أبوه الفندق ليستأنف حضور الجلسة، بعد تناول الغداء، على عجل، وبغير أن يتبادلا كلمة واحدة، حتى قال لنفسه: «كلّا، لا أستطيع أن ألزم الصمت. سأتكلَّم، أو سأكتب...».

ثم جلس إلى المائدة، وشرع يخطّ هذه الكلمات في رأس ورقة: «سيِّدي الرئيس...». وأقبل الليل، وما برح ذاك الرجل البائس مكانه، وجبهته فوق يده.. لم يكتب السطر الأوَّل، وكان يترقَّب أنباء الجلسة الثانية، فاضطرب حين سمع، من أبيه، بيان ما دار فيها:

– «آه، يا عزيزي «أندريه»، كم كنت على حقّ حين أبيت أن تشهد الجلسة!... يا للعار!.. ياللعار!... لقد استُجْوِب «جرسلو»، فمضى في خطّته، وأبى أن يتكلَّم... وهذا ليس بشيء، ولكن الخبراء أقبلوا يحملون نتيجة التحليل.

وكان طبيبنا أوَّلهم.. فتكلَّم الرجل بصوت متهدِّج، حين وصف الأثر الذي تركته في نفسه رؤية بنيَّتنا المسكينة «شارلوت» لدى دخوله الغرفة، ثم الأستاذ «ارمان». وما كنت لتحتمل، بهذا الشيء الفظيع، تشريح جثّة ملاكنا، وهي معروضة هناك، في القاعة، حيث يوجد خمسمئة شخص وكيميائيّي باريس. لم تبق إثارة من الشكّ بعد ذلك!... ورأيت، على المائدة، الزجاجية التي استعملها ذاك الوحش الضاري... ثم... كيف اجترأوا؟ إن محاميه، وهو مع ذلك محامٍ منتدَب، ولا يلتمس له العذر بأنه صديق موكِّله... محاميه إذاً... لكن كيف أقول لك؟ لقد تساءل عمّا إذا كانت «شارلوت» ماتت عذراء، وعمّا إذا كانوا كشفوا عنها... فسرى التقزُّز، وعلا التذمُّر في جوانب القاعة، وتملَّكَ الغيظ مَنْ فيها جميعاً... هي، بنيَّتي، التي كانت ربّة الصون والعفاف، ورمز الاستقامة، وعنوان الشرف، بل التي كانت قدّيسة! لقد هممت بأن ألطم ذاك الرجل... حتى القاتل تأثَّر من ذلك، وهو الذي لا يجد التأثُّر سبيلاً إلى نفسه... فلقد رأيته، وفي تلك اللحظة، يأخذ برأسه بين يديه، ثم انفجر بالبكاء... نبِّئني: ألّا ينبغي أن يكون ذلك محظوراً بمقتضى القانون، فلا تنصبّ الإهانة على ضحيّة، على مرأى من الحاضرين في الجلسة، ومسمع منهم؟... فما الذي كان يعتقده إذاً؟ أفكان يعتقد أن لها عاشقاً؟... عاشقاً؟ أَوَ يكون لمثلها عاشق!؟».

وأخذ الحنق من الشيخ كلّ مأخذ، حتى انفجر بالبكاء. وحيال ذاك الألم البالغ، شعر الابن بفؤاده يذوب أسًى، والدموع تنحدر من عينيه، فتعانق الرجلان صامتَيْن. ولمّا استطاع الأب أن يتكلَّم، قال: «أنت ترى أن الجانب البشع الشنيع، في تلك المحاكمة، هو أن يُثار الجدل، علناً، حول أمور

خاصّة، وقد كانت تخجل ممّا يمسّ شعورها. ألم أقل لك؟.. إني على ثقة بأنها كانت تشقى، طوال الشتاء، لغياب «مكسيم». صدِّقني، لقد كانت تحبّه، دون أن تودّ المكاشفة بذاك الحبّ، وهذا الذي أضرم نيران الغيرة في قلب «جرسلو».. فلمّا قدم إلى البيت، ورأى رقّتها، وظرفها، وبساطتها، اعتقد أن في وسعه أن يغريها، فيتزوَّج بها. وكيف لها أن تدرك ذلك، وأنا، الذي قد خبرت الرجال، لم أدركه؟» ولبث المركيز يبدئ، ويعيد، في هذا الكلام، طوال العشاء وطرفاً من الليل (وكان ذلك عزاءه الوحيد)، والابن يصغي دون أن يجيب. وكان تقديس الأب لتلك التي قضت مثاراً لحزنه، في اللحظة التي يتأهَّب فيها... يتأهَّب لماذا؟ أينزل هذه الضربة الهائلة بذاك الشيخ الكبير؟ وعندما انقلب إلى غرفته، وسط السكون الشامل، تناول خطاب أخته، فأعاد قراءته، رغم أنه يحفظ كلّ عباراته عن ظهر قلب. كانت تنبعث، من ثنايا تلك السطور التي خَطَّتها يد تلك التي قضت، زفرة يأس، وهمسة ألم حزين يمزِّق نياط القلب! ولقد لبثت الفتاة غارقة في الوهم، وكان يحدوها الإخلاص في مناهضة شعورها، وهبَّت من غفلتها حزينةً باكيةً، حتى لقد أحسَّ الكونت الدموع تنحدر على خده. وبكى، للمرَّة الثانية، في اليوم ذاته، وهو الذي ظلَّت عينه جافّة بعد موت «شارلوت»، كأنّما تحترق بنار الحقد. وقال لنفسه: «لقد كان «جرسلو» خليقاً بما ناله...» ولبث جامداً بضع دقائق، ثم اتَّجه نحو الموقد، وقد كانت النيران توشك أن تخمد، فألقى بأوراق الخطاب، وأشعل عود ثقاب، ووضعه تحت الورق. ورأى النار تلتهب، فتلتهم الكتابة، وتحيل الدليل الوحيد على ذاك الحبّ التعس، وانتحار الفتاة، حطاماً سوداء، ثم مزج الحطام بالتراب، وآوى إلى فراشه وهو يحدِّث نفسه بصوت عالٍ: «قُضِيَ الأمر»، وأسلم عينيه للكرى كالليلة التي خاض، في نهارها، غمار

أوَّل معركة، فنام ملء جفونه، ولم يفتح عينيه، وهو المبكر، عادةً، إلّا في الساعة التاسعة من صباح الغد.

وأجاب الجنديّ حين ناداه سيِّده، ففتح النوافذ، وكانت الشمس مشرقة ترسل أشعتها: «لقد حظَّر المركيز إيقاظ رئيسي، ومضى على ذهابه ساعة... ويعلم رئيسي أنهم اضطرّوا، اليوم، لإحضار المتَّهم بطريق خفيّ، فلشدَّ ما كانت ثورة الناس عليه!»، فسأل «أندريه»: «أيّ طريق خفيّ؟».

- «الطريق المفضي، من السجن الاحتياطي إلى دار المحكمة... ويظهر أنهم يستخدمونه لكبار المجرمين الذين يُخشى أن يمزِّقهم الجمهور الثائر. أمَا- والله، يا رئيسي- لو رأيته يمرّ، لأفرغت في صدره رصاص مسدّسي... فالكلاب، لا تُحاكَم، بل تصرع...». ثم قال: «حسن، لقد نسيت بريد الصباح في البهو».

وما لبث أن رجع، وبيده ثلاثة خطابات. ألقى «أندريه» نظرة على الخطابَيْن الأوَّلَيْن، فأدرك لمَنْ هما، أمّا الثالث فكان يحمل عنواناً لا يعرف كاتبه. وكان موجَّهاً، من باريس، إلى لونيفيل، ثم حُوِّل إلى «ريوم»، ففضَّ الكونت غلافه، وقرأ السطور الثلاثة التي خطَّها «سكست» قبل أن يستقلّ القطار، فارتعدت يد الضابط الباسل الذي ماعرف الخوف سبيلاً إلى قلبه، وامتقع لونه حتى بات في لون الورقة التي يحملها بيده المرتعشة، فارتاع الجنديّ وسأله:

- «أَفي رئيسي مرض؟»، فقال الكونت فجأةً: «دعني، سأرتدي ثيابي بنفسي».

وحقّاً أنه كان بحاجة لأن يفيق من هول الصدمة التي أصابته؛ إذ تبيَّن أن في الناس مَنْ يعلم سرّ موت «شارلوت» غير «روبير جرسلو»، فلقد رأى صفحات بخطّ الشابّ، ولم يكن هذا خطّه. وكانت هزّة رعب وفزع كتلك التي تصيب أشجع الرجال في حادث جلل غير مرتقب. ولو أن «شارلوت» بُعِثت من قبرها لما هاله مرآها، كما هاله ذاك الحادث. فمن الناس من يعلم بانتحار الفتاة، وبالخطاب الذي كتبته قبل موتها، وقد يُعلَم غير ذلك من ملابسات المأساة... فما عسى أن يظنّ به ذاك الذي يعلم الحقيقة؟ إن السؤال الذي خُتِمت به البطاقة يفصح عن ذلك. وما لبث الكونت أن تذكَّر ما اجترأ عليه ليلاً، وذكر الخطاب الذي ألقاه في النار، فاصطبغ وجهه بحمرة الخجل... ولم يعد في وسعه أن يمضي فيما اعتزمه بالأمس. وإنه لا يحتمل، وهو النبيل المتعطّش للشرف، أن يقول قائل: «إن الكونت «دي جوسات» وقف موقف جُبن»، وانبعث، من جديد، اضطراب الأمس الذي حسبه مضى وانقضى، وبات أصعب احتمالاً، حين عاد أبوه فقال له:

– «لقد سُمِع الشهود... وأدَّيت شهادتي... على أن ما كان شديداً على نفسي، هو وجودي مع أمّ «جرسلو»، قبل دخول الجلسة... ومن سعد الطالع أنها لم تنزل معنا في هذا الفندق، بل نزلت في فندق آخر. واجترأت على أن تدعوني لأتحدَّث إليها. ويالمنظرها حين دعتني!: لقد كان وجهها مكفهرّاً، عيناها دامعتان.. وأقبلت تناشدني أن أقول إن ولدها بريء، وأني أعلم براءته، وليس من الحقّ أن أشهد عليه. نعم، ياله من منظر هائل، رأى الجند واجباً عليهم وضع حَدّ له!... يالها من تعسة! لا أستطيع لومها على ما فعلت... فذلك ولدها... يا عجباً لهذا الشقيّ الفاجر: يجد قلباً ينطوي على حبّه، كما أحببت «شارلوت»، وأحببتك، و..! لكن ذلك

لا يعنينا، فقد حانت الساعة الواحدة، وسيتكلَّم النائب العام، ثم يليه الدفاع... وبين الساعة الخامسة والساعة السادسة تعلم الحكم... وكم يشفي غليلي أن أراه ساعة النطق بالحكم!؛ فالقصاص الحقّ-وقد ارتكب جريمة القتل- أن يُقتَل».

بين الساعة الخامسة والساعة السادسة، حين بات الكونت «أندريه» وحده، أخذ يغدو ويروح، كما كان يفعل بالأمس، في حين أن الجندي ظلّ يرفع المائدة مع خادم المسيو «دي جوسات». ولقد روى هذان الرجلان أنهما لم يريا سيِّدهما، في مثل قلقه واضطرا به، حين كانا يقومان بذاك العمل، وأثار دهشتهما حين طلب أن تُهَيَّا له ثيابه الرسمية. وما هي إلّا ربع ساعة حتى كان متأهِّباً، فغادر النزل، الذي لم يبرحه منذ قَدِم إلى مدينة «ربوم». وما راع الجندي إلّا أن يرى الضابط يحمل مسدَّسه، وقد ظلّ يومين ملقًى على مائدة غرفته. وتذكَّر ما قاله فأفضى إلى صاحبه بالمخاوف التي تساوره:

«لو قُضِي ببراءة «جرسلو» لأفرغ الضابط رصاص مسدَّسه في رأسه، فألقاه صريعاً يتخبَّط في دمه..»، فأجاب الخادم: «أَوَ ليس من واجبنا أن نتبعه؟..».

وبينا الخادمان يتشاوران، كانت الكونت في طريقه إلى دار المحكمة. وكانت المدينة، إذ ذاك، في مثل صمت القبور، فلمّا أقبل على دار العدالة، ألفى جموعاً زاخرة، غصّ بها الطريق المفضي إلى قاعة الجنايات. فلقد استثارت قضية «جرسلو» فضول الناس. وشقّ «أندريه» طريقه بين الصفوف بعناء؛ فلقد خفّ القرويّون من الريف، وتجمَّع أصحاب

الحوانيت، وكان هؤلاء وأولئك، يجادلون في حرارة، ثم ألفى جنديين، نيط بهما حفظ النظام وكبح جماح الجماهير المتدفِّقة. وبدا التردُّد على الكونت، حتى سار إلى آخر الشارع غير معرِّج على المحكمة، فألقى نفسه أمام شرفة، غُرِست فيها أشجار. وكان خرير الماء في السبيل يُسمَع، رغم ضجيج الجماعات الصاخبة المتدفِّقة، فجلس «أندريه» فوق مقعد، على كثب من هذا السبيل، وما يدري ما الذي حدا به لأن يمكث هناك نيفاً ونصف ساعة، ولا الباعث الذي حمله على النهوض، والتوجُّه صوب دار المحكمة، وتسطير بضعة كلمات في بطاقته، ثم دفع تلك البطاقة لأحد الجند، ليحملها الحاجب إلى الرئيس. فلقد كان مسوقاً إلى العمل رغم أنفه، وكأنما كان في حلم. وما كان له أن ينثني عن عزمه، ولو أنه وجد نفسه وجهاً لوجه أمام أبيه، إذ كان بين الحاضرين الذين اشرأبّوا بأعناقهم، وأرهفوا أسماعهم، تطلُّعاً لما يدور في الجلسة. ولم يخفِّف عنه إلّا حضور الحاجب ليرشده إلى الطريق. ولم يمرّ به إلى قاعة الجلسة مباشرةً، إنّما أدخله في مكتب الرئيس. وكانت الملفّات ملقاة على المائدة، وألقى معطفاً وقبَّعة معلَّقَيْن في مشجب. وإذ قدم إلى هناك، قال له الحاجب:

– «سيسمع الرئيس أقوالك حين يفرغ النائب العامّ من مرافعته...»، ياله من عزاء غير مرتقب، خلال ألمه المبرِّح! لن يؤدِّي الشهادة علناً، وأمام أبيه! فسيوفِّر عليه هذا العذاب الأليم! على أن هذا الأمل لم يدُمْ طويلاً، فلم يكد الضابط يُمضي في مكتب الرئيس عشر دقائق، حتى دخل هذا الأخير، وكان شيخاً كبيراً، اشتعل رأسه شيباً، وما هي إلّا الكلمات الأولى، وحيال تأكيد الكونت بأنه جاء يحمل دليل براءة المتَّهم، حتى قال القاضي، وقد تولّاه الذهول:

- «لا أستطيع- يا سيِّدي، في تلك الحال- أن أستمع لما تساررني به... وستعاد الجلسة، فتُسَمع كشاهد، على شريطة أن لا يعارض الاتِّهام أو الدفاع في سماع أقوالك».

وكذلك، قُدِّر لأخ «شارلوت» أن يشرب كأس الألم حتى الثمالة، ويتجرَّع غصص العذاب، وأن يجتاز مراحل الهمّ، مرحلةً مرحلة. واصطدم بأداة العدالة، التي لا تقيم، بل لا تستطيع أن تقيم وزناً للحساسية الإنسانية، وكان لابدّ له أن يجلس في غرفة الشهود، فيذكر المشادّة التي وقعت، منذ بضع ساعات، بين أبيه وبين أمّ «جرسلو». ومن هناك، يدخل إلى قاعة الجنايات. وما إن دخل حتى اشرأبَّت الأعناق، وتطلَّعت الأبصار، وتصدَّر الرئيس بين زميليه، وتبدّى النائب العامّ في ردائه الأحمر، ثم جلس المحلَّفون إلى شمال المحكمة. وقد وقف «روبير جرسلو» في قفص الاتِّهام، إلى اليمين، طاوياً ذراعيه، وعلى وجهه غبرة، ترهقها قترة، ولكنه كان رابط الجأش. وتدفَّقت الجموع، لتأخذ مكانها من القاعة، ورأى «أندريه» أباه بين الشهود، فكاد المنظر يدمي قلبه، إلّا أنه ظلّ ثابت الجنان، حين سأل الرئيس، المدافع عن المتَّهم، والنائب العامّ، عمّا إذا كانا لا يعارضان في سماع الشاهد، ثم سأله عن اسمه وصفاته، وطلب منه حلف اليمين وفق الصيغة المعروفة. ولقد أجمع القضاة الذين شهدوا المحاكمة على أن لا شبيه لذاك الأثر البالغ الذي تملَّك نفوس الحاضرين ونفوسهم هم، حين وقف ذاك الرجل، الذي عرف الكلَّ، من مقالات الصحف التي نُشِرت على ذكر القضية، ماضيه الحافل بالبسالة، فقال بلهجة ثابتة، لكنها تشفّ عن الألم الذي يحزّ في النفس:

- «حضرات المحلَّفين، ليس لديَّ إلّا كلمتان: إن أختي لم تُقتَل، بل قَتلت

نفسها. وقد تلقَّيت منها، في اليوم السابق ليوم موتها، خطاباً تُعلن فيه عزمها على الموت، ولماذا ستنتحر.. واعتقدت- يا سادتي- أن من حقّي أن أكتم هذا الانتحار، فحرقت هذا الخطاب... ولئن كان الرجل الماثل أمامكم- وأشار إلى «جرسلو بيده» غير ملتفت إليه إلّا قليلاً- لم يصبّ السمّ، فقد صنع ما هو أسوأ... لكنّ قصاصه ليس من اختصاص عدالتكم، وما ينبغي أن يُقضى عليه كقاتل... فهو بريء... ولئن أعوزني الدليل المادّي الذي أستطيع تقديمه إليكم على تلك البراءة، فإني أحمل لكم قولي..». وتساقطت تلك العبارات واحدةً بعد واحدة، فأحزنت قلوب الحاضرين جميعاً، وسُمعِت صيحة، أعقبها أنين، وقال صاحب الصيحة:

- «إنه لَمجنون، أنه لَمجنون، لا تصغوا إليه».

فقال الكونت «أندريه»، وقد عرف لهجة المركيز، فالتفت إلى الشيخ الفاني، وهو يكاد يتهدَّم فوق مقعده: «كلّا، يا أبتي، ما أنا بمجنون... ولقد فعلت ما يقضي به الشرف... وأرجو- يا سيِّدي الرئيس- ألّا أُكره على أن أقول أكثر ممّا قلت».

وشفَّ صوته عن التوسُّل، حين نطق بهذه العبارة، وهو الرجل الذي تفيض نفسه عزّةً وكبرياءً، فتذمَّر الحاضرون حين أجابه الرئيس:

- «لا أستطيع- يا سيِّدي، على كره مني- أن أجيب سؤلك؛ فإن خطورة الشهادة التي أدَّيتها، الآن، لا تسمح للعدالة أن تركن إلى أقوالك مبهمة، بل يملي علينا واجبنا، أن نضطرّك إلى بيانها...».

- «حَسَنٌ، يا سيّدي، سأقوم، أنا الآخر، بواجبي إلى النهاية...».

دلّت لهجة الشاهد على العزم، فانقطع التذمُّر، وساد الصمت، وسُمِع الرئيس وهو يقول:

- «لقد تكلَّمت- يا سيِّدي- عن خطاب، كتبته إليك الآنسة أختك... فائذن لي أن أقول لك إن من العجيب ألّا يكون قد خطر ببالك- لأوَّل وهلة- أن تنير العدالة، بتقديمه إليها!»، فقال الكونت: «لقد تضمَّن سرّاً، وددت أن أكتمه، ولو بذلت في ذاك السبيل دمي...».

ولقد روى، فيما بعد، إلى «مكسيم دي بلان»، الذي حفظ عهد الصداقة والودّ إلى نهاية المأساة، أن تلك كانت اللحظة هي التي احتمل فيها أقسى التضحيات، ثم تضاعف الشعور حتى ذهب أثره. وأفضى بكلّ ما احتواه خطاب تلك التي قضت، والمضض الذي عاناه، والألم الذي قاساه. وما يذكر إلّا أنه جلس في مقعد الشهود، حيث حمل أباه، إذ خَرَّ مغشيّاً عليه، حين فاهَ بالعبارات الأخيرة من شهادته... ونهض النائب العامّ فتخلّى عن الاتِّهام. ولا يستطيع أن يقدِّر الوقت الذي مضى بين كلمات النائب العامّ، ودفاع محامي «جرسلو»، وخروج المحلَّفين بقرار البراءة. وما يذكر إلّا أن الحارس دعاه للخروج حين خلت القاعة، فخرج أمامه مسرعاً، ورآه بعض أهالي «كومبروند»، بعد أن شهدوا جلسة الجنايات، في طريقه إلى تلك القرية. وخرج من فندق فيها، حيث كان يكتب بضعة خطابات، موجَّه أحدها إلى أبيه، والآخر إلى أمّه، والثالث إلى رئيسه، والأخير إلى «مكسيم دي بلان». وما حانت الساعة التاسعة حتى كان يطرق باب فندق «كومرس»، في مدينة «ريوم»، حيث قال له المسيو «دي جوسات» إن والدة البريء قد نزلت، فسأل الحارس عمّا إذا كان المسيو «جرسلو» حاضراً. ولقد سمع هذا الغلام رواية الجلسة المحزنة، فما إن رأى الضابط

أمامه، في ثوبه الرسمي، حتى أدرك، وهداه حسن التقدير لأن يجيب بأن المسيو «روبير جرسلو» لم يظهر إطلاقاً. ومن سوء الطالع اعتقاده بأنه يحسن صنعاً إذا هو صعد إلى الشابّ، في الحال، ولم تمضِ ساعة على خروجه من السجن، حتى كان مع أمِّه والمسيو «أدريان سكست». ولم يجد هذا الأخير سبيلاً إلى مقاومة توسُّلات الأرمل، التي ما كادت تراه في بهو الفندق حتى ناشدته أن يعينها على استقرار ولدها.

وطلب هذا الرجل أن يؤذَن له بمخاطبة «جرسلو» على انفراد، فقال له: «حذار يا سيِّدي، فإن الكونت «دي جوسات» يجدّ في البحث عنك». سأل «جرسلو» بلهفة: «أين هو؟»، فأجاب الحارس: «ما أظنّه قد غادر الشارع، ولكني قلت له إن الناس لم يروك هنا»، فرَدَّ «جرسلو»: «لقد أخطأت» وتناول قبَّعته، وأسرع إلى السلَّم، فتوسَّلت إليه أمّه قائلةً: «أين تذهب؟»، فلم يجب الشاب، ولعله لم يسمع تلك الصيحة. فلشدَّ ما كان سريعاً وهو يهبط السلَّم!؛ إذ خشي أن يعتقد الكونت «أندريه» أنه قد بلغ منه الجبن مبلغاً، جعله يتوارى منه. ولم يطل به البحث عن عدوه، إذ كان الكونت في الجانب الآخر من الشارع، يرقب الباب، فذهب «روبير» إليه، وسأله في إباء وعزّة:

– «هل لديك ما تقوله لي، يا سيِّدي؟».

– فقال الكونت: «نعم»، فمضى جرسلو يقول: «أنا رهين إشارتك في أيّ إصلاح ترى أن تطلبه مني، وأعاهدك على ألّا أبرح «ريوم»، فأجاب «أندريه دي جوسات»: «كلّا، يا سيِّدي، إن الإنسان لا يقاتل مثلك، بل يقتله». وتناول المسدَّس من جيبه. وبما أن الأخير لم يفرّ، بل وقف أمامه

ولسان حاله يقول: كيف تجترئ،؟ ثم أفرغ رصاصة في رأسه. وسمع مَنْ بالفندق، في وقت واحد، طلق المقذوف الناريّ، وصرخة نَزْع. ولمّا أقبل الناس وجدوا الكونت «أندريه» واقفاً أمام الحائط، وقد ألقى سلاحه، وطوى ذراعيه، وقال مشيراً إلى جثّة عاشق أخته، وهي ملقاة تحت قدميه:

«هذا جزاء حقّ، وقصاص عادل».

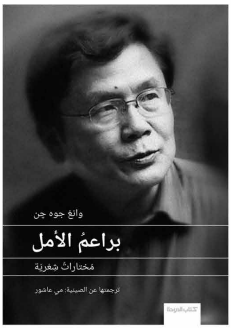
ثم سلَّمَ نفسه طائعاً.

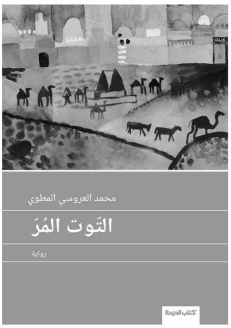
صدر من سلسلة كتاب الدوحة

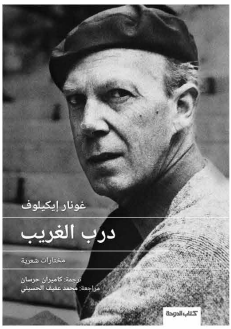
1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم – بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين – أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة – مختارات شعرية – الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حريّة الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنية	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم – مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
--	فتنة الحكاية جون أديك – سينثيا أوزيك – جيل ماكوركل – باتريشيا هامبل	ترجمة: غادة حلواني
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر – مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسية	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري

33	سراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حمّيش
36	حي بن يقظان – تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة – ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال – مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو
41	الشرق الفنّان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف – رسائل إلى العائلة	ترجمة: ياسر شعبان
43	إلياس أبو شبكة "العصفور الصغير"	مختارات شعرية
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي المك
46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبدالدين حمروش
48	تاريخ الفنون وأشهر الصور	سلامة موسى
49	من أجل المسلمين	إيدوي بلينيل – ترجمة: عبداللطيف القرشي
50	زينة المعنى (الكتابة ، الخط ، الزخرفة)	يوسف ذنّون
51	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
52	النخبة الفكرية والانشقاق (تحـوُّلات الصـفـوة العارفة في المجتمع العربي الحديث)	د. مُحسن الموسوي
53	ياسمينة وقصص أخرى	إيزابيل إيبرهاردت ترجمة وتقديم: بوداود عمير
54	آباي (كتاب الأقوال)	ترجمة: عبدالسلام الغرياني
55	مأساة واق الواق	محمد محمود الزبيري
56	بين الجزْر والمدّ (صفحات في اللغة والآداب والفنّ والحضارة)	مي زيادة
57	ظلّ الذّاكرة (حوارات ونصوص من أرشيف «الدوحة»)	قسم التحرير «مجلة الدوحة»
58	الرحلة الفنّية إلى الديار المصرية (١٩٣٢) تحقيق: رشيد العفاقي	أليكسي شوتان –تعريب: عبد الكريم أبو علو
59	قيصر وكليوبترا	إسماعيل مظهر
60	الصين وفنون الإسلام	ذكي محمود حسن
61	براعمُ الأمل (مُختارات شِعْريّة للكاتب الصيني وانغ جو جن)	ترجمة: مي عاشور
62	التّوت المُرّ	محمد العروسي المطوي
63	درب الغريب	غونار إيكيلوف
64	من والد إلى ولده	أحمد حافظ عوض بك

صدر في سلسلة كتاب الدوحة

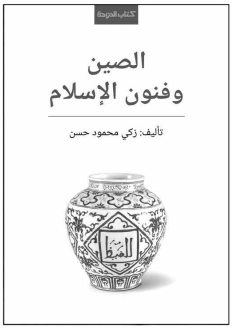












يمكنكم تصفح النسخة الإلكترونية من كافة إصدارات السلسلة
على موقع مجلة الدوحة الإلكتروني www.aldohamagazine.com

«في أواخر القرن التاسع عشر، طغت على فرنسا موجة الإلحاد، وعصفت بها ريح التنكُّر لكلِّ شيء؛ فكنت ترى نفراً يجحدون الأديان جميعاً، ويتهجَّمون على كافّة ما يقدّسه مواطنوهم، وترى طائفة تنكر ما تواضَعَ قومها على أنه شرف، واصطلحوا على أنه فضيلة، زعماً بأن الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والجمال والقبح، والشرف والانحطاط، إن هي إلّا كلمات يطنطن بها الناس، دون طائل، ودون غَناء.

واستسلم فريق من الشبّان إلى الإباحية؛ جرياً وراء القائلين بأن قيمة الحياة في تحقيق أكبر قسط من اللذّة والمتاع، وعَمَد فريق آخر إلى اعتناق المذاهب الهدّامة، فسَخِروا من النُظم العتيقة، وهزئوا بالتقاليد البالية، وأعْمَلوا معاولهم في بناء المجتمع، ليقيموا، على أنقاضه، صرح المجتمع العصري الذي تتحقَّق فيه مبادئ العدالة، والحرّيّة، والسعادة.

وقد وقف پول بورجيه في وجه تيّار الإلحاد، يصدّه، وعاصفة الإباحية، والاستهتار، والفوضى الفكريّة، يدفع أذاها عن الشبيبة الفرنسية...».